المركز الماركسي - اللينيني للدراسات والأبحاث والتكوين

موقع ٨ مارس الثورية

عشر نساء اقتحمن السماء

بحث في سير نساء ثوريات حاولن المستحيل

يناير 2020

تقديم 3
ناديا كروبسكايا: المعلمة البلشفية الرائعة 5
ألكسندرا كولونتاي: رائدة النضال الثوري النسائي 24
كلارا زتكين: المعلمة النسائية البروليتارية 34
دولوريس إباروري: شيوعية ثورية أممية اسبانية ضد الفاشية 47
جميلة بوحيرد: أيقونة الثورة الجزائرية 68
تمارا بونكي أو تانيا الثائرة : شيوعية وثورية وأممية 77
ليلى خالد: الأسطورة الفلسطينية الثائرة 87
أولرايك ماينهوف: المناضلة الثائرة و القائدة المنظرة و الشهيدة الثورية 100
سعيدة لمنبهي: المناضلة الشيوعية الماركسية اللينينية الثورية المغربية 120
جيانغ جينغ: مسار امرأة صينية ثائرة 149
مقتطفات 232

تقديم:

بمناسبة الذكرى 42 لاستشهاد الرفيقة الماركسية ـ اللينينية المغربية سعيدة لمنبهي، يصدر موقع "8مارس الثورية" كتابا جديدا تحت عنوان" **عشر نساء اقتحمن السماء، بحث في سير نساء ثوريات حاولن المستحيل".**

يجمع الكتاب بين دفتيه سردا لسير مناضلات ثوريات بزغن في معمعان النضال الثوري خلال القرن العشرين، لكل منهن مسارها النضالي والفكري الذي ينتمي إلى سيرورات ثورية مختلفة أملتها الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بل والتاريخية لبلدان انتمائهن القومي المرتبطة بالسياق الأممي للثورة العالمية في ظروف ملموسة محددة. و قد اخترنا من روسيا بلشفيتين ثوريتين من الطلائع الأمامية للحزب البلشفي هما ناديا كروبسكايا وألكسندرا كولونتاي، أما من ألمانيا فقد وقع اختيارنا على مناضلتين ثوريتين ينتمين إلى جيلين مختلفين، جيل نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين والاستمرارية الثورية حالة كلارا زتكين، وجيل السبعينات في زمن الفوران الثوري ونموذج أولرايك ماينهوف التي سقطت شهيدة في النضال الثوري ضد الامبريالية ومناصرة نضال الشعوب المضطهدة .وتحتل دولوريس ايباروري الشهيرة باسم الباصيوناريا ، وهي من اسبانيا ، مقاما بارزا في النضال الثوري ضد الفاشية، وفي الصين تقف جيانغ جينغ كثورية صامدة حتى النهاية دفاعا عن خط الثورة الثقافية البروليتارية وعن الإرث الثوري لخط ماوتسي تونغ وعن الحق في الثورة المستمرة من أجل بناء الاشتراكية على طريق الشيوعية، أما في فلسطين والجزائر والأرجنتين فقد بزغت أسماء هزت العالم بنضاليتهن وثوريتهن في سياق نضال التحرر الوطني للشعوب في القارات الثلاث، ونذكر هنا أسماء جميلة بوحيرد وتمارا بونكي (الشهيدة) وليلى خالد. وأخيرا، ومن المغرب، اخترنا سعيدة لمنبهي المناضلة الماركسية اللينينية المغربية التي سقطت شهيدة في النضال الثوري من أجل بناء الحزب الثوري الماركسي اللينيني المغربي ومن أجل الثورة الوطنية الدمقراطية الشعبية على طريق الاشتراكية....

إن القرن العشرين، ولا شك في ذلك، يعج بآلاف الشيوعيات والثوريات ضحين من أجل قضايا التحرر والديموقراطية والاشتراكية، مناضلات طليعيات قمن بواجباتهن الوطنية والأممية ودفاعا عن تحرر جنسهن، لكن ليس بإمكاننا الحديث عنهن جميعا، فاخترنا نماذج معبرة لتمثيلهن في هذا البحث. ويسرنا أن نقدم للمناضلين والمناضلات على حد سواء عشرة نساء ثوريات من خيرة ما أنتجته تجارب الشعوب في النضال ضد الاستغلال والاضطهاد والميز الجنسي ضد النساء. عشر نساء بمسارات مختلفة وبقيم ثورية مشتركة، بحضورهن ودورهن وأخلاقهن الثورية رفعن عاليا راية الثورة العالمية.

كم يحتاج نضالنا اليوم إلى استلهام هذه النماذج النسائية الثورية والتعريف بها، لنقف بها ضد الأنماط النسائية المسماة مناضلة التي تسوقها الامبريالية العالمية وأبواقها وكلاب حراستها من اعلاميين وغيرهم، وكذلك لنحطم الأنماط البورجوازية الصغيرة عما يسمى بالمناضلات في أغلبهن يسوقن لنماذج ليبرالية مرتبطة أشد الارتباط بأوكار الامبريالية العالمية وممولها، نحتاج إلى روح جديدة في النضال الثوري عموما، والنسائي خصوصا، ليصبح الحق في الثورة واقعا معاشا.

ناديا كروبسكايا : المعلمة البلشفية الرائعة

(روسيا)

تقديم:

إن كل من يتتبع مسار حياة ناديا كروبسكايا رفيقة إيليتش أوليانوف (لينين)، لا يمكن إلا أن يكون منبهرا ومشدوها أمام هذه المرأة الرائعة، ويعجب بها أيما إعجاب، حتى أنه يمكن القول وبدون مبالغة، ويتجرأ على القول ولا يأخذه في ذلك لومة لائم، أنه لولا كروبسكايا لما كان لينين، بل و أكثر ، أنه لولا كروبسكايا لما توفرت العديد من الشروط التي ساهمت بقوة في ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى، لأنه قليلون من يدرك أنه في التفاصيل وما يظهر أمورا صغيرة، عندما يجمع يعطي أشياء عظيمة، وهذا ما ينطبق على هذه المرأة العظيمة، ناديا كروبسكايا .

إن ما تحفل به ثنايا الكتب والكراسات والأرشيفات والشهادات والأقوال حول هذه المرأة، يجعلك تقف وقفة إجلال واحترام لها ويشد بلبابك شخص هذه المرأة وعقلها وقلبها، بل تصاب بكل المهابة وأنت تكتب عنها مخافة أن لا توفيها حقها. اعتبارا لكل ذلك العمل الضخم والهائل الذي قامت به، والأدوار التي لعبتها في تاريخ روسيا قبل الثورة وبعدها.

كروبسكايا هي تلك المرأة المتعددة الأبعاد، المرأة ذات المهمات الصعبة وصاحبة التفاصيل الدقيقة، تلك التفاصيل التي لا ينتبه لها في الغالب، لكن تخرج منها عظائم الأمور وجلائل الأعمال.

كانت كروبسكايا كل شيء وأي شيء يتعلق بلينين وبالثورة وبمصير روسيا، هي سكرتيرة لينين، سكرتيرة تحرير جريدة "الإسكرا"، تحملت مسؤولية المراسلات والتصحيحات والتنسيق والإشراف على إدخال "الإسكرا" التي كانت تصدر بالخارج والوثائق إلى روسيا وعبر أوروبا، كانت تتولى الإشراف على الاستقبالات في المنزل (تستقبل الرفاق الذين يأتون من بعيد)، تحدد مواعيد اللقاءات وحتى وسائل الاتصالات وأماكن المواعيد هي من يتولاه، هي التي تكتب الرسائل وهي من يضع لها الشفرات وهي أيضا من يفك هذه الشفرات، ويحكى عنها أن في غرفتها تشتم دائما رائحة الورق المحترق الآتي من الرسائل التي تدفئها فوق المقلاة لتقرأها.

إضافة إلى كل هذا فقد كانت مساعدة لينين على منهجية القراءات المختلفة والمشاركة في الكتابة، بل إن منهجية العمل نفسها هي التي نقلتها إلى لينين، وليس في ذلك غرابة، ألم تكن بيداغوجية عصرها وما قبل عصرها وما بعده وباعها في ذلك طويل وصل درجة العالمية.

أكثر من كل هذا، ويا لعظمة هذه المرأة، فلم تكن تغب عنها لا الأشياء الكبيرة ولا الصغيرة (يعني كما يقول المغاربة "الشاذة والفاذة") وحتى تلك التي قد تبدو تافهة يكون لها كل التأثير والأهمية لاحقا.

لقد كانت راحة لينين دائما هاجسها، فهي الأكثر إدراكا للمسؤولية العظيمة الملقاة على كاهله، تلك المسؤولية التي تعتل لها الصحة ويصيب التفكير المستمر صاحبها بالوهن، لذلك فقد كانت تقود لينين كلما أحس بالتعب أو المرض إلى قمم الجبال السويسرية (عندما كانا مستقرين بسويسرا) وغاباتها مشيا على الأقدام، يعود لينين بعدها متجددا قويا ومتحمسا لإنجاز أعماله المختلفة والكثيرة، حيث يستطيع إنجاز عشرات المقالات والدراسات في فترة وجيزة.

هل كان بإمكان لينين لوحده أن ينجز هذه الأعمال؟ هل كان لينين لوحده قادرا على القيام بكل هذه المهام - التي تشيب لها الولدان - وهو الذي كانت صحته تعتل باستمرار لولا وجود كروبسكايا إلى جانبه؟ طبعا إن عمل الفريق وحده الذي يكون منتجا دائما وهذا ما شكله الرفيقان كروبسكايا ولينين.

إذن للحقيقة والتاريخ، عندما تنطق باسم لينين، لا يمكنك إلى أن تقرنه باسم كروبسكايا، فقد كانت حاضرة في حياته بشكل لا يقبل الفصل أبدا كالتوأم السيامي.

منذ أن التقت كروبسكايا لينين لأول مرة، وحتى قبل لقائهما، كانت قد وضعت لنفسها مكانا في الثورة القادمة وشقت لنفسها طريقا للثورة لا رجعة فيه، وكما أشرنا إلى ذلك سابقا فهي حاضرة في كل شيء يهم لينين، لا يمكن تجاهلها أبدا، هي في الكبيرة والصغيرة، في العام والخاص، في الكل والجزء، إنها حاضرة في أدق تفاصيل حياة إيلتش أوليانوف، وبذلك يصح في حالة كروبسكايا المثل القائل "وراء كل رجل عظيم امرأة" وإذا توخينا الدقة والموضوعية في حالة هذه المرأة يجب القول "وراء كل رجل عظيم امرأة عظيمة".

مثلت، وتمثل كروبسكايا نموذج النساء العظيمات اللواتي يصنعن التاريخ، بل إن التاريخ لا يمكن أن يتقدم إلى الأمام إلا إذا سارت النساء في ركابه بل وقدنه، لكن النظام الأبوي السائد والمجتمع الذكوري الباتريارکي والعقلية الذكورية القابعة في أعماق الذكور، تأبى إلا ان تطمس أي عمل عظيم للنساء وإلغائهن من مقدمة الصورة ليتوارين خلف الرجال.

في كل ما أنجزته كروبسكايا وقامت به، كانت الكتابة والطباعة تحتل مركزا كبيرا ضمن اهتماماتها المتعددة والمختلفة، فآلاف الكلمات ومئات الكتب والنصوص وعشرات المجلدات وآلاف الأفكار التي خرجت من دماغ لينين – والكثير منها من وحي النقاشات مع رفيقته – كل هذا كانت أصابع كروبسكايا وأناملها من رقنه على الآلة الكاتبة، فبفضلها خرج ذلك الفكر السديد الذي انتشر بين الناس ونهل منه الثوريون من داخل روسيا وخارجها.

فأي أنامل تلك التي كانت تضغط على الآلة الكاتبة فتخرج تلك الإنتاجات الفكرية والسياسية الغزيرة والهائلة إلى الملأ، لقد كان العمل مكثف بشكل كبير، والوقت ضاغط بشكل رهيب، وبسبب هذا لا يمكن لتلك الأنامل إلا أن تكون قد تورمت وانتفخت، بل قد تكون نزفت دما، لكن صاحبتها لم تكن لتهتم، ولا لتتبرم مما تفعله، فهي لم تكن تشعر بأناملها فليس لها ترف حتى تفقدها والاهتمام بها، فالمسألة عظيمة والقضية ملحة وعادلة، ثورة المستقبل، كل شيء في سبيل الثورة يهون، فقضية الثورة وقلب روسيا رأسا على عقب، يستحق دماء تنزف وجسدا ينهك وعيونا تنتفخ، من أجل تحرير الشعب الروسي وإخراجه من غياهب الظلام إلى آفاق الأنوار، وانتشاله من ظلمات القرون الوسطى التي يعيشها، و وضعية العبيد التي يكابدها عمالا وفلاحين وكل بؤساء الشعب. ثم إن ظروف إعداد الثورة والتهيئ لها يتطلب نكران الذات وبذل كل الجهود كاملة غير منقوصة واشتغال كل الجوارح، كل الكيان يجب أن يستنفر، يجب إخراج كل الطاقات

التي لديك، فقضية الثورة وضرورة نجاحها وانتصارها، وملحاحية توفير شروطها يبذل له الغالي والنفيس وكل عصارة المهجة والعقل، وأيضا فمن أجل فتح الطريق أمام البشرية لتحقق انعتاقها فكل الصعاب تهون.

أية عيون هاته التي سهرت الليالي لا يغمض لها جفن، ترقن الكلمات تلو الكلمات وجمل تسابق بعضها وصفحات يشد بعضها في بعض، كل ذلك والمرأة في عجلة من أمرها، فالمهام ثقيلة تعجز الجبال عن حملها، والوقت لا يسعف، ضيق بشكل رهيب، ويمكنك أن تتصور كم تمنت أن يتمدد النهار وكم استعطفت الليل ليزيد طولا، حتى تستطيع إنهاء المكتوب، ذلك الذي يجب أن يأخذ طريقه في الصباح الباكر حسب الوجهات المحددة لديه، فإذا كان نحو روسيا فالطريق طويلة والمطبات في الطريق هائلة، فعيون القيصر مبثوثة في كل مكان، ساهرة لا تنام، تترصد لاقتناص أعدائها وما أدراك من أعداء، فهي امرأة اشتغلت في المنافي داخل روسيا وفي ديار الهجرة المؤقتة، ومتابعة مع رفيقها في كل مكان، لقد اشتغلت في قر الطقس وقساوة برد الشتاء، فأي جسم هذا يتحمل كل هذا إن لم تكن صاحبته امرأة استثنائية.

كل هذه المهام العظيمة والأعمال الهائلة قامت بها كروبسكايا، وسيظل التاريخ يذكر لها كل تلك الأعمال الجليلة والصنائع العظيمة، هي التي اشتغلت كالنملة وتنقلت كالنحلة، لا يرف لها جفن، لا تمتهن الشكوى، لا تقول آه حتى وهي في حالة من العياء أو التعب أو المرض.

إنها بحق امرأة وأي امرأة، إنها المعلمة الكبيرة، والمثقفة العضوية الملتزمة والعالمة البارعة والمربية الفذة، إنها الناشرة والموزعة التي لا تكل، إنها الداعية والمحرضة والمنظمة، إنها في الحزب لبؤة لا يشق لها غبار، إنها كذلك وبامتياز تلك المنظرة البيداغوجية متفردة زمانها، التي آمنت إيمانا قويا بألا تقدم للشعب الروسي ولا

تحرر له والأمية تنهش عقول كباره وصغاره، نسائه ورجاله، فجعلت من محاربة الأمية ونشر التعليم في صفوف العمال والفلاحين والكادحين عموما، قضيتها الثانية بعد قضية الثورة، بل اعتبرتهما يتماشيان معا بالتوازي، كانت دائما وسط العمال وفي قلب همومهم، لصيقة بالمضطهدين والمستغلين، وليس ذلك بالأمر الغريب، فالمرأة تشبعت بالفكر الماركسي وتعلقت بأفكار رائديه كارل ماركس وفردريك انجلز، منذ أن وعت وفتحت عينيها على واقع روسيا المتخلف وعلى قهر القيصرية لشعوب روسيا.

إذا كانت كروبسكيايا قد أريد لها أن تبقى قابعة في الظل، حتى ليخيل للكثيرين أن هذه العبقرية اللينينية هي من صنع لينين وحده، فيكفيها فخرا أنها كانت تلك الشمس الوقادة التي أنارت لرفيقها الدروب المظلمة، وفتحت أمامه المسالك الوعرة وعبدت أمامه الطرق المنعرجة وسهلت عليه الصعاب المتعددة.

لقد كان حقا، ذلك اليوم الذي التقت فيه كروبسكايا رفيقها لينين يوما مشهودا، فقد كان له ما بعده، فقد شكل ذلك الحد الفاصل لما ستكون عليه روسيا في المستقبل، فما أرقها من ريح تلك التي رمت بها في طريق إليتش أوليانوف، وما أسعده من حظ ذلك الذي قادها نحوه، ما أعظمه من يوم ذلك الذي ولدت فيه، فقد أعطت ما استبقت شيئا.

مهما كتب عن هذه البلشفية الرائعة ومهما قيل عنها، فإن ذلك لن يوفيها حقها، وسيكون عاجزا كل من حاول حصر فضائلها وجمع جميل صنائعها وتلخيص كل ما قدمته لروسيا الوطن ولروسيا الشعب.

نختم الكلام بالقول، ونموذج كروبسكايا ماثل أمامنا، لمن ينكر على المرأة أدوارها في التاريخ صناعة، وفضلها على الثورات مسارا وإنجازا، هل كان لينين لوحده قادرا على القيام بكل تلك المهمات، وفي أدق تفاصيلها لو لم تكن رفيقته كروبسكايا إلى جانبه؟ وهو الذي كانت صحته تعتل باستمرار بحكم الإجهاد الفكري والقلق الدائم الذي تتطلبه الثورة وهم الثورة وهاجس الثورة.

فسلام عليك أيتها البلشفية العظيمة والرائعة، يوم ولدت ويوم تحيين وتبعثين في قلوب كل المضطهدين والمضطهدات، المستغلين والمستغلات وكل ثوار وثوريات العالم.

في مقدمة هذه المقالة، رسمنا بروفايلا للمرأة التي كانتها المعلمة البلشفية العظيمة كروبسكايا، استعرضنا فيه عظمة هذه المرأة وروعتها، وكان التركيز بالأساس على الأدوار العظيمة والمتميزة التي قامت بها في حياة رفيقها المعلم العظيم لينين، ملهم ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى - حتى أنه تجرأنا كثيرا وقلنا إنه لولا كروبسكايا لما كان لينين- وفي حياة الشعب بل وفي تاريخ روسيا.

في هذه الفقرات سنحاول أن نقف عند المسار الذي قطعته كروبسكايا منذ ولادتها إلى وفاتها مركزين بالأساس على المرأة التي كانتها كبيداغوجية ومربية لا يشق لها غبار، وصيتها في ذلك ضرب الآفاق وذائع على الصعيد العالمي، فهي من وضع الأسس الأولى للبيداغوجية الماركسية ـ اللينينية.

كروبسكايا : مسار امرأة و سيرة حياة:

ولدت نادجدا (أو ناديا) كروبسكايا بمدينة سان بترسبورغ بروسيا يوم 14 فبراير من سنة 1869، وسط عائلة تنتمي إلى الأرستقراطية الفقيرة (أسرة نبيلة صغيرة)، ابنة قسنطين كروبسكايا الضابط في الجيش الروسي، الذي تحطمت مهنته العسكرية على شاطئ آرائه السياسية، فقد مسه شيء من الفكر التنويري الذي كان يتلمس طريقه آنذاك في روسيا حيث الاستبداد القيصري، وقد توفي سنة 1883، أما والدتها فهي إلزيفيتا فاسيلييفنا تستروفا (1843 – 1915)، كانت مربية، ومنها ستتشرب

كروبسكايا شغفها بميدان التربية، كانت امرأة رافضة للاستبداد، وبالتالي كانت تدافع عن الأفكار اللبرالية، أفكار الأنتلجانسيا الروسية آنذاك، لذلك فالمرأة التي أصبحتها كروبسكايا نبتت في وسط عائلي يرفض الظلم والاستبداد، ويتطلع إلى الخلاص من ظلمات القرون الوسطى التي كان يعيشها الشعب الروسي.

هذه التربية إذن، أثرت بشكل كبير في الشابة الصغيرة، التي أبانت عن قدرات مدرسية جلية، وعن فضول فكري نهم.

لقد تلقت كروبسكايا الأفكار التقدمية التي ميزت الانتلجانسيا الثورية والديموقراطية لذلك العصر، هذه الأفكار التي لم تكن إلا لتمارس تأثيرها على هذه الفتاة المتقدة الذهن والمتعطشة للمعرفة باستمرار، فعانقت بذلك في وقت مبكر جدا الأفكار التقدمية، وقد كتبت كروبسكايا تقول :

"منذ تلك الفترة، كنت أسمع مرارا النقاشات حول الثورة، وقد كان تعاطفي يتجه بشكل طبيعي نحو الثوريين"

(المجلد الأول، صفحة 9)

وهذا يبين أن كروبسكايا اختارت خندقها منذ وقت مبكر: خندق الثورة والثوريين.

بعد أن أنهت دراستها الثانوية بتفوق، تابعت كروبسكايا دروسا في البيداغوجيا لمدة سنة، لكنها لم تتمكن من الحصول على عمل كمدرسة، وهي المهنة التي عشقتها بشغف كبير، سواء في منطقتها أو في العاصمة، وكان عليها والحالة هذه أن تكتفي بتقديم دروس خصوصية، ومزاولة مهمة معيدة في الأقسام العليا في إحدى الداخليات، وهي تجربة مكنت الحارسة العامة الشابة من إظهار مواهبها البيداغوجية وسعة معارفها وضميرها المهن، فقد كانت حقا بلشفية قبل أن يطل فجر البلشفية. وفي

سنة 1890، ستلتحق كروبسكايا بالحركة الثورية بعد أن أصبحت عضوا في "حلقة الطلبة الماركسيين"، وفي سنة 1891، ستنخرط في الحركة العمالية وسترتبط حياتها بشكل نهائي بالأوساط البروليتارية، ثم فيما بعد بفيلادمير إليتش أوليانوف (لينين).

ومنذ هذا التاريخ أصبحت كروبسكايا تعطي دروسا مسائية للعمال في يوم الأحد في سان بترسبورغ، وعملت بكل نشاط وحيوية في نشر الأفكار الثورية وسط العمال بفضل النقاشات والأنشطة المدرسية، التي مكنتها من أن تتأقلم مع ظروف حياتهم وعملهم.

تقول كروبسكايا :

" الخمس سنوات هذه التي قضيتها في المدرسة كانت الطاقة الحية التي تغذت منها ماركسيتي،

وجعلتني ألتحم إلى الأبد بالطبقة العاملة "

(المجلد الأول، صفحة 37).

اهتمت كروبسكايا بالنظرية الماركسية، التي حلت شيئا فشيئا محل التيار "الشعبوي"، الذي كان منتشرا، وهكذا سيعزز التزامها السياسي نشاطها البيداغوجي ويجعلها تتجه نحو الفقراء، لذلك ابتداء من 1891 ستتفرغ لمحو الأمية لصغار وكبار الأسر العمالية بإعطاء دروس ليلية للعمال يوم الأحد في سان بترسبورغ .

هذا الاحتكاك بالعمال، جعل كروبسكايا وجها لوجه أمام حقيقة الحياة الصعبة لحياة عمالية انبثقت من تطور صناعي قوي عرفته روسيا في أواخر القرن 19، فتشبثت بشدة بإدانة التناقضات الاجتماعية الحادة التي كانت تعرفها روسيا، وستتمسك بدراسة الحياة التي تحيط بها، بتناقضاتها واضطراباتها الاجتماعية بحرص شديد، والبحث عن أسباب الظلم المنتشر، وأيضا عن وسائل وضع حد لها، فتقرأ بشراهة المؤلفات ذات الصدى الاجتماعي لكتاب روس وأجانب، وتدرس مؤلفات الاشتراكية العلمية، كارل ماركس وفردريك انجلز، وكقارئة كبيرة تلتهم الكتب ذات النبرة الاجتماعية والثورية بالأساس، فقد لاحظت أن الترجمات التي تتوفر عليها محدودة فقط في بعض مقاطع كتاب "الرأسمال"، بينما باقي مؤلفات الفيلسوفين وفي مقدمتها "البيان الشيوعي" مفقودة في روسيا. وفي سنة 1893 ستكتشف، كما كتبت، "**هذا الماركسي العالم جدا**" (لينين) وهي تقرأ واحدا من نصوصه، وهو دراسة اقتصادية، التي وقفت فيها كروبسكايا، وهي البيداغوجية الجيدة، على صفاء التعبير ووضوح التحليل فيها.

في سنة 1895 ستنخرط كروبسكايا فيما سمي ب"اتحاد النضال من أجل تحرير الطبقة العاملة"، التي تأسست في مدينة سان بترسبورغ على يد لينين، ومنذ هذا الحين سيلتقي مصير مناضلين فذين في الحياة الخاصة والحياة العامة مترابطين بعقد نضالي نهائي لا انفصام له، ومنذ هذا الحين، ستكرس قرابة نصف قرن كامل كل قواها ومعارفها لقضية الحزب، من أجل خدمة الشعب والتغيير الثوري للمجتمع.

كانت كروبسكايا متعاونة متيقظة، تهيء المؤتمرات ومحاضرات الحركة، بل تشارك فيها، وبكل حيوية ونشاط كانت تشارك في نقاشات الحزب، وهي في ذلك بين المتابعات والاعتقالات التي كانت موضوعا لها، وتقوم بتوزيع مقالات الدعاية.

في شهر دجنبر من سنة 1895، سيعتقل لينين ويتم نفيه لمدة ثلاث سنوات نحو سيبيريا، وبعد وقت قليل من هذا التاريخ أي في أوائل 1896، سيتم اعتقال كروبسكايا بدورها ويحكم عليها بالسجن لمدة ثلاث سنوات. ومن أجل الالتقاء بلينين، الذي قررت أن تربط مصيرها بمصيره صرحت أنها خطيبته، مما سيسمح لها بالالتحاق به، وذلك في شهر ماي من سنة 1898 لتتزوجه في شهر يوليوز من نفس السنة.

لم تعد ظروف لينين و كروبسكايا كتلك التي في السجن لأنهما أصبحا أحرارا في الذهاب والإياب، فقد عاشا في تخوم الامبراطورية حياة نشاط دراسي وقراءات متعددة، تصاحبها أعمال ترجمة لكتب انجليزية، وهي وسيلة للرفيقين من أجل تعلم الانجليزية التي ستساعدهما فيما بعد، كما كانت لهما مراسلات نشيطة جدا، وكانا يستضيفان كل المناضلين المنفيين مثلهم ويزورانهم في المنطقة التي يوجدون فيها.

في فبراير من سنة 1900 سيتم الإفراج عن لينين، وهو اللقب الذي سيلازمه منذ هذا التاريخ، مما سيسمح له بمغادرة روسيا، وبعد أسابيع قليلة ستلتحق به كروبسكايا في ميونيخ بألمانيا.

ستنقلب هذه الهجرة الماركسية الروسية نحو نشر الجريدة الدعائية "الإسكرا" (الشرارة) التي صدرت في دجنبر 1901 في شتوتغارت بدعم مهم من مناضلي الحزب الاشتراكي الديموقراطي الألماني.

وفي ألمانيا ستكتشف كروبسكايا ميزات وعيوب الوسط حيث يوجد المثقفون المنفيون، فقد لاحظت ابتعادهم عن الواقع الروسي، خاصة منهم بليخانوف، الذي حسب كروبسكايا كان غير قادر على إدراك التوازنات الاجتماعية الجديدة داخل الامبراطورية، وعلى العكس من ذلك تقربت من المناضلين العمال، الذين يخاطرون بأنفسهم، حيث يقطعون آلاف الكيلومترات من أجل إيصال الرسائل. وبدون أن تعرف هي نفسها حدة الصعوبات والمشاق كانت تتقاسم أيضا مع لينين تقلبات حياة ثوري محترف، حيث إلى جانب الصعوبات المادية التافهة، كان ينضاف إلى ذلك ضرورات حياة ترتكز على السرية.

على امتداد سنوات الهجرة هذه، كانت كروبسكايا تزور المدارس والمكتبات وتلتقي المدرسين، وتهتم بالمناهج البيداغوجية المحلية، أي المناطق التي كانت تحل بها، وقد مكنتها هذه الأعمال من أن تضع حصيلة نقدية للتعليم في هذه المناطق.

في سنة 1901 كان لينين منغمسا كليا في كتابة مؤلفه الشهير "ما العمل"، وكانت كروبسكايا تقاسم نقاشات معه، وهي نقاشات تقاسمتها معه في كل كتاباته، وفي أبريل 1902 ستصل كروبسكايا إلى لندن التي حل بها لينين، من أجل تعميق أسسه النظرية في المدينة التي عاش فيها كارل ماركس آخر أيامه، حيث كان يرتاد (لينين) مكتبة "المتحف البريطاني".

سنة بعد محطته في لندن ستكون جنيف الوجهة التالية للرفيقين، حيث هنا ستطبع "الإسكرا"، وفي نونبر 1905 ستقفل كروبسكايا راجعة إلى بلدها روسيا على إثر الثورة التي اندلعت به في هذه السنة، إلا أن فشل الثورة أجبر الرفيقين على مغادرة روسيا، ومنذ هذا التاريخ ستعيش كروبسكايا مرحلة الترحال عبر أوربا، تحت خيار اللجوء الذي حصل عليه الرفيقان من طرف المساندين في الخارج.

بعد فلندا ومرور قصير ببرلين والعودة إلى سويسرا، بدأت كروبسكايا ما كانت تسميه ب "الهجرة الثانية" التي تمتد من سنة 1908 إلى سنة 1917، مقسمة على ثلاثة مراحل متباينة من حيث مدتها، وهي مرحلة كانت مليئة بالمعارك والصراعات ضد خصوم متعددين من أمثال "المناشفة" و"بناة الله"، ومعارضون آخرون من داخل روسيا وخارجها.

خلال هذا المشوار من النفي والكفاح، كانت كروبسكايا تشارك في الصراعات والمعارك المتعددة التي وسمت تاريخ الحزب العمالي الاشتراكي الديموقراطي إلى جانب لينين، الذي كان دائما مهموما بالمحافظة على خط صحيح ضد أعدائه.

كانت كروبسكايا وهي التي تنتمي لجنس النساء، لا ترى في قضية المرأة صراعا طبقيا فقط، بل هي صراع ضد الرأسمال وضد الاضطهاد الباتريارکي، لذلك كانت تساند أيضا تحرر النساء مدعمة خلق "يوم أممي للنساء" الذي اقترحته رفيقتها المعلمة كلارا زتكين سنة 1910، وعملت أيضا مع البلشفية إيناس أرماند في نشر أول مجلة نسائية "العاملة" في مارس 1914، لكن سرعان ما اندلعت الحرب الامبريالية العالمية الأولى فتوقفت المجلة بسرعة عن الصدور.

2) كروبسكايا : المعلمة، المربية و البيداغوجية التي لا يشق لها غبار:

يعتبر ميدان التربية والتعليم من الجوانب الغنية جدا في مسار كروبسكايا الحياتي، إذ وهي شابة، ما تزال تتلمس طريقها نحول العمل والشغل، كان الميدان الذي شغفها حبا، ميدان التربية والتعليم، أليست هي القائلة:

"لا يمكن مواصلة تطورنا الاقتصادي والاجتماعي، بدون أن نكون قد وضعنا نهاية لظلمات الأمية"

(المجلد التاسع، صفحة 226).

ولأن حياة كروبسكايا كانت حافلة بالأعمال الكثيرة التي قامت بها والمهام العظيمة التي أنجزتها، فسنقف عند أهم المجالات التي كانت عزيزة على قلبها وتأخذ بلبها ألا وهو ميدان التربية والتعليم، وبالأساس الجانب البيداغوجي. نقف عند هذه المحطة المهمة في مسار هذه المرأة البلشفية، فقد كان دور كروبسكايا في التأسيس للبلشفية أمرا لا مراء فيه وفي ميدان التربية كان جليا جدا (تربية بلشفية). وقد ربطت كروبسكايا النظرية والممارسة البيداغوجيتين بالمبادئ الماركسية، الشيء الذي سيجعل مساهمتها هي الأكثر أصالة في هذا الميدان.

حتى وهي منشغلة بالقضايا السياسية وغارقة في مهام متعددة فقد ظل هاجس التربية والتعليم والبيداغوجيا مستبدا بها، كمثال على ذلك، في سنة 1915 وفي "المؤتمر الأممي للنساء" الذي تم تنظيمه في مدينة بيرن بسويسرا، لم تتخل كروبسكايا في خضم ذلك عن ميدانها الدراسي الخاص، فانكبت تدرس بشكل دقيق مؤلفات كبار البيداغوجيين والأنظمة التربوية المطبقة.

في الوقت الذي اندلعت فيه ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى، كانت كروبسكايا قد كتبت أكثر من 40 مؤلفا في موضوع التربية والتعليم، كان أهمها جميعا كتاب تحت عنوان "التعليم العمومي والديموقراطية" و ذلك سنة 1915 وصدر سنة 1917، وقد ساهم بشكل كبير في تطوير البيداغوجية الماركسية، وفي هذا الصدد يقول لينين :

"وفرت كروبسكايا باصطفافها إلى جانب وجهة نظر الطبقة العاملة، تأويلا جديدا للنظريات التي تبلورت مع الديموقراطيان والبيداغوجيان الكبيران، جان جاك روسو وبستالوزي، لقد عرفت المجتمع الروسي بالمفاهيم

البيداغوجية ل أووين وبليرز، وعرضت بشكل منهجي مذهب ماركس وانجلز فيما يتعلق بالعلاقات بين التعليم والعمل المنتج".

لقد درست كروبسكايا بتيقظ كبير كتابات بيداغوجيين كبار، سواء الذين سبقوها أو الذين عرفهم عصرها من أمثال : كومنسكي، جان جاك روسو، بيستالوزي، أو بشفسكي، تولستوي وغيرهم، كما درست الأنظمة التربوية المطبقة في عصرها سواء في روسيا أو في الخارج، خاصة تلك المطبقة في الدول الغربية، مثل الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا وفرنسا، وفي ألمانيا وسويسرا.

بحكم إكراهات الهجرة، كانت كروبسكايا تزور المدارس والمكتبات وتلتقي بالمدرسين، وتهتم بالمناهج البيداغوجية الحديثة، مما مكنها من عرض حصيلة نقدية للتعليم المدرسي في العالم، وعلى هذا الأساس طورت النظرية الماركسية حول المسألة المدرسية.

لقد بينت كروبسكايا، باستنادها على مجموعة كاملة من وقائع ملموسة، كيف أن مفهوم الإعداد للحياة النشيطة قد تطور خلال مختلف الحقب التاريخية حسب الطبقة الاجتماعية التي طورته، والظروف التي طبقت فيه، و آخر فقرة من كتابها "التعليم العمومي والديموقراطية" تلخص لوحدها هذا التحليل لتاريخ التدريب المهني حيث كتبت تقول:

"طالما أن تنظيم التعليم سيبقى بين أيدي البورجوازية، فإن التدريب المهني سيبقى سلاحا

موجها ضد الطبقة العاملة، ووحدها الطبقة العاملة يمكنها أن تجعل من التكوين

في العمل وسيلة ملائمة لتغيير المجتمع المعاصر".

كما كتبت سنة 1916 قائلة:

"سيأتي يوم سيكون من الممكن خلق مدرسة يحتاجها الجيل الشاب، ويجب أيضا معرفة كيفية خلقها، ومن أجل هذا الهدف يجب امتلاك التجربة الضرورية، والتفكير في ذلك بشكل مسبق، بكيفية تعرف كيف تتلقف ذلك في الوقت الملائم".

بعد نجاح ثورة أكتوبر المجيدة، فتح هذا الانتصار للثورة البلشفية لكروبسكايا حقلا واسعا في ميدان التربية، فقد أدارت وبكل اقتدار أنشطة تنظيمية وتربية سياسية هامة، فقد أصبحت وزيرة للتربية والتعليم – ومن غيرها يستطيع اخذ هذه المهمة على عاتقه وهي المهووسة منذ شبابها الأول بحب هذا الميدان وأبدعت فيه إبداعا– وخلال سنوات عديدة قادت ضبطا علميا وبيداغوجيا لنظام تربوي جديد.

إن أعمال كروبسكايا في ميدان التربية والتعليم لا يمكن حصرها أو تعدادها، ويمكن الوقوف عند اكثرها أهمية وهو مجال محاربة الأمية، فقد كان هذا ميدانها بكل امتياز ونذرت حياتها له منذ ريعان شبابها واعتبرته ذا أولوية بالغة، فقد اعتبرت كروبسكايا أن مهمة محاربة الأمية المتفشية في صفوف الشعب الروسي تعد المهمة التي تعلو ولا يعلى عليها في التربية الاشتراكية، فهي ترى ألا تطور اقتصادي واجتماعي بدون القضاء على الأمية، حتى أنه في سنة 1923 تأسست جمعية تطوعية كان شعارها "فلتسقط الأمية".

لقد قلبت كروبسكايا مفهوم التعليم، وغيرت التربية والتعليم شكلا ومضمونا، "إنها التربية الشيوعية والتي ليست هي العائلة فقط" وهي تتبادل الحديث مع مكسيم غوركي:

"بناء الاشتراكية لا يعني فقط إقامة البنايات العملاقة ومعامل الحبوب، التي

هي شرط أساسي، ولكنها غير كافية، فالإنسان ما زال مطالبا بتطوير قلبه وعقله"

(المجلد الحادي عشر، صفحة 151).

إن شهرة كروبسكايا كمنظرة ومؤرخة للعلوم البيداغوجية وكمنظمة بارزة للنظام التربوي الاشتراكي طبقت الآفاق، فقد امتدت هذه الشهرة إلى عدد من دول العالم، وتكريما للخدمات التي قدمتها لقضية التربية، تمنح اليونسكو كل سنة جائزة دولية وشهادة تنويه باسم كروبسكايا إلى البلدان والمؤسسات والتنظيمات، أو الأشخاص الذي تميزوا في مساهمة تستحق التقدير في محاربة الأمية.

أما العمال السوفيات فقد ظلوا يبجلون اسم كروبسكايا ويحيون فيها عاليا سمو ابنة الشعب الروسي، التي نذرت حياتها كلها للنضال، منذ أن وعت واقع هذا الشعب والاستغلال والاضطهاد الذي يعيشه تحت نير النظام القيصري المستبد، من أجل انتشار الاشتراكية، ومن أجل تفتح الثقافة الاشتراكية، فكثير من الشوارع والمدارس والمؤسسات العلمية والثقافية تحمل اسمها، وفي ذلك تتجسد ثقافة الاعتراف بإحدى أعظم النساء الروسيات وأروعهن في تاريخ روسيا القديم والحديث والمعاصر، وإن تاريخ روسيا التعليمي والتربوي والبيداغوجي ليظل يقرأ لها صفحات مجيدة في هذا الشأن، وإن بصمتها لا يزال أثرها حاضرا إلى اليوم في روسيا.

ولأن ميدان التربية والتعليم كان أحد أكبر ما تفوقت فيه كروبسكايا فبعد وفاة لينين نذرت حياتها إلى غاية وفاتها إلى قضايا التربية بالأساس.

إن كل هذا، وما لا تسعف مئات الصفحات على حصره، وما لا يقدر القلم على تدبيجه، هو ما كانته تلك المرأة الرائعة كروبسكايا، هذه المعلمة البلشفية العظيمة التي كان وقتها لا يحسب ويعد بالأيام والشهور والأعوام، بل بالساعات والدقائق والثواني، فالوقت ثمين ولا يجب العبث به، لأن أي تأخير في إنجاز المهمة، مهمة إخراج الشعب الروسي من ظلمات القرون الوسطى بالنسبة لها، أمر لا يغتفر، لذلك فهي تستعجل دخوله التاريخ من بابه الواسع، وليس أي باب، بل إنه باب الثورة الاشتراكية، وإن أي تخلف عن هذا الموعد فهو إخلاف بالموعد مع التاريخ.

إن كروبسكايا هي تلك المرأة التي لم تخذل أبدا رفيقها لينين، المرأة التي لا تتبدل، فحتى في أكثر اللحظات العصيبة التي كانت تواجه فيها الصعوبات والمخاطر، وفي الوقت الذي استسلم الرفاق، حتى الأقوياء منهم في لحظات ضعف للشك، وفقدوا إيمانهم، ظلت قناعة كروبسكايا ثابتة، رابطة الجأش لا تتزحزح عن مواقفها، مقتنعة أن القضية عادلة وصائبة وأن النصر قادم لا محالة. في كروبسكايا كل صفات المرأة البلشفية، تواضعا وبساطة وحزما وإصرارا وصبرا وجلدا، بذلا وعطاءا ...، إنها الأخلاق الرفيعة والمبادئ الثابتة التي لا تتوفر إلا في النساء الثوريات.

إن إسهامات كروبسكايا الثورية المحترفة، و النساء البروليتاريات عموما، يبين بشكل لا جدال فيه، أنه بدون مشاركة النساء ما كان لثورة أكتوبر أن تنتصر، وإذا صح القول أنه بدون ثورة لن تتحرر النساء، فيصح القول أيضا أنه بدون النساء لن تكون ثورة.

بعد هذا المسار الطويل والحافل بالأعمال الجليلة سيتوقف قلب هذه البلشفية العظيمة عن الخفقان، وسيكف دماغها عن التفكير إلى الأبد، في ذات يوم من سنة 1939 وهو يوم 27 فبراير. وهناك في مكان من الساحة الحمراء وعلى أبواب الكرملين وقرب لينين رفيقها في النضال والحياة سيستقر رماد هذه البلشفية الرائعة.

ملحوظة:

نشرت أعمال كروبسكيا في 11 مجلدا تحت عنوان "مؤلفات بيداغوجية"، وهي باللغة الفرنسية.

جميلة صابر

2017 ـ 3 ـ 26

ألكسندرا كولونتاي رائدة النضال الثوري النسائي

(روسيا)

تعد المناضلة البلشفية ألكسندرا كولونتاي من أبرز نساء الحركة الشيوعية العالمية. قال عنها مكسيم غوركي (الروائي الروسي الشهيرصاحب رواية" الأم" و الصديق الحميم للرفيق لينين) نقلا عن مارتوف : "يوجد في روسيا شيوعيان اثنان فقط: لينين و مدام كولونتاي". تعبير مجازي و لا شك، و لكنه اعتراف من أحد أشد خصوم البلشفية و اللينينية (مارتوف هو زعيم المناشفة).

كرست كولونتاي كل حياتها للنضال الثوري ككاتبة و مناضلة شيوعية لا يشق لها غبار، من أجل تحرر المرأة بصفة عامة و تحرر النساء العاملات بصفة خاصة، و قد لخصت كولونتاي بنفسها فهمها لقضية تحرر المرأة التي نذرت حياتها لها بهذه العبارات المقتطفة من مذكراتها التي كتبتها سنة 1929:

" إذا كنت قد حققت شيئا في هذا العالم، فليس مرد ذلك إلى صفاتي الشخصية، فإنجازاتي ليست إلا الدليل على أن المرأة باتت تسير باتجاه كسب الاعتراف العام بها، على الرغم من كافة الصعاب، فانخراط ملايين النساء في العمل الإنتاجي الذي تم بوتيرة متسارعة خلال الحرب (الحرب الامبريالية الأولى) قد أفسح المجال أمام المرأة لكي تحتل أعلى المراكز السياسية و

الدبلوماسية... وحدها العواصف الثورية الجديدة امتلكت القوة الكافية لتكنيس كافة العقد و الترسبات ضد النساء ، و وحده الشعب الكادح المنتج القادر على تحقيق المساواة الكاملة و التحرر الناجز للمرأة ببنائه المجتمع الجديد".

إن كل المحطات النضالية لكولونتاي كانت تجسيدا حيا لما جاء في هذه العبارات المقتطفة، فمن تكن ألكسندرا كولونتاي؟

ولدت المناضلة البلشفية الروسية ألكسندرا كولونتاي سنة 1872، نشأت في أسرة من النبلاء من ملاكي الأراضي، كانت محط عناية من طرف أسرتها المحافظة المرعية للتقاليد البطريركية، هي البنت الوحيدة لأبيها (الزواج الثاني لأمها).

لم يسمح لها والداها بالانتقال للدراسة بالمدرسة الثانوية لأن أسرتها كانت تخاف عليها من الاحتكاك بزملائها في الدراسة، لذلك كانت تأخذ دروسا خصوصية.

حصلت على البكالوريا في سن صغيرة (16 سنة)، و قد تزوجت صغيرة السن تمردا على أهلها و تحديا لهما، لكن بعد ثلاث سنوات من الزواج انفصلت عن زوجها المهندس ف. كولونتاي بالرغم من حبها له و حملت معها ولدهما الصغير، و عنه أخذت اسمها الدائم كولونتاي متخلية بصفة نهائية عن اسم أسرتها "دومونتفتش".

منذ هذا التاريخ بدأت تتحدد الميولات السياسية لكولونتاي، و بالضبط في سنة 1896 و هي لم تتجاوز بعد24 سنة و التي كانت فاصلة في حياتها، فقد أمضت ربيع هذه السنة في معمل النسيج في مدينة نارفا، و هناك شاهدت على أرض الواقع كيف

يجري استغلال 12 ألف من العمال على أبشع صورة، و كانت ميولها آنذاك شعبوية و "إرهابية" أكثر منها ماركسية، لكن بعد الشهور القليلة التي أمضتها في معمل النسيج عكفت على دراسة الاقتصاد و الماركسية – لقد أصبحت ثورية في ظل الممارسة-

جاء إضراب عمال النسيج في بتروغراد سنة 1896 الذي شارك فيه 36 ألف عامل و عاملة ليبلور قناعتها السياسية و الإيديولوجية بصورة نهائية، فانتقلت إلى معسكر الماركسية، و كتبت أول مقال لها سنة 1898 عن فلسفة التربية لدى الديموقراطي الثوري الروسي دوبرو ليوبوف، و في غشت من العام نفسه ذهبت إلى الخارج لدراسة العلوم الاقتصادية و الاجتماعية و انتسبت إلى جامعة زيوريخ، و هناك اطلعت لأول مرة على كتابات كارل كاوتسكي و روزا لوكسمبورغ لتصبح ماركسية ، و في نفس السنة توجهت نحو انجلترا لدراسة الحركة العمالية الانجليزية عن كثب و اتصلت بزعيمي الحركة الاشتراكية الفابية هناك، لكن سرعان ما خاب أملها و أدركت، على حد تعبيرها " إننا نتكلم لغة مختلفة"، و ترسخت لها القناعة بأن الإصلاحات الاجتماعية على الطريقة الترورديونية تعجز عن حل التناقضات الاجتماعية المتفجرة.

بعد عودتها من انجلترا التحقت مباشرة ببلدها روسيا لتتصل بالأوساط العمالية الثورية السرية، و اقتنعت بضرورة أن توجه في أسرع وقت ممكن كل قواها نحو المهمة الحقيقية ألا و هي النضال الثوري.

في خريف1899 لم تعد روسيا كما تركتها كولونتاي فهناك تغيير قد حصل، فشهر العسل بين "الماركسية الشرعية" و الاشتراكيين الديموقراطيين الثوريين الذين كانوا يعملون في السرية قد وصل إلى نهايته.

في سنة 1901 توجهت نحو الخارج، و ارتبطت شخصيا بكل من كاوتسكي و روزا لوكسمبورغ و بول لافارغ و بليخانوف. و في سنة 1903 صدر كتابها الأول "حياة العمال الفلنديين" و هو تحقيق اقتصادي حول وضعية العمال الفلنديين (كانت على

صلة حميمية بمنظماتهم لأنها كانت ترى في البروليتاريا طليعة متقدمة و واعية للطبقة العاملة الصناعية) و حول التطور الاقتصادي لفلندا، و قد كتب بفكر ماركسي، واستقبله المناضلون في السرية بحفاوة كبيرة، لكن العديد من "الماركسيين الشرعيين" أعلنوا عن امتعاضهم منه، علما أن جلهم تحول إلى الدفاع عن الاقتصادوية في النضال الاجتماعي و اللبرالية السياسية التي كانت تعني ترك العمل السياسي في يد البورجوازية.

حين سافرت كولونتاي إلى الخارج وجدت أن السجال محتدم هذه المرة ليس بين الشعبويين و الماركسيين، و إنما بين المناشفة و البلاشفة، و قد كان لها أصدقاء في المعسكرين، وشعرت أنها أكثر تعاطفا مع البلاشفة بالنظر إلى صلابتهم الثورية، لكن نفوذ شخصية بليخانوف عليها منعها من مقاطعة المناشفة، فنشطت مع كلا جناحي الماركسية الروسية و شاركت بمقالاتها في دعايتهما الثورية.

كانت سنة 1905 مميزة عند كولونتاي فقد تصلبت ثوريتها، إذ فاجأها اليوم الأحمر الدامي لهذه السنة و هي في الشارع على رأس تظاهرة كانت تتقدم باتجاه قصر الشتاء، و حين لعلع رصاص الكوزاك صوب صدور المتظاهرين من العمال و العاملات و سقط الكثير منهم برصاص الغدر، انحفر في ذاكرتها إلى الأبد، مشهد برك الدم على الثلج الأبيض و سياط الخيالة و جثث القتلى و الجرحى و الأطفال الصرعى. و بعد ذلك الأحد الدامي و حينما انكفأت الحركة الثورية في روسيا على نفسها و أعاد البلاشفة تنظيم صفوفهم على أسس أمتن و أكثر سرية، كانت كولونتاي من أوائل الثوريات الاشتراكيات الديموقراطيات الروسيات اللائي أرسين أسس تنظيم ثوري للنساء العاملات. و قد طالبت منذ 1906 بألا يكون تنظيم العاملات مستقلا عن الحزب الاشتراكي الديموقراطي الروسي، و بأن يكون في المقابل في قيادة الحزب مكتب متخصص في شؤون الحركة النسائية.

انضمت كولونتاي رسميا إلى الجناح المنشفي سنة1906 لخلافها مع البلاشفة حول مسألة مشاركة نواب العمال في دوما الدولة، و في سنة 1908 اضطرت إلى مغادرة بلادها لأنها كانت مطلوبة في محاكمتين، الأولى لقيامها بتنظيم عاملات النسيج، و الثانية لدعوتها للثورة في كراسة اصدرتها باسم " فلندا الاشتراكية" و عاشت خارج روسيا من سنة 1908 إلى سنة 1917، و في هذه الفترة أصدرت كتابيها المشهورين " الأسس الاجتماعية للمسألة النسائية" و "المجتمع و الأمومة".

في الخارج انتمت كولونتاي للحزب الاشتراكي الديموقراطي الألماني و الحزب الاشتراكي البلجيكي، و ناضلت بقلمها و نشاطها في كل من ألمانيا و فرنسا و انجلترا و سويسرا و بلجيكا و إيطاليا و الدنمارك و النرويج و حتى الولايات المتحدة الأمريكية، وقد اعتقلت في ألمانيا أثناء الحرب الامبريالية الأولى، وطردت إلى السويد حيث اعتقلت من جديد بتهمة معارضة النزعة العسكرية لموقفها المناهض للحرب الامبريالية الأولى. و في سنة 1915 انفصلت عن المناشفة لتنظم للبلاشفة، و قد اعتقلت مع عدد من البلاشفة في أيام حكومة كرنسكي البرجوازية (الحكومة التي قامت على إثر ثورة فبراير 1917)، و قد كان العداء التام لكولونتاي نظرا لمواقفها و تحركاتها ضد الحرب و استمرار مشاركة روسيا في الحرب الامبريالية الأولى التي اعتبرت حكومة كرنسكي مسألة الاستمرار فيها أمرا مقدسا، و قد كيلت لها كل اللعنات و الكراهية التامة لمواقفها تلك، تقول كولونتاي في هذا الصدد:

"كان علي أن أقفز من الترومواي بسرعة عند النزول و هو ما زال لم يتوقف بعد قبل أن يتعرف الناس علي، لقد أصبحت موضوع الساعة، و كنت هدفا لكل أنواع السب و الأكاذيب".

حين قامت ثورة أكتوبر كانت كولونتاي عضوا في اللجنة المركزية للحزب البلشفي، و بعد نجاح الثورة كان لابد و أن تتولى كولونتاي منصبا في النظام الاشتراكي الجديد، فأصبحت مفوضية الشعب لشؤون المساعفة الاجتماعية (بمثابة وزارة) و سهرت

على إنشاء المكتب المركزي لرعاية الأمومة و الطفولة و دور الحضانة النهارية لإيواء أطفال النساء العاملات، و توفير وسائل منع الحمل لمن ترغبن في ذلك من النساء.

تعرضت كولونتاي في المهام التي أسندت إلها لكل أنواع المضايقات لمشاريعها الاجتماعية تلك لصالح النساء و الأطفال و الأرامل و المعطوبين، و خاصة من طرف رجال الدين عندما حاولت تحويل أحد الأديرة إلى دار لمعطوبي الحرب، و بلغ الأمر بالكنيسة الأرثدوكسية المعروفة بمواقفها المعادية للثورة، إلى قيادة مظاهرة في الشارع و أعلنت "اللعنة" عليها.

لقد كانت مسؤولية ألكسندرا كولونتاي كمفوضة مسؤولة عن القضايا الاجتماعية ذات أهمية كبيرة و خطيرة في نفس الوقت، ففي ظل مجتمع ما زالت أغلبيته من الفلاحين و حيث الأفكار الرجعية و المحافظة للكنيسة متغلغلة في أوساطهم، لم تكن تلك المهام التي تحملتها و لا طريقها مفروشة بالورود، فقد واجهت بأفكارها البلشفية الثورية تدني مستوى الوعي السياسي و الاجتماعي و الثقافي لدى فئات واسعة من المجتمع الروسي.

و رغم الرفض والعداء الذي كان منتصبا أمام كولونتاي في كل المشاريع الاجتماعية التي تقوم بها، و خاصة تلك التي تمس المرأة، فالمواضيع و الأطروحات التي قدمتها أو فتح النقاش حولها، حول قوانين الزواج و الحق في الإجهاض و الطلاق و نظرة جديدة للجنس كانت محط نفور كبير، أما أطروحاتها حول الجنس فكانت تجابه بالرفض الشرس، لكن عنادها البلشفي كامرأة تصلبت في خضم النضالات الثورية و دعم لينين من خلال القرارات التي كان يتخذها، جعلها تتخطى الصعوبات و التحديات و تساهم في تحقيق العديد من المكتسبات للمرأة السوفياتية.

لا يمكن تعداد المهام و المحطات النضالية التي كانت كولونتاي طرفا أساسيا فيها قبل الثورة و بعدها، و في كل هذه المراحل كان الهدف الرئيسي و الركن الأساسي في حياتها النضالية، هو تحرر المرأة. ففي المؤتمر الثامن للسوفياتات باعتبارها عضوا في اللجنة التنفيذية للسوفيات اقترحت المذكرة التالية:

" في كل مكان على السوفيات المساهمة في اعتبار النساء على قدم المساواة مع الرجال و يجب أن يعملن في دواليب الدولة و البلديات".

بعد هذه المسيرة ذات الزخم النضالي الكبير-الذي كان فيه صعود و هبوط- نظرا للأفكار و المشاريع التي كان يضطرم بها دماغ هذه المرأة (يبقى على كاهل الماركسيين اللينينيين الثوريين أن يقيموا هذه التجربة ليتعلموا من أفكارها و دروسها)، انسحبت كولونتاي من الحياة السياسية نهائيا و انصرفت إلى العمل الدبلوماسي حيث أقامت في السويد كسفيرة لبلادها في فترة ما بين 1930 و 1945. و عقب الحرب الامبريالية الثانية رجعت كولونتاي إلى موسكو التي ظلت فيها إلى أن وافتها المنية و ذلك في 9 مارس 1952 عن عمر يناهز الثمانين سنة.

كانت كولونتاي مثال الثوريات اللواتي لا يفصلن بين أفكارهن و ممارساتهن في انسجام تام مع النفس، بين ما يؤمن به و ما يمارسنه، فعلاوة على أن كولونتاي امرأة و مناضلة ثورية فلم تكن حياتها الخاصة مستقلة عن أفكارها السياسية، لقد كانت امرأة متحررة أيما تحرر و هي التي ترعرعت وسط عائلة أرستقراطية محافظة تجسدت فيها كل مظاهر البطرياركا، الشيء الذي زرع فيها البذور الأولى للتمرد و الثورة.

لقد حاولت كولونتاي أن تعيش كما تفكر و حسب تصورها عن "المرأة الجديدة"، المرأة المنعتقة التي جمعت كثيرا من الخصال قل أن تجتمع في امرأة، فهي المرأة الجميلة، المثقفة و الأنيقة، الخطيبة المفوهة التي تتقن عدة لغات، إلى جانب المرأة الثورية و المدافعة الشرسة عن تحرر المرأة . امرأة من هذا الطراز و من هذه الطينة من النساء، منذورة لتحارب الأحكام الجاهزة و الآراء المسبقة على امتداد حياتها و التي كانت ما تزال راسخة في أوساط المناضلين الثوريين، بما فيهم الأوساط الحزبية القيادية.

كانت كولونتاي امرأة أنيقة و محبة للأناقة فعندها أن تكون المرأة ثورية لا يعني أن تضع أنوثتها جانبا، فتلك صفة الشعبويين و البرجوازيين الصغار لا صفة الشيوعيين، فحتى و هي تعاني الفقر و البؤس في مرحلة من حياتها و لا تملك أثناءها سوى ثوب واحد فمع ذلك كانت أنيقة.

إن الأحكام المسبقة التي كانت منتشرة حتى داخل الحزب الشيوعي البلشفي، اضطرت كولونتاي إلى أن تمارس نوعا من الرقابة الذاتية على أفكارها المتعلقة بتحرر المرأة كما تقول، فكانت مقالاتها و كراساتها و كتبها لا تصدر إلا بعد أن يمر عليها مقصها هي نفسها.

من السطور التي كتبتها سنة 1926 و لم تشأ أن ترى النور، المقطع المحذوف التالي :

" حين يصارحني أحدهم بين الحين و الآخر بالقول بأنه في غاية العجب من تعيين امرأة في مثل هذا المنصب المسؤول (يعني السفارة) أقول بيني و بين نفسي ، أن النصر الرئيسي لقضية المرأة، لا يكمن في خاتمة المطاف في هذه الواقعة وحدها، بل إن الشيء الذي له دلالته في هذه الحالة، هو أن تكون امرأة مثلي قد سوت حساباتها مع معيار الأخلاق المزدوج و قد جاهرت برأيها هذا أمام الملأ، فقد قبلت رغم ذلك في عداد الطبقة المتميزة المغلقة، المدعومة إلى يومنا

هذا بالتقاليد و الأخلاق الكاذبة، و عليه فإن حياتي يمكن أن تتخذ مثالا لطرح الشبح القديم، شبح الأخلاق المزدوجة من حياة سائر النساء أيضا، و هذه النقطة الحساسة من وجودي هي التي تتمتع ببعض الأهمية الاجتماعية و السيكولوجية، و هي التي يمكن أن تساهم في معركة تحرر النساء العاملات".

لا يمكن المرور على حياة كولونتاي دون الوقوف عند مسارها ككاتبة، و لم يقتصر نشاطها الفكري على الدراسات و المقالات و الكراسات، بل شمل الأدب و أدب القصة تحديدا، و قد ظهرت ميولاتها الأدبية منذ أن كانت تلميذة اكتشفها أحد أساتذتها في تاريخ الأدب، و هو من دفعها نحو الصحافة.

لقد كان هدف إبداعها الأدبي تمثيل ذلك الطراز من المرأة، التي كانت تنتظر أن يرى النور مع المجتمع الاشتراكي، و قد قوبلت أول مجموعة قصصية تنشرها سنة1923 بردود فعل بالغة العنف، و وصفها بعضهم بأنها " فسوق بورجوازي صغير"، و حين صدرت ترجمة ألمانية للمجموعة سنة 1926، لم يقابلها الحزب الشيوعي الألماني بحماسة، و نشرت صحيفته الرسمية "دي أنترناشيونال" تعليقا عليها جاء فيه، أنه ليس من المستحسن أن تكون أفكار المرأة الماركسية متقدمة جدا، بحيث تنقطع صلتها بأفكار الرجال المعاصرين لها.

لئن تكن أضواء كافية قد سلطت على نضال كولونتاي في سبيل التحرر السياسي و الاقتصادي للمرأة، فإن التعتيم ظل مضروبا على أفكارها بصدد الأخلاق الجنسية الجديدة، و لعل كتابها الذي صدر سنة 1918 تحت عنوان "الأخلاق الجديدة و الطبقة العاملة" يكاد يكون أهم ما كتبته كولونتاي على الإطلاق في موضوع تحرر المرأة الجنسي، و تقول أن المرأة العاملة مدعوة لأن تتحرر كعاملة و كامرأة أيضا، لأن الاضطهاد واقع عليها كعاملة و كامرأة معا.

ألفت كولونتاي عدة كتب و كان أغلبها قبل نشاطها الدبلوماسي، منها كتبها حول النظرية الاجتماعية و الاقتصادية:

- "وضعية الطبقة العاملة في فلندا" سنة 1903 - "صراع الطبقات" 1900

- "اليومية العمالية الأولى" 1906 - "الأسس الاجتماعية للمسألة النسائية" 1908

- "فلندا الاشتراكية" 1907 - "المجتمع و الأمومة"(600 صفحة)

- "الحرب أساسية لمن؟" (صدر منها ملايين النسخ) - "الأخلاق الجديدة و الطبقة العاملة"

- "وضعية النساء في ظل تطور الاقتصاد السياسي"

من أشهر كتبها أيضا " المرأة الجديدة"، و كتاب " الماركسية و الثورة الجنسية" الذي أصدرته دار ماسبيرو....

بالإضافة إلى عدة مقالات و نصوص حول المشاكل الجنسية، و أدب الدعاية ضد الحرب و تحرر النساء العاملات، و لها ثلاثة قصص: "طرق الحب" و هو أول محاولاتها الأدبية و "الحب المجنح" و هو مقال سوسيولوجي.

جميلة صابر

9 مارس 2014

كلارا زتكين

المعلمة النسائية البروليتارية

(ألمانيا)

بقدر ما أنجب الفكر الاشتراكي الثوري معلمين بروليتاريين من أمثال ماركس و انجلز و لينين، فقد أنجب أيضا معلمات بروليتاريات بصمن الفكر الاشتراكي الثوري ببصمات لا تنمحي، و على رأس هؤلاء المعلمات، المعلمة النسائية البروليتارية كلارا زتكين.

كان ميلاد كلارا في 5 يوليوز 1857 تحت اسم كلارا إسنيربسيمنس في منطقة الساكس، كان أبوها معلم قرية فتوجهت بدورها إلى التعليم في " المدرسة العليا للبنات" في مدينة لبتزيغ.

خالطت كلارا منذ منتصف 1870 الحركات النسائية، حيث شاركت في العديد من نقاشات "الجمعية العامة للنساء الألمانيات"، ثم بدأت تلتحق بالحركة الاشتراكية.

في سنة 1878 نجحت كلارا بتفوق في امتحان المدرسة العليا، لكن رغم حبها الكبير لمهنة التدريس فلم يكن أكبر من حبها للفكر الاشتراكي، حيث

ستختار الانتماء إلى الأفكار الاشتراكية التي كانت تتطور بارتباط مع النمو الصناعي لألمانيا في عهد بيسمارك.
لا يمكن الحديث عن كلارا زتكين دون ربطه بمواطنها أوغست بيبيل الذي لعب دورا بالغا في فكرها، و أيضا لا يمكن الحديث عن أوغست بيبيل دون ربطه بكتابه "المرأة و الاشتراكية" الذي تأثرت به كلارا أيما تأثر، فما هو السياق الذي يندرج فيه هذا الكتاب، و ما تأثير الأفكار الواردة فيه على كلارا ؟
في سياق الحملة الشوفينية التي انتشرت في ألمانيا على إثر الحرب الألمانية – الفرنسية لسنة 1870 ، تعرضت الحركة الاشتراكية الألمانية لحملة قمع واسعة مست حتى ممثلي الحزب الاشتراكي داخل البرلمان . في هذا المناخ سيتم اعتقال أوغست بيبيل الذي سيقضي ثلاث سنوات في السجن بتهمة إهانة " صاحب الجلالة" و خلال تواجده في السجن قام بيبيل بتأليف كتابه : "المرأة و الاشتراكية"، الكتاب الذي لعب دورا كبيرا في تغيير وعي الملايين من الناس.
طبع هذا الكتاب بسويسرا، و نظرا للرقابة المناهضة للاشتراكية في ألمانيا، فقد دخلت آلاف النسخ منه إلى ألمانيا بغلاف مزيف تحت عنوان : "تقارير مدراء المقاولات"، و قد عرف الكتاب نجاحا باهرا و منقطع النظير.
كانت الحركة الاشتراكية تعرف مواجهة كبيرة مع الرأسماليين و الدولة الرجعية البسماركية، و ما كان على الحركة العمالية أن تتخلى عن نصفها الآخر في تلك المعركة الحاسمة، و كان على بيبيل أن يواجه الأحكام المسبقة المنتشرة آنذاك حول المرأة حتى في صفوف الطبقة العاملة.
في المؤتمر الأول للأممية الأولى، الذي انعقد بجنيف سنة 1866 حاول أنصار" برودون" استصدار قرار من الأممية يمنع عمل النساء، إذ بحسب هؤلاء فإن المكان الطبيعي للمرأة هو المطبخ و مهنتها الطبيعية هي الأمومة، بل إن العاملات أنفسهن كن تحت تأثير هذه العقليات المتخلفة، حيث كانت لا زالت قيود الماضي تنيخ بكلكلها على النساء، فقد كانت العاملات الشابات يضعن كل أملهن في زواج يبعدهن عن العمل في المانفاكتورات و لو أدى ذلك بهن إلى العودة للمطبخ.

قام بيبيل في كتابه السابق الذكر بوضع المسألة النسائية في سياق السيرورة الاجتماعية التاريخية، بدراسة موثقة حول الاضطهاد الذي عانت منه النساء عبر التاريخ، مبينا العلاقة الوثيقة القائمة بين المسألة النسائية و المسألة الاجتماعية، بين تحرر النساء و التحرر الشامل للمجتمع من قانون الربح، و يقول بيبيل في هذا الصدد:

"في المجتمع الجديد ستكون المرأة اجتماعيا و اقتصاديا مستقلة بشكل شامل،
لن تكون خاضعة و لو قليلا للسيطرة و الاستغلال، ستكون حرة تجاه الرجل، ستكون مساوية
له و متحكمة في مصيرها، ستتلقى نفس التربية كالرجل باستثناء الجوانب التي تعرف تميزا بين الجنسين،
و هي تعيش في ظروف طبيعية يمكن أن تطور كل قواها و قدراتها الجسمانية و الفكرية، ستختار
رغباتها بشكل أحسن، و كذلك ميولاتها و استعداداتها، ستعمل في نفس ظروف الرجل ...
و لاختيار شريكها في الحب ستكون حرة كما الرجل، و تكون لها مبادرة
المغازلة مثل الرجل، و لا تدخل في علاقة إلا بأخذ عواطفها بعين الاعتبار"

(المرجع : المرأة و الاشتراكية) .

لقد كان لهذه السطور أثر بالغ في تلك المرحلة.

كرمت كلارا مرارا عمل بيبيل باعتباره أحد الرواد الأوائل في هذا المجال، و قد سعت للتعرف عليه شخصيا، و قد كان لها شرف ذلك. تحت تأثير هذه الأفكار ستولد كلارا الاشتراكية و المناضلة النسائية.

في 1878 قطعت كلارا علاقتها مع عائلتها و انخرطت في الحزب الاشتراكي الألماني(س.ا.ب)، و هو النسخة الأولى للحزب الاشتراكي الديموقراطي الألماني، الذي قام بسمارك بمنعه في نفس السنة، و قد شاركت كلارا في الاجتماعات الاشتراكية السرية و ستتعرف على الثوري الروسي أوسيب زتكين (مناضل شعبوي مطرود من روسيا، ستقوم السلطات الألمانية باعتقاله و طرده سنة 1890). كما سيتم طرد كلارا من ساكس نحو زيوريخ السويسرية حيث ستلتحق بأوسيب سنة 1892 في باريس، حيث عاشا هناك في فقر مذقع في المقاطعة الثالثة عشرة، و قد نتج عن زواجهما ابنان هما مكسيم و كونستانتان.

كانت كلارا تشتغل محررة في جريدة الحزب المسماة " الاشتراكي الديموقراطي"، و بالرغم من أن كلارا لم تكن متزوجة بشكل رسمي فقد تبنت اسم رفيقها و حافظت عليه حتى الموت.

كان أوسيب سكرتيرا لأول مجموعة عمالية روسية في الخارج خاصة في باريس، و كان مع كلارا يحرران مراسلات موجهة للصحافة الاشتراكية الألمانية، و خلال هذه الحقبة تعرفا على لويز ميشيل (إحدى قائدات كومونة باريس) و كذلك جول غيسد و بول لافارغ زوج لورا ابنة ماركس.

لم يدم العمر طويلا بأوسيب زتكين إذ نخر داء السل جسمه و توفي سنة 1889.

كل هذه الظروف التي أحاطت بكلارا و الأحداث التي عاشتها، جعلت منها منظرة الحركة النسائية البرولتارية التي لا يشق لها غبار، و قد بدا ذلك منذ مساهمتها في تهيئ المؤتمر العمالي الدولي في يوليوز 1889، و هو المؤتمر الذي تولدت عنه الأممية

الثانية حيث قدمت كلارا تقريرا عن أوضاع العاملات في ظل الرأسمالية، و ألقت أول خطاب في حياتها، و مما جاء في هذا الخطاب:

" بالنضال يدا في يد مع العمال الاشتراكيين، تظهر النساء استعدادا تهن لكل التضحيات

و مجهودات النضال وبنفس الدرجة هن مستعدات، و باستحقاق لانتزاع حقوقهن بعد الانتصار".

كانت تدخلات كلارا حاسمة في قرار الأممية الثانية الذي دعا الاشتراكيين في كل البلدان إلى إشراك النساء في النضال الطبقي، و سنة بعد ذلك أدمج برنامج الحزب الاشتراكي الديموقراطي المسمى برنامج "إيرفورت" مطلب المساواة الاقتصادية و السياسية و القانونية للمرأة.

هكذا و في سن 32 سنة أصبحت كلارا قائدة سياسية من حجم أممي و منظرة للقضايا النسائية.

كانت ألمانيا تاريخيا تخضع لنظام دكتاتوري (حكم بسمارك) و قد قام هذا الأخير بمنع الحزب الاشتراكي الديموقراطي بعدما أصدر قانونا مناهضا للاشتراكية (القانون الاستثنائي ضد الاشتراكيين وضع قيد التنفيذ من قبل حكومة بسمارك سنة 1878)، و عندما قام أوغست بيبيل و ولهام لبنيخت (أب كارل لبنيخت القائد الاشتراكي الذي تم اغتياله على يد خونة الحزب الاشتراكي الديموقراطي إلى جانب روزا لوكسمبورغ) بتنظيم العمل السري، قامت النساء بدور كبير، و انخرطن بشكل واسع في الصراع الطبقي، و خضن الإضرابات الكبرى لسنوات الثمانينات للقرن 19. هكذا و في 1889 على إثر الإضرابات العامة الكبيرة للعمال، اضطر الحكم الرجعي الألماني إلى إلغاء القانون المناهض للاشتراكية، و في سياق هذه الأحداث عادت كلارا من منفاها إلى ألمانيا بصحبة ابنيها.

في سنة 1892 صدر العدد الأول من مجلة "المساواة"، أول جريدة نسائية سياسية، و ظلت كذلك لمدة طويلة على مستوى أوربا، و من مقرها بستوتغارت كانت كلارا هي رئيسة تحريرها، و استمرت في تنشيطها إلى حدود 1917، بحيث لعبت دورا كبيرا في نشرأفكارها، و قد جمعت المجلة بين الطابع النظري و التشهير بأوضاع النساء البرولتاريات. في مؤتمر "غوتا" سنة 1875 تبنى الحزب الاشتراكي الديموقراطي الألماني مشروع قرار قدمته كلارا. و في غشت 1907 سيتم انتخابها كمسؤولة للسكرتارية الأممية للنساء، و قد قامت بعمل جبار من أجل أن يتبنى مؤتمر الأممية الاشتراكية قرارا يدعو:

"... كل الأحزاب الاشتراكية لكل البلدان واجب النضال المستميت

من أجل إعطاء حق الاقتراع العام للنساء"

في سنة 1899 تزوجت كلارا بالرسام فردريك زندل الذي ظلت معه إلى حدود 1928 مع حفاظها على لقب زتكين.

و في باريس ستشارك كلارا بنشاط كبير في تأسيس الأممية الثانية سنة 1889، خلاله طالبت بالمساواة الشاملة في الحقوق المهنية و الاجتماعية للمرأة، و كذا مشاركتها النشيطة في النضالات الطبقية.

كان نضال كلارا زتكين المستميت حول حقوق النساء قد جعلها تنتزع ثقة 56 مندوبة من 14 دولة المجتمعة في ستوتغارت بألمانيا، بالتعاون مع المؤتمر الاشتراكي الأممي العام و ذلك بانتخابها رئيسة للسكرتارية الأممية للنساء الاشتراكيات في سنة 1907 و قد كان من مقررات المؤتمر:

- إنشاء مكتب نسائي أممي مهمته توثيق العلاقات بين التنظيمات العمالية النسائية في مختلف الأقطار.

- الاعتراف بصحيفة"**فلايشهايت**"(المساواة) التي كان يصدرها الحزب الاشتراكي الديموقراطي الألماني، و كانت تديرها كلارا زتكين كصحيفة ناطقة باسم "المكتب النسائي الأممي".

في هذه السنة ستبلغ حركة المرأة العاملة درجة من الاتساع، ستسمح بعقد أول مؤتمر أممي للنساء في مدينة ستوتغارت الألمانية بالتعاون مع المؤتمر الاشتراكي الأممي العام.

لأن قضية المرأة تسكنها بشكل قوي، فقد قررت كلارا ألا تنهي حياتها بدون تتويج لهذا النضال، و ذلك بانتزاع الاعتراف بأحقية المرأة في المساواة و التحرر، لذلك لا يمكن الحديث عن كلارا دون الوقوف عند 8 مارس الذي أضحى اليوم العالمي للمرأة.

خلال الندوة الأممية الثانية للنساء الاشتراكيات المجتمعات في كوبنهاغن بتاريخ 8 مارس 1910، اقترحت كلارا خلق يوم عالمي للنساء كيوم للتظاهر للنضال من أجل الحق في الانتخاب، المساواة بين الجنسين و الاشتراكية.

هكذا، و ابتداءا من 8 مارس 1911 تم إحياء اليوم العالمي في أمريكا لينتشر في ما بعد في بلدان أوربا والعالم، كما أنه في هذه السنة تظاهرت مليون امرأة في النمسا-هنغاريا، الدانمارك، سويسرا و ألمانيا ، ثم عرفت السنوات التالية تظاهرات أخرى في كل من فرنسا و هولندا و السويد، و في 8 مارس 1914 طالبت النساء الألمانيات بالحق في الانتخاب (انظر(ي) مقالة روزا لوكسمبورغ :"الصراع الطبقي و حق النساء في التصويت")

و لم يصبح يوم 8 مارس تقليدا مستقرا و دائما إلا ابتداءا من سنة 1917 مع الإضراب الذي شنته النساء العاملات في روسيا بمدينة سان بترسبورغ الروسية، و في 8 مارس 1918 اتحذ لينين العظيم قرار اعتبار 8 مارس يوما للنساء، وفي 1924 تم الاحتفال به في الصين ثم في الجمهوريات الشعبية لأوربا الشرقية سنة 1946 قبل أن يتم ترسيمه في 8 مارس 1977 باعتباره اليوم العالمي للمرأة من طرف الأمم المتحدة.

ككل الاشتراكيين الديموقراطيين الثوريين اعتبرت كلارا الحرب العالمية الأولى حربا امبريالية، حربا استعمارية لتقاسم الأسواق لا تهم الشعوب، و من خلال تحاليلها و ممارستها الماركسية و حزمها في المواقف الطبقية ضد الرأسمالية و الامبريالية، كانت كلارا تحتل موقعا متميزا داخل الجناح الثوري اليساري للحزب الاشتراكي الديموقراطي الألماني، إلى جانب القائدة الثورية الشهيدة روزا لوكسمبورغ التي كانت صديقتها، و قد واجهت كلارا بشدة الاتجاه الشوفيني داخل الحزب بقيادة نوسكه (و هو وزير داخلية الحكومة الاشتراكية الديموقراطية في جمهورية فيمارن و كان المسؤول التاريخي إلى جانب فردريتش إلبرت على اغتيال القياديين الشيوعيين البارزان روزا لوكسمبورغ و كارل ليبنيخت).

و في المؤتمر الاشتراكي الأممي بمدينة بال بسويسرا في نونبر 1912، توجهت كلارا بنداء لنساء العالم للنضال ضد الحرب الامبريالية.

عرفت كلارا بمعارضتها للحرب الإمبريالية الأولى، فقامت بفضح و التشهير بموقف الحزب الاشتراكي الديموقراطي الذي وافق على دخول ألمانيا الحرب، حيث قامت في هذا الشأن بمراسلة العديد من الجرائد في البلدان المحايدة.

قامت كلارا زتكين في دجنبر 1914 بتأسيس " "عصبة السبارتاكيين" و ذلك بمعية روزا لوكسمبورغ و كارل ليبنيخت و بول ليفي و إرنست مايير و ليو جويغيش و فرانتس مهرينغ و آخرين.

و في مارس 1915، تسللت سرا عن طريق هولندا للدخول إلى سويسرا و بالضبط إلى مدينة بيرن، لتترأس الندوة الأممية للنساء الاشتراكيات، حيث تأكد معارضة النساء للحرب، و عند عودتها إلى ألمانيا تعرضت للتهديد و تم اعتقالها لتلتحق بالسجن الذي سبق و أن التحقت به روزا لوكسمبورغ منذ سنة.

و لأن كلارا كان لها الريادة كامرأة في كثير من المحطات النضالية فكرا و ممارسة ، فقد كانت من مؤسسات الحزب الشيوعي الألماني، فبعد مجمل الأحداث التي عرفتها ألمانيا و منها مقتل روزا لوكسمبورغ و كارل ليبنيخت و فشل الانتفاضة العمالية سنة 1918، و بعد القمع الذي تعرضت له حركة "عصبة السبارتاكيين"، و بعد انتصار الثورة البلشفية في روسيا سنة 1917 و نشوء الأممية الشيوعية الثالثة، و بالضبط في سنة 1920 التحقت كلارا بإرنست تلمان و إرنست تولير و والتر أولبرايخت بالحزب الشيوعي الألماني الذي أصبحت إحدى قاداته باعتبارها عضوا في المكتب المركزي إلى حدود 1924 و عضوة اللجنة المركزية منذ 1927 إلى غاية 1929.

مكنت الثورة البرجوازية الألمانية في نونبر 1918 (جمهورية فيمار)، الحركة النسائية من تحقيق مطلب حق النساء في الانتخاب أي ينتخبن(بفتح الياء) و ينتخبن (برفع الياء) و هو مكسب للنساء كان من نتائجه ان انتخبت كلارا كممثلة للحزب الشيوعي الألماني في انتخابات الرايشتخ سنة 1920، و ظلت تنتخب تباعا خلال المدة التي استمرت فيها جمهورية فيمار.

لأن روسيا البلد الذي ستتحقق فيه أفكار و مطامح كلارا زتكين بفضل الثورة البلشفية سنة 1917، فقد حرصت على أن تتعرف على لينين زعيم هذه الثورة، بعد أن كانت قد تعرفت على انجلز في المؤتمر العمالي الاشتراكي الأممي بزيوريخ سنة 1893، و قد تعرفت على لينين و التقته لأول مرة في مؤتمر ستوتغارت حيث كانت شهرتها قد طفقت الآفاق.

لقد كانت سلطة كلارا داخل الحركة العمالية الاشتراكية كبيرة لحد أن لينين طلب منها سنة 1920 المساعدة من أجل خلق حركة نسائية أممية قوية، و قد دارت بين لينين و كلارا نقاشات طويلة في مكتبه بالكرملين، حيث خالفت كلارا لينين في العديد من المواقف حول المرأة (انظر (ي) كتابها في هذا المجال).

مرة أخرى تكون كلارا زتكين في الصفوف الأولى، فقد أصبحت قائدة من قيادات الأممية الشيوعية الثالثة في سن الستين، حيث الإرادة ما زالت قوية و الجسم ما زال قادرا و الفكر ما زال متقدا، أصبحت كلارا عضوة في الحزب الشيوعي الألماني و عضوة في اللجنة التنفيذية للأممية الثالثة في موسكو منذ 1921 إلى غاية 1923، و كلفتها اللجنة التنفيذية للأممية الثالثة سنة 1920 بحضور المؤتمر التأسيسي للحزب الشيوعي الفرنسي، و تمكنت من الحضور رغم أن كل الأجهزة القمعية قد وضعت في حالة استنفار لمنعها من دخول فرنسا، و لتحقيق نفس المهمة بمدينة ميلان الإيطالية تم التحايل على الأجهزة القمعية من أجل تسهيل دخولها إلى إيطاليا، حيث قام الشيوعيون بتوجيه البوليس نحو اتجاهات مغلوطة فاستطاعت الدخول إلى إيطاليا بشعر مستعار، و قد نجحت في المهمة التي حضرت إلى إيطاليا من أجلها (حضور المؤتمر التأسيسي للحزب الشيوعي الإيطالي).

ومن المهام الكثيرة التي اضطلعت بها كلارا، قيادتها للسكرتارية النسائية للأممية الثالثة، و قامت بتسيير دورية "الأممية الشيوعية النسائية"، و تجدر الإشارة إلى أن كلارا كانت من المقربات للروسية البلشفية ألكسندرا كولونتاي في الأممية الثالثة.

إن مسيرة كلارا النضالية طويلة لا تتوقف، فلم تترك مجالا من المجالات التي يمكن أن تساهم فيه بفكرها و نضاليتها إلا ولجته، ففي دجنبر من سنة 1929، و بالضبط من داخل "جمعية البلاشفة القدامى" (جمعية روسية للمساعدة و التضامن الدولي مع

مقاتلي الثورة)، تم إطلاق فكرة تأسيس " الإسعاف الأحمر الدولي"، حيث تبنت الأممية الثالثة هذا النداء، فتأسست على إثر ذلك مجموعة من الفروع الوطنية، وقد اجتمعت الجمعيات الوطنية و انتخبت لجنة تنفيذية من بين أعضائها و مسؤوليها كلارا زتكين التي أصبحت رئيسة لها بعد وفاة رئيسها الأول جوليان مارشيوسكي ابتداءا من 1925.

كما كانت كلارا ضد الحرب الإمبريالية الأولى، باعتبارها حربا امبريالية، فقد كانت أيضا ضد الفاشية التي استفاضت في تحليل طبيعتها و نتائجها و خطورتها، وكانت كلارا من الأوائل الذين قدموا تحليلا واضحا لطبيعة الفاشية و لقواعدها الجماهيرية انطلاقا من تجربة إيطاليا و من علاماتها الأولى في ألمانيا، و ذلك عشر سنوات قبل ديميتروف (قائد شيوعي بلغاري و عضو بارز في المكتب التنفيذي للأممية الثالثة) و بذلك كانت من الأوائل الذين دافعوا عن استراتيجية و تكتيك " الجبهة الوحيدة "داخل الأممية الشيوعية من أجل مواجهة الزحف الفاشي و النازي.

كل المحطات التي مرت منها كلارا عبر مسيرتها الطويلة في النضال فكرا و ممارسة لا يمكن إلا أن تثير الإعجاب و التقدير اتجاه هذه المرأة الشامخة، لكن وقوفها ذات يوم على منصة البرلمان الألماني خطيبة مفوهة و هي بصحة في غاية الاعتلال يجعلك تقول : أي امرأة أنت يا كلارا ؟

فبعد تعرضها لعملية نزع " الجلالة" و برجلين متجمدتين مصابتين بالغنغرينا إضافة إلى داء السل القديم الذي عاودها مرة أخرى و قد نخر رئتيها، امرأة منهكة صحيا لكن العقل ما زال صاحيا و متقدا، و جذوة الذكاء ما زالت مشتعلة، و باعتبارها عميدة البرلمان الألماني، ستلقي خلال غشت 1932 خطاب الافتتاح، خاصة وأن الزحف النازي يتقدم و لابد أن تقول كلمتها، كلمة الشيوعيين و موقفهم من النازية.

ففي سياق شروط تاريخية، استطاع النازيون بقيادة هتلر من تحقيق الفوز في الانتخابات بنسبة 38%، و حين كانت الجلسة الأولى للبرلمان الجديد تنعقد يوم 30 غشت 1932 ، و حيث كان البرلمانيون النازيون بألبستهم العسكرية و أيديهم الممدودة

(علامة تحية نازية) يحيون غورينغ (أحد أعمدة النظام النازي، حكم عليه بالإعدام بعد الحرب العالمية الثانية) الذي سيتم انتخابه رئيسا للرايخشتخ , قامت امرأة في عمر يناهز 75 سنة، عمياء تقريبا تصعد ببطئ إلى المنصة بمساعدة شخصين، و بصوت بدأ منخفضا، ثم ما لبث أن ارتفع، ألقت نداء طويلا لمحاربة الهتليرية، حيث قالت:

"إن ما يجب فعله و قبل كل شيء هو القضاء على الفاشية، التي تريد تصفية التظاهرات الطبقية للعمال بالدم و الحديد، إن ضرورة الساعة هي " الجبهة الوحيدة" لكل العمال من أجل صد الفاشية".

هذه المرأة الصلبة الشجاعة، الجريئة و النادرة كان اسمها ببساطة كلارا زتكين، و سيذكر لها التاريخ كل هذه المواقف الشجاعة و الجريئة رغم انتشار التحريفية و ربيبتها الحركات و الأنظمة المعادية للشيوعية، و إن التاريخ لا يكون أمامه سوى الانحناء لهذه المرأة، كما أن مهمة كل شيوعي حقيقي إنصاف هذه المناضلة الشيوعية الفذة.

بعد اضطرارها إلى الفرار من ألمانيا بعد وصول النازيين إلى الحكم، و بعد منع الحزب الشيوعي الألماني، وصلت كلارا إلى موسكو منهوكة القوى، و بعد أسابيع من ذلك، و بالضبط في يوم 20 يونيو 1933 عن سن تناهز 75 سنة، و في مكان قرب موسكو

فقدت الحركة الشيوعية العالمية و الحركة النسائية البروليتارية الاشتراكية أحد أبرز قادتها التاريخيين : كلارا زتكين، و قد دفنت بجوار حائط الكرملين في الساحة الحمراء.
لقد حاولنا من خلال هذه الأسطر تكريم هذه المناضلة الفذة و الناذرة التي كانت وراء مبادرة جعل 8 مارس يوما عالميا للمرأة، و ذلك إحياءا للذاكرة الشيوعية الثورية التي يحاول التحريفيون القدامى و الجدد و أعداء الفكر الاشتراكي و الشيوعي طمسها و محاولة تمييع الاحتفال بهذا اليوم، الذي هو أصلا يوم النضال من أجل تحرر المرأة و من أجل الاشتراكية.
ضدا على هذا التمييع و التزييف للتاريخ، على المناضلين و المناضلات الماركسيات اللينينيات أن يعدن له أفقه التحرري الثوري، بداية بالتعريف بالمعلمات الاشتراكيات البروليتاريات من أمثال كلارا زتكين، ألكسندرا كولونتاي، روزا لوكسمبورغ و سعيدة لمنبهي، و غيرهن من المناضلات الشيوعيات الثوريات.

علي محمود
مارس2014.

دولوريس إباروري

(اسبانيا ـ بلاد الباسك)

"لا باسيوناريا"

LA PASIONARIA

شيوعية ثورية أممية اسبانية ضد الفاشية

لن يمروا

NO PASARAN

"من الأفضل أن تكوني أرملة بطل على أن تكوني زوجة جبان"

"يفضل الشعب أن يموت واقفا على أن يعيش جاثيا على ركبتيه"

"الرجال في القتال، النساء في العمل"

دولوريس إباروري (لاباسيوناريا)

تقديم:

إن الحديث عن الثورية الإسبانية دولوريس إباروري الملقبة ب "الباسيوناريا" (La Pasionaria) يجب وضعه في سياق أوضاع اسبانيا خلال الثلاثينات من القرن العشرين، والمتمثلة في الحرب الأهلية الإسبانية، التي قاوم فيها الجمهوريون الفاشية الفرانكوية.

في أبريل 1931، فاز الجمهوريون في الانتخابات في 41 من أصل 50 مقاطعة إسبانية، فذهب ألفونسو 13 ملك إسبانيا آنذاك إلى المنفى وأعلنت الجمهورية الثانية في 14 أبريل في نفس السنة.

وقد جرت بعد ذلك أولى الانتخابات التشريعية في إسبانيا الجمهورية في يونيو 1931، وبذلك وصلت أحزاب اليسار الجمهوري إلى السلطة.

أثار الإصلاح الزراعي في شتنبر 1932، وعدم الاستقرار السياسي الذي ميز بداية الجمهورية اضطرابات وانتفاضات، ولا سيما ثورة الأستوريان، والتي قمعها الجيش بشدة.

وبين 1932 و 1936 تعاقبت عدة حكومات، و تم اللجوء مرتين إلى انتخابات سابقة لأوانها، مما أعطى السلطة بالتناوب إلى اليمين و اليسار، في حين تطورت حركات الحكم الذاتي في بعض المقاطعات (أستورياس، كاطالونيا ...). لكن في يناير 1936، عندما فرضت غالبية الأحزاب اليسارية الموحدة في "الجبهة الشعبية" نفسها على السلطة، تضاعف العنف وظهر قطبان حول

الأحزاب الجمهورية، يسار ثوري و أناركيون، و قطب يميني فاشي، و كانت مناقشات عنيفة تجري في الكورتيس (البرلمان الإسباني).

في يونيو 1936، دعا النائب الملكي خوسي كانو سوتيلو الجيش لاستعادة النظام، وتفاعلت النائبة الشيوعية دولوريس إباروري غوميز، المعروفة بلقب الباسيوناريا مع الأمر بتهديده بالموت إن تم تدخل الجيش، وبعد ذلك بأيام قليلة تم اغتياله. في هذا السياق، وقعت في 17 يوليوز انتفاضة عسكرية في إسبانيا و في منطقة النفوذ الإسباني بالمغرب، و في 19 يوليوز ، ألقت دولوريس خطابا في مدريد أصبح مشهورا، و به اشتهرت أيضا دولوريس، تحت عبارة "لن يمروا" No Pasaran كرمز للنضال ضد الفاشية، و تحول الانقلاب ذا الطابع القومي إلى حرب أهلية، يغديها تقاطر الرجال و السلاح من إيطاليا موسوليني و ألمانيا هتلر، و قد تقدمت قوات الجنرال فرانسيسكو فرانكو بسرعة، و طلب الجمهوريون بدون جدوى دعم الديموقراطيات الأوربية، و قد حاولت دولوريس، بدون أن تنجح في ذلك، ثني حكومة بلوم الفرنسية، التي قررت عدم التدخل، و عملت طيلة أيام الحرب على محاولة إنقاذ القضية الجمهورية، مدعومة فقط من طرف متطوعين من جميع البلدان، التي تسللت إلى إسبانيا للانضمام إلى ما يسمى ب "الألوية الأممية".

كان لنداء دولوريس، الذي كان قويا جدا في دويه، لكن دون جدوى، صدى كبيرا في القرن العشرين.

كان الأمر أكثر من مجرد حرب أهلية، بل كانت الحرب الإسبانية بمثابة اختبار عام للحرب الامبريالية العالمية الثانية، حيث اختبر موسوليني وهتلر جيوشهما وأسلحتهما واستراتيجيتهما العسكرية، وكذلك تمكنا من اختبار استعداد الحكومات الأوربية الأخرى لخوض الحرب للدفاع عن حرياتها ومبادئها الديموقراطية.

فمن تكون هذه الشيوعية الثورية، التي قاتلت بلا هوادة ضد الفاشية؟ والتي أدهشت العالم بقوة دعايتها وتحريضها ضد الفاشية وبشجاعتها وجرأتها التي قل نظيرها.

I ـ دولوريس إباروري : مسار إسبانية ثورية واجهت الفاشية حتى النهاية

1) دولوريس إباروري : الولادة و النشأة

ولدت دولوريس إباروري في 9 دجنبر 1895، قبل خمس سنوات من بداية القرن 20، في غالاراتا، مدينة إقليم بسكاي الباسكي، بلد التعدين بالغرب من بلباو وسط عائلة من عمال المناجم، والدتها جوليانا غوميز باردو من أصل كطلاني و والدها أنطونيو إباروري عامل باسكي، وسط عائلة تضم 11 عشر طفلا كانت فيها الثامنة في الترتيب.

عاشت دولوريس الفقر وهي طفلة، فعلى الرغم من كونها طالبة ذكية فلم تتمكن أسرتها من دفع تكاليف التدريب لكي تصبح معلمة، فبتشجيع من معلمتها كانت دولوريس تحلم بأن تصبح معلمة، فتلتهم الكتب التي تحصل عليها من معلمتها أنتونيا أليزار، لكن والديها بحكم الفقر لم يستطيعا تحمل نفقات دراستها، وتعين على الفتاة أن تتخلى عن حلمها في سن الخامسة عشرة، وتتخلى عن الدفاتر لصالح ورشات الخياطة، وأصبحت خياطة بدل أن تكون معلمة، ثم خادمة منازل في مطابخ بيوت البورجوازيين.

كانت أمها تردد على مسامعها: "**كيف تعتقدين أنه يمكنك أن تصبحي معلمة بينما إخوانك عاملون؟**" وكان هذا الكلام إعلانا عن انهيار حلم الفتاة. بعد انهيار حلمها في مواصلة الدراسة وتحقيق حلمها في أن تصبح معلمة بسبب الفقر، أحدث ذلك منعطفا كبيرا في حياتها عبرت عنه من خلال العديد من الأقوال منها:

"**إن المخرج الوحيد والطموح الوحيد لامرأة في قريتي هو الزواج**"، قبل أن تضيف: "**حياة رمادية، حياة العبيد**".

وعلى الرغم من الصعوبات الهائلة، التي صادفتها في طريقها، فقد علمت نفسها بنفسها، واستطاعت تدبير كسب لقمة العيش.

التقت دولوريس بجوليان رويز، وهو عامل منجمي ومناضل اشتراكي، الذي تزوجته سنة 1916، وكان عمرها 26 سنة، وفي العام التالي شارك الزوجان في حركة الإضراب العام وتم اعتقال جوليان على إثره. أنجبت دولوريس ستة أطفال، نجا منهم اثنان فقط

حتى بلوغ سن الرشد، وقد كتبت فيما بعد أنهم ماتوا بسبب عجزها عن توفير الرعاية الطبية الكافية والتغذية لهم (وهي في هذا تذكرنا بكارل ماركس، حيث توفي أغلب أبنائه لنفس الأسباب) حيث تدهور الوضع المالي للعائلة عندما سجن زوجها وهو نقابي نشط لقيامه بإضراب.

2) بداية دولوريس السياسية واحتكاكها بالفكر الشيوعي

بفضل زوجها، بدأت دولوريس تهتم بنضال العمال معتمدة على معرفتها للماركسية، التي اكتسبتها من خلال قراءتها لأعمال كارل ماركس، وساعدها ذلك في الانضمام إلى الحزب الشيوعي الإسباني، وكانت دولوريس معجبة بأهم الرموز الشيوعية.

هكذا وجدت نفسها تشارك في الإضراب العام لسنة 1917، مع زوجها، السنة نفسها التي كانت تاريخا حاسما ومنعطفا قويا في حياتها، عندما علمت بانتصار الثورة البلشفية وزوجها قابع في السجن، فقد حمستها الثورة البلشفية وشكلت نقطة تحول في التزامها النضالي، وتقول:

"لم أشعر بالوحدة، كانت هذه الثورة البعيدة التي يتعذر الوصول إليها حقيقة، هناك في جزء من العالم".

أدخل جوليان زوجته التي تقاسمه مبادئه الاشتراكية في الأوساط النضالية، وقد كانت دولوريس تقرأ للعديد من المؤلفين على رأسهم كارل ماركس، كما سبق الذكر، كما تمت الإشارة إلى ذلك، فشكلت فكرها السياسي، وعن تبنيها الفكر الاشتراكي تقول دولوريس:

"أصبحت اشتراكية لأنني اضطررت إلى التعامل مع الظلم والبؤس، ولم أكن في حاجة إلى النظر إلى نفسي في المرآة لمعرفة كم تعاني النساء الأخريات".

ناضلت دولوريس وسط "اتحاد الشباب الاشتراكي"، و في سنة 1918، كتبت دولوريس أولى مقالاتها في الصحافة العمالية، في صحيفة El Minero Vizcaino ، و كانت توقع مقالاتها باسم مستعار: لاباسيوناريا. في سنة 1919، تقربت دولورويس من "الأممية الشيوعية" قبل مشاركتها في تأسيس الحزب الشيوعي الإسباني، ففي سنة 1920، تم انتخابها لعضوية لجنة الحزب الشيوعي الباسكي، وسرعان ما أصبحت شخصية محلية هامة، و في نفس السنة ساهمت في بناء الحزب الشيوعي الإسباني، الذي انضم إلى الأممية الثالثة التي أسسها لينين، و نظرا لشعبيتها بين المناضلين صعدت تدريجيا في التسلسل الهرمي للحزب.

أصبحت دولوريس عضوا في لجنة مقاطعة بيسكاي، التي لعبت داخلها دورا مهما، وبعد عشر سنوات، ونظرا لنضاليتها، تم انتخابها لعضوية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي سنة 1930، وفي السنة الموالية، وبناء على طلب الحزب، انتقلت دولوريس إلى مدينة مدريد، وتركت زوجها وتم الانفصال، لكنهما حافظا على علاقات الصداقة.

في بحثهم عن محررين اقترح عليها المسؤولون النقابيون كتابة مقالات في صحيفتهم (منجمي بيسكاي، فقبلت دولوريس هذا العرض ونشرت أول ورقة لها خلال الأسبوع المقدس المسمى عند الإسبان "أسبوع العاطفة" (و تعني العاطفة باللغة الإسبانية La Pasionaria)، و لأنه، لا يمكنها التوقيع باسمها الحقيقي، فقد اختارت هذا الاسم الأخير كاسم مستعار، وأصبح منذ ذلك التاريخ اسما مشهورا و ملازما لها.

أصبحت دولوريس متعاونة منتظمة مع المنشورات العمالية، وانخرطت كليا في النضال السياسي عندما تم تأسيس الحزب الشيوعي الإسباني، وبعد أن أصبحت عضوا منتخبا في لجنة مقاطعة بيسكاي شاركت في أول مؤتمر للحزب الشيوعي لإسبانيا.

كانت مقالات دولوريس في المجلة العمالية، السابقة الذكر، لا تمر دون أن تلفت النظر، فانضمت إلى هيئة تحرير (العالم العمالي) وهي الجريدة المركزية للحزب الشيوعي الإسباني. في إحدى الليالي، وهي تهم بمغادرة مقر الصحيفة، تم اعتقالها ونقلها إلى سجن كينونيس، وقد كان السجن الأول لها، والصدمة الأولى مع واقع السجن. في زنزانتها استطاعت أن تكسب صداقة معظم هؤلاء "ضحايا البؤس" كما قالت، وتجعلهن يغنين "الأممية" في الأول من ماي سنة 1932.

بعد فترة وجيزة من خروجها من السجن، واصلت دولوريس حياتها الخطيرة، بعبورها سرا، وعلى الأقدام، حدود جبال البرانس (التي تفصل بين اسبانيا وفرنسا)، كان كل مرور يتطلب إعدادا دقيقا ومرشدين ومحطات توقف آمنة.

كانت دولوريس عضوا في الوفد الإسباني للأممية الشيوعية، الذي اجتمع في الاتحاد السوفياتي سنة 1933، كما حضرت اجتماعات الكومنترن حيث دعمت ما أصبح يعرف ب "الجبهة الشعبية".

من جراء قلقها من ظهور الفاشية في إيطاليا وألمانيا ساعدت دولوريس في تنظيم اللجنة العالمية للنساء ضد الحرب والفاشية، وكانت مندوبة في مؤتمرها الأول بفرنسا في غشت 1934.

نساء ضد الفاشية:

في سنة 1933، شجعت دولوريس على إنشاء جمعية النساء المناهضات للفاشية، وكانت هذه المجموعة النسائية واحدة من أهم المجموعات في ذلك الوقت، وكانت النساء من جميع أنحاء العالم ينتمين إليها وكذلك أنصار اليسار، وفي نفس السنة، أرسلها الحزب الشيوعي الإسباني كمندوبة إلى موسكو، وقد أثر فيها هذا السفر بشكل عميق جدا.

في سنة1934، بعد القمع العنيف للثورة الإيستورية، تحولت لجنة "نساء ضد الفاشية" إلى حماية أطفال العمال الأيتام، وقد واجهت دولوريس مخاطر كبيرة في محاولة نقل الأطفال إلى مدريد سرا.

لم تعد الأنشطة النضالية لدولوريس تسمح لها برعاية طفلين لا يزالان على قيد الحياة، و لا ضمان حياة مستقرة لهما، فتتخذ قرارا بنقلهما بعيدا، بإرسالهما للعيش في الاتحاد السوفياتي.

في سنة 1935، شاركت بفرنسا في مؤتمر تضامني مع الأستورياس، الذين تعرضوا لقمع شديد من طرف السلطة (الشعب الذي تنتمي إليه دولوريس)، وفي 1936، فازت الجبهة الشعبية بالانتخابات، وأصبحت دولوريس نائبة عن الأستوريين، وقد كانت العلاقة مع الناخبين لا تطرح أي مشكل للنائبة الجديدة، لكن في البرلمان تعرضت للسخرية حيث استهانت الثعالب القديمة

في السياسة ب "خادمة البيوت السابقة". لقد كان حدث دخول دولوريس الكورتيس حدثا جللا، أولا لكونها أول امرأة تطأ البرلمان ولأنها ابنة عامل وزوجة عامل وشيوعية و "خادمة بيوت"، ودارت في أروقة الكورتيس (البرلمان الإسباني) المحادثات حول الحدث:

امرأة شيوعية ستلقي خطابا على السادة النواب هؤلاء (الباتريارکا هنا في أسوء أحوالها)، يبتسمون سخرية، يهمسون وينتظرون العرض (الفرجة!). عندما صعدت دولوريس المنبر صدرت من بعض الأروقة ضحكات السخرية عندما نطقت الجملة الأولى، لكن ما إن نطقت دولوريس الجملة الثانية حتى عم الصمت.

استحضرت دولوريس أمام النواب، المتمردين الأستوريين، وأدانت القمع الذي تعرضوا له والبؤس والتعصب ... وبحماسة شديدة نزعت من مناقضيها أسلحتهم. في اليوم التالي كتبت صحيفة بلباو (اللبرالي) بعنوان عريض **"امرأة دخلت البرلمان"**، بينما هتفت صحافة مدريد **"يا لها من امرأة"**، ومن مكر التاريخ أنه، وقبل سن 42 أصبحت دولوريس نائبة رئيس الكورتيس.

منذ البداية، واجهت "الجبهة الشعبية" التخريب الاقتصادي الذي يقوده أرباب المعامل وكبار ملاك الأراضي، وقتلت الكتائب المسلحة الفاشية اليساريين والجنود الجمهوريين، فالفاشيون يستعدون للانتفاضة بتواطؤ من نواب اليمين في البرلمان.

3) ولادة شعار الحرب الأهلية الإسبانية "لن يمروا"

في 18 يوليوز 1936، تولى الجنرال فرانسيسكو فرانكو قيادة التمرد، وفي شوارع مدريد صرخ الناس: **"الأسلحة للشعب"**، وفي اليوم التالي ألقت دولوريس خطابها الشهير "لن يمرو"، وستصبح دولوريس بالنسبة للشعب والعالم كله (لاباسيوناريا)، وانبرى صوت دولوريس مخاطبا الشعب الإسباني:

"هنا راديو الاتحاد من مدريد، من مقر وزارة الداخلية دولوريس تخاطبكم"، وهي شاحبة للغاية تعلن:

"عمال! فلاحون! مناهضو الفاشية! الإسبان! الوطنيون! في مواجهة التمرد العسكري الفاشي قوموا جميعا للدفاع عن الجمهورية، للدفاع عن الحريات الشعبية والمكتسبات الديموقراطية، البلد كله يهتز سخطا ضد أولئك اللذين يريدون غمر إسبانيا في جحيم الرعب والموت، لن يمر الفاشيون، لن يمروا!!"

استلهمت دولوريس خطابها الشهير هذا من التصريحات التي أدلى بها الجنرال الفرنسي روبرت ينفل خلال هجوم ألماني على فرنسا سنة 1916.

"لن يمر الفاشيون"، لقد أصبحت هذه العبارة في نهاية المطاف صرخة المعركة للجيش الجمهوري، وعندما غادرت وزارة الداخلية بعد إلقائها هذا الخطاب، تشكلت مجموعات بالقرب من "بويرطا ديل صول"، وصرخت "لن يمروا"، وهكذا ولد شعار الحرب الأهلية الإسبانية.

لقد حدد هذا الشعار الضرورة المطلقة للوحدة، فحتى لو بقي جزء من الجيش مخلصا للجمهورية، فإن النظام لا يملك بنية عسكرية قادرة على إيقاف مؤيدي فكرة جديدة: الشعب الذي رفضت له السلطة السلاح الذي يطالب به سبق المبادرة الحكومية واستولى على الأسلحة هناك حيث توجد، في هذا الدفاع العفوي عن الجمهورية.

على أمل قيام ثورة تحفز البعض ضد الفاشية، فقد اختلطت الطبقة والجنس والعمر، فلم يعد ذلك ذا أهمية تذكر، فالذي يهم فقط هو النصر، النصر فقط، الذي يوجد في نهاية البندقية، التي تمر من يد إلى يد، وتنتهي أيضا في أيدي النساء، إنهن هنا مندمجات بالرجال، اللذين يتقاسمن معهم نفس القيم، هل فكرن في هذه اللحظات في الدفاع عن المكاسب النسائية للجمهورية ضد رد الفعل القومي المحتمل؟ إن هذا البعد القتالي ليس حاضرا إلا عند الحركات النسائية والمناضلات المنخرطات في الكفاح ضد الفاشية.

قبل الانقلاب على الجمهورية، تشهد روزاريو سانشيز موري الملقبة ب "ديناميترا" (من كلمة ديناميت بالإسبانية) على أن:

"غالبية النساء اللائي ذهبن إلى الجبهة ينتمين إلى منظمات العمال، وكن على وعي تام بالدفاع عن الدستور (دستور الجمهورية) الذي منحهن الكثير من الحرية، وكن يعلمن أن كل هذه الحريات المكتسبة سيتم منعها إذا وصل الفاشيون إلى السلطة".

في ثكنات العاصمة وجهت "لاباسيوناريا" خطابها للجنود، وبدأت في حشد العمال في المصانع وتنظيم النساء في الأحياء، ويأتي الناس بالآلاف للاستماع إليها، تلك التي بين اجتماعين وبين نقاشين وبين مقالين لا تتردد في تخصيص الوقت لعائلة في محنة، نفس المرأة التي لا تكل ولا تتعب، التي لا تقهر، التي توجه نداء لشعوب العالم:

"ساعدونا في منع سحق الديموقراطية في إسبانيا، إذا حدث ذلك فسيؤدي حتما إلى الحرب".

كان هذا نداء في غاية الأهمية في هذه الأسابيع الحاسمة لبداية الحرب، عندما تحاول الحكومة بكل الوسائل شراء الأسلحة، التي توجد لدى الفاشيين بوفرة، و التي يفتقد إليها - وهو أمر قاس جدا- المدافعون عن الحرية.

فكيف يمكن إيجاد الأسلحة؟

ذهب وفد إسباني رسمي إلى باريس، وقد هددت "لي كروا دو فوه"(صلبان النار) بتفجير الفندق الذي يوجد فيه الوفد، أما بالنسبة لرئيس المجلس الفرنسي، الاشتراكي ليون بلوم، فقد قال لوفد البرلمان الإسباني:

"إن فرنسا لا يمكن أن تتدخل، وأن أقصى ما يمكن أن يفعله يقتصر على احترام العقود الموقعة مع مدريد".

بالنسبة لدولوريس فإن فرنسا لا يمكن اختزالها في ليون بلوم، ففي شتنبر 1936، نظم الحزب الشيوعي الفرنسي تجمعا كبيرا في فلديف بباريس، فقالت دولوريس جملتها الشهيرة:

"من الأفضل أن تموت واقفا على أن تعيش جاثما على ركبتيك"

وعلى جدران المدن والقرى الفرنسية ازدهر شعار "**المدافع والطائرات لإسبانيا**"، تعبيرا عن تضامن الشعب الفرنسي مع الشعب الإسباني ضد الفاشية.

بالعودة إلى مدريد سرعت دولوريس ورفاقها في تنظيم أجهزة الدفاع عن العاصمة، ودعمت فكرة إنشاء جيش منتظم للجمهورية، بعلم واحد وقيادة واحدة، وشددت على ضرورة حفر الخنادق للدفاع عن مدريد، الشيء الذي رفضه التروتسكيون و الأناركيون، فكنت ترى دولوريس في جوانب العاصمة الأربعة، هنا تحفر خندقا مع سكان أحد الأحياء، و هناك ترافق نهرو و ابنته أنديرا غاندي و كتابا و شعراء و فنانين.

في 7 نونبر1936، استقبلت دولوريس "الألوية الأممية"، التي جاءت لتقاتل إلى جانب الشعب الإسباني الفاشية الفرانكوية، واللذين قالت عنهم دولوريس:

"**إخوة أتوا من جميع أنحاء العالم للدفاع عن الحرية**".

لقد كانت لحظة قصيرة من الفرح وسط المأساة، فقد شرعت المدفعية والطيران الفاشي في قصف مدريد، فمرتزقة فرانكو جونكرس هتلر وقوات موسوليني الآلية يمارسون ضغوطا على جميع الجبهات، إنها وضعية محفوفة بالمخاطر، جعلت الحكومة و البرلمان الإسبانيين يقرران نقل مصالحهما إلى مدينة فلانسيا.

لقد أصبحت دولوريس إباروري، لا باسيوناريا، "السيدة باللون الأسود" كما كانوا يسمونها لارتدائها الدائم للون الأسود، العدو رقم 1 للفرنسيين وأصدقائهم الأوربيين، فقد تم إطلاق حملة مغرضة من أجل تشويه صورتها في نظر الرأي العام، ففي فرنسا

كتبت عنها المجلة الفاشية "غرينغوار" كلاما خبيثا من قبيل، المرأة المضطربة، الكارهة للدين ... ولا تختلف في ذلك عن الدعاية الفرنكاوية في إسبانيا.

تبين من مجريات الحرب وموازين القوى بين الفاشية والجمهورية، أنه لا يمكن احتواء القوات الفرانكوية، التي تساعدها بشكل متزايد الدعاية في برلين و روما، و أمام خطورة الوضع عادت دولوريس إلى باريس لتتحدث إلى العالم:

"في إسبانيا تخاض المعارك الأولى بين الديموقراطية والفاشية، التي تريد توسيع قوتها المترامية الأطراف حول العالم لخنق الحرية والتقدم، إن شعبنا يقبل بكل فخر، وبكل المسؤولية الكاملة المهمة التي ألقاها التاريخ على عاتقه، لكنه يطالب ألا يتم التخلي عنه ".

لقد سرعت اتفاقيات ميونيخ والاستسلام أمام هتلر من عزلة الجمهورية، وحده الذي قدم المساعدة للشعب الإسباني، من الطائرات والأسلحة المختلفة والمقاتلين والمستشارين ذوي الخبرة، هو اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية.

لكن تحت الضغوط التي مورست على حكومة نيغرين من جميع الأطراف، وخوفا من اعتراف البلدان المجاورة بفرانكو تقرر سحب "الألوية الأممية".

في 28 أكتوبر 1937 تقول برشلونة وداعا للمتطوعين، وألقت دولوريس خطابا تودع فيه "الألوية الأممية" وتشكرها على الدعم الذي قدمته للشعب الإسباني في مقاومته للفاشية، أطلقت دولوريس هذه الكلمات المؤثرة والتي لا يمكن نسيانها ممن وجهت إليهم وألقيت على مسامعهم، بعد أن تمكنت الفاشية من وضع يدها على إسبانيا:

"إلى اللقاء إخواني! من الصعب للغاية أن نقول كلمة وداعا موجهة إلى أبطال "الألوية الأممية"، من هم؟ وماذا يمثلون؟

يعترينا شعور بالألم، الألم اللانهائي الذي يعتصر حناجرنا، كرب يستولي على قلوبنا، على أولئك اللذين يغادروننا، الجنود اللذين يمثلون المثل العليا للإخلاص الإنساني، المنفيون من وطنهم، الشعوب التي تتعرض للاضطهاد من قبل الطغاة، ألم على أولئك اللذين يبقون هنا إلى الأبد، يذوبون في وطننا ويعيشون في أعماق قلوبنا، مسكونين بشعور امتناننا الأبدي.

من جميع الشعوب والأجناس أتيتم إلينا كإخوان لنا، كأبناء لإسبانيا الخالدة، وفي أصعب أيام حربنا، عندما تعرضت عاصمة الجمهورية الإسبانية للتهديد، كنتم أيها الرفاق الشجعان من الألوية الأممية، التي ساهمتم في إنقاذها بحماسكم القتالي وبطولاتكم وروح وحسن التضحية لديكم.

لأول مرة في تاريخ نضالات الشعوب، مشهد تشكيل الألوية الأممية المدهش، الأعظم، الذي تم تقديمه للمساعدة في إنقاذ حرية واستقلال بلد مهدد، بلدنا إسبانيا. جاء الشيوعيون والاشتراكيون و الأناركيون و الجمهوريون، و رجال من مختلف الألوان و الإيديولوجيات و الأديان المختلفة، لكنهم كلهم يرتبطون بالحرية و العدالة بشكل عميق، جاؤوا ليعرضوا أنفسهم علينا بدون شرط، لقد قدموا لنا كل شيء، شبابهم أو نضجهم أو تجربتهم، دمهم و حياتهم، آمالهم و رغباتهم ... و لم يطلبوا منا شيئا، بمعنى، نعم: لقد أرادوا مكانا في النضال، كانوا يتوقون إلى شرف الموت من أجلنا. أعلام إسبانيا! ...، حيي الكثير من الأبطال، انحني أمام الكثير من الشهداء!...

الأمهات!... الزوجات!...، عندما تمر السنون و ترن جراح الحرب، عندما تنهار ذكرى الأيام الأليمة و الدامية لأجل حاضر من الحرية و السلام و الرفاهية، عندما يشعر كل الإسبان بفخر وطن حر، تحدثن إلى أطفالكن، أخبروهن عن هؤلاء الرجال من الألوية الأممية ... أخبروهن كيف عبروا البحار و الجبال و أنقدوا حدودا مدججة بالحراب تحرسها كلاب مسعورة راغبة في قطع أسنانها، جاؤوا إلى بلادنا كصليبيي الحرية للقتال و الموت من أجل حرية إسبانيا و استقلالها مهددين من طرف الفاشية الألمانية و الإيطالية.

لقد تخلوا عن كل شيء: العاطفة، الوطن، المنزل، الثروة، والأم والزوجة والإخوان والأبناء، وجاؤوا إلينا ليقولوا: ها نحن، إن قضيتكم، قضية إسبانيا هي قضيتنا، قضية الإنسانية كلها، وكل إنسانية متقدمة وتقدمية.

اليوم يغادرون، كثيرون، آلاف بقوا ككفن لأرض إسبانيا، ذكرى مشبعة بالمشاعر العميقة لجميع الإسبان.

رفاق الألوية الأممية!

... يمكنكم أن تغادروا بكل فخر، أنتم التاريخ، أنتم الأسطورة، أنتم النموذج البطولي للتضامن وعالمية الديموقراطية في مواجهة الروح الخبيثة المتساهلة لأولئك اللذين يترجمون المبادئ الديموقراطية من خلال التطلع إلى الخزائن والأسهم الصناعية، التي يريدون إنقاذها من المخاطر.

لن ننساكم، وعندما تزهر شجرة زيتون السلام المتشابكة مع أمجاد انتصار الجمهورية الإسبانية عودوا! ... عودوا إلى جانبنا، هنا ستجدون وطن من لا وطن له، أصدقاء لأولئك اللذين عليهم أن يعيشوا محرومين من الصداقة، وكل الحب، وكل تشكرات كل الإسبانيين، اللذين سيصرخون اليوم وغدا بكل حماس:

عاش أبطال الألوية الأممية! "

إلى جانب خطاب "لن يمروا"، الذي أضحى شعار المقاومة ضد الفاشية، كان هذا الخطاب من أقوى الخطب، التي ألقتها دولوريس طيلة مشوارها السياسي والنضالي.

في الوقت الذي كانت فيه برلين تساعد فرانكو في سحق الجمهورية الإسبانية، كان الجيش الألماني يستعد لاجتياح بقية أوربا، بالنسبة لهتلر، فإن مدريد و برونتي و غرينيكا و باراما هي أيضا اختبار عسكري بالنسبة له، أما بالنسبة لمتطوعي "الألوية الأممية" فسيكونون في جميع المعارك، في الصفوف الأولى لمقاومة الفاشية.

في 6 مارس 1939، قرر الحزب الشيوعي الإسباني مغادرة دولوريس إسبانيا، لقد تم إطلاق عملية مطاردة الشيوعيين في جميع أنحاء البلاد، وفي الثامن من مارس، في مطار قريب من أليكانتي قدمت مجموعة من المقاتلين للمرة الأخيرة الأسلحة لدولوريس برفقة جان كاتيلا، النائب الشيوعي الفرنسي، وشهيد المقاومة لاحقا ضد النازية وحكومة بيتان، الذي سيعدمه البيتانيون (نسبة للمارشال بيتان رئيس حكومة فيشي عندما كانت فرنسا تحت الاحتلال النازي بين 1940 و 1944). وفي يوم 24 شتنبر1941، عانقت دولوريس آخر جنود الجمهورية وامتطت طائرة صغيرة لترحل نحو الاتحاد السوفياتي.

في 18 يوليوز 1941، جمعت دولوريس ما يقرب من 200 إسباني في إحدى ثكنات موسكو، وقالت لهم:

"اليوم، كما بالأمس ستجدون أنفسكم والأسلحة بين أيديكم ضد الفاشية، أنا متأكدة أنكم ستقاتلون بشرف إلى جانب الشعب السوفياتي في الحرب ضد هتلر ومن أجل استقلال إسبانيا".

في هذه اللحظة يصرخ صوت:

"لن يمروا"، الشعار الذي أصبح كنار على علم، يهتدي به المقاتلون لسحق الفاشية، وبالفعل، في هذه المرة لن يمر الفاشيون.

حوالي 1000 من المتطوعين الإسبان سيكونون في صفوف الجيش الأحمر، سيكونون بصفة خاصة، فعالون وراء الخطوط الألمانية من أجل مهمات خاصة.

في إحدى المعارك بين الجيش الأحمر والقوات النازية سيستشهد ابنها روبن في معركة ستالينغراد البطولية.

أعطت هزيمة قوات هتلر الأمل للجمهوريين الإسبان، أليس فرانكو واحدا من أكثر حلفاء النازيين إخلاصا؟ ألم يتعهد الشعب الإسباني بأن يدفع الدكتاتور ثمن جرائمه ضد الجمهورية و تواطؤاته خلال الحرب العالمية؟

دون أن تنتظر نهاية الصراع، أخذت دولوريس الطريق نحو باريس، وفي 8 ماي 1945، احتفلت في باريس بالنصر على الفاشية، كانت رغبتها الغالية هي الاقتراب من إسبانيا، فاستقرت في تولوز لكن لفترة قصيرة، ففي عام 1950، حظرت الحكومة الفرنسية أنشطة الحزب الشيوعي الإسباني، فدخل قادته في السرية، أما دولوريس فقد عادت إلى موسكو حيث ستقود الحزب الشيوعي الإسباني إلى غاية 1960.

بقيت دولوريس في موسكو، وفي سنة 1964 منحت جائزة لينين للسلام، وفي العام التالي منحت وسام لينين، ومع ذلك في سنة 1968، هاجمت بقوة غزو الجيش السوفياتي لتشيكوسلوفاكيا، وهاجمت أيضا الحزب الشيوعي السوفياتي التحريفي، وقد ردت القيادة السوفياتية على موقف دولوريس هذا برعاية الحزب الشيوعي الإسباني الانفصالي إينريك ليستر.

بعد وفاة فرانكو عادت دولوريس إلى اسبانيا، و في سنة 1975 انتخبت نائبة في الكورتيس.

III – دولوريس، الشيوعية الثورية التي أبهرت العالم

يشهد كل ثوريي العالم بكفاحية ونضالية وشجاعة دولوريس إباروي لا باسيوناريا، ويظهر ذلك من خلال أقوالها، وما جاء في سيرتها الذاتية، ومن خلال شهادات معاصريها و مجايليها، و كل من كتب عنها.

1) من أقوال دولوريس إباروري:

كتبت دولوريس سيرتها الذاتية، جسدت فيها مواقفها من عدة قضايا، و على رأسها قضية المرأة و الأسرة في بداية القرن 20، لأن معاناتها ارتبطت بهذين الجانبين أساسا. تقول دولوريس :

"كانت المرأة المتزوجة بمثابة عبد في المنزل بدون أية حقوق، في المنزل فقدت المرأة شخصيتها، أعطت نفسها، بحكم الضرورة لحياة التضحية، لقد تحملت عبئ العمل والحرمان، والسعي لجعل حياة أطفالها وزوجها أكثر متعة وأقل قسوة وأقل صعوبة حتى أهلكت نفسها، وتحولت في النهاية إلى "عانس"، "لا تفهم"، لا تقوم إلا بالإزعاج، في أحسن الأحوال هي خادمة لمن هم أصغر، مربية للأحفاد.

عند ولادة ابنتي الأولى، عشت قرابة سنة تجربة مريرة، لدرجة أن حب طفلتي هو الذي أبقاني على قيد الحياة، كنت مذعورة، ليس من الحاضر القبيح، ولكن الذي لا يطاق، أن الواقع كما هو، والحقيقة الصريحة صدمتني مثل كل امرأة، بأيديها غير الرحيمة. خلال تجربتي الخاصة تعلمت الحقيقة المرة للقولة الشعبية التالية: "أمي، ماذا يعني أن تكوني متزوجة، ابنتي: أن تكوني خياطة وتلدي أطفالا وأن تبكي". البكاء ثم البكاء على مصائبنا، البكاء على عجزنا، أن نبكي على أبنائنا الأبرياء، اللذين كل ما عندنا لمنحهم إياهم كانت مداعبتنا لهم الغارقة في الدموع، أن نبكي على حياتنا المليئة بالألم، بدون آفاق، بدون مخرج، دموع مريرة مع شقاء دائم في القلب وكفر على الشفاه.

2) قالوا عن دولوريس إباروري:

كانت دولوريس، كما يحكى عنها منبرا كبيرا في الحزب يعبئ الجموع، ذلك أنها كانت ذات صوت يأخذ بالألباب، و مواهب استثنائية كخطيبة، في 19 يوليوز 1936، أي في اليوم التالي للانقلاب القومي الفاشي، جاء المدافعون عن الديموقراطية ليجدوا صيحة حاشدة، امرأة، تلك المرأة التي أصبحت أسطورة، تجسد النضال، يتم الكشف بسهولة عن جوانب هذا البناء الخيالي: صوت الشعب الصامت، نموذج العطاء الذاتي من أجل القضية العادلة، المرأة الجريئة الملفوفة بالسواد، تخاطب الجنود للانضمام إلى الجمهورية، و حفر الخنادق، و عبور الحدود للبحث عن الحلفاء ...تتشابك الأرقام بمهارة لاستكمال بناء شخصية الباسيوناريا، من الواضح أن الأسطورة تعمل بمجرد ولادتها، حاشدة، محفزة. كلمات دولوريس لها تأثير هائل على الجمهوريين، بمجرد الإعلان عنها تصبح شعارات، فدون استيعابها وفقا لطريقة تفكير الحزب الشيوعي، تصبح فكرة صحيحة، حقيقة لا

مفر منها، عبارات صادمة تبرز من خطاباتها، وترقى إلى درجة شعارات ومراجع، وهكذا احتفظت الذاكرة الجماعية بأربع عبارات تاريخية لدولوريس:

"لن يمروا".

"يفضل الشعب أن يموت واقفا على أن يعيش جاثيا على ركبتيه".

"الرجال في القتال، النساء في العمل".

"من الأفضل أن تكوني أرملة بطل على أن تكوني زوجة جبان".

تشير هذه الصيغ المتكررة والمنتشرة والمعتمدة إلى السلوك الذي على الجمهوريين تبنيه.

كانت خطب دولوريس ذات لهجة دراماتيكية حقا، ففي واحدة من الجلسات الأكثر دراماتيكية في الكورتيس الإسباني، كان الموضوع يدور حول الأحداث الخطيرة التي عرفتها إسبانيا بين 16 فبراير و 15 يونيو، ففي جوابها على الخطاب الذي ألقاه خوسي ماريا و جيل روبلس، ألقت خطابا قويا خلد في تاريخ البرلمان الأمس و اليوم، من بين عباراته يمكن ملاحظة لهجة و شخصية هذه المرأة:

"يا سادة الحقوق!

جئتم هنا لتمزيق ملابسكم الفاسدة وتغطية جباهكم بالرماد ..."، "لقد كان، السيد جيل روبلس، أولئك الرجال المسؤولين عن سحق الحركة بائسين للغاية، و وصلوا أقصى درجات الشراسة الرهيبة لدرجة أنه لم يكن معروفا في تاريخ القمع في أي بلد ...".

كانت لدولوريس قدرة هائلة على التواصل، فقد نشرت رسالتها على الصعيد العالمي، كانت تتوجه بكلامها إلى النساء وإلى الشباب، ويجسد شعار "لن يمروا" بشكل أساسي الرسالة التقدمية للقرن العشرين، إنه ممثل لما تجسده الحركة اليسارية في هذا القرن.

قيل كذلك، أنه كان لدولوريس حس سياسي صحيح دائما، حول طريقة التموقع، وتلعب أوراقها في جميع الوضعيات، بالتأكيد، عندما يتعلق الأمر بالتكتيكات، يمكنها في بعض الأحيان أن تذهب بعيدا، يدفعها في ذلك شغفها وصدق شخصيتها، يأتي الناس للمسها كأنها قديسة.

قال عنها ميخائيل روستوف، المبعوث الشخصي لستالين إلى إسبانيا في بداية الحرب الأهلية الإسبانية:

" في المكتب السياسي، حيث الجو حاد وذكوري، تسيطر عليه القواعد بطريقة مبالغ فيها، كان حضور دولوريس يجلب الحرارة والفرح، وروح الفكاهة، أو الغضب الشديد، فقد كانت متشددة بشكل خاص عندما يتعلق الأمر بالوفاء بالوعود، كانت تصل دولوريس بروحها المرحة وبهجتها وابتسامتها الساخرة إلى التخفيف من الأجواء المتوترة.

إذا كان عليها أن ترد على كلام قيل، ليس في محله، تقاطع صاحبه، وسيكون بدون جدوى محاولة إيقافها، بدون أن تكون قد عرضت خطبتها المسهبة والعنيفة وبدون أن تسترد أنفاسها".

"في فترة ما بعد الظهر، حضرت في فلانسيا اجتماعا جماهيريا ل "الجبهة الشعبية"، كان هناك حوالي 50 ألف شخص متحمس، عندما ظهرت لاباسيوناريا بلغ الحماس ذروته، إنها الزعيمة الشيوعية الوحيدة التي تعرفها الجماهير و تحبها، لكن في المقابل لا توجد شخصية أخرى في المعسكر الحكومي تحظى بإعجاب كبير مثلها، و هي تستحق شهرتها، ليس لأن لها عقلية سياسية، على العكس من ذلك، فإن ما يميزها بالتحديد ابتعادها عن جو المؤامرة السياسية، امرأة سمتها

البساطة و التضحية، تتحدث ببساطة، و بشكل مباشر، خطابات لا تنتهي، اجتماعات ضخمة منذ بداية الحر ب الأهلية، صدقها، تعبدها الجماهير، ليس لثقافتها و لكن كقديسة، التي يجب أن تقودها خلال الأيام الصعبة، كان إخلاصها للطبقة العاملة مطلقا و صادقا تماما، لقد أصبحت واحدة من الخطباء المفوهين في بلدها.

كان اسمها الذي اشتهرت به لا باسيوناريا (الذي يعني العاطفة باللغة الاسبانية) يرجع إلى حقيقة العاطفة التي ملأت شخصيتها بأكملها، كان صوتها صوفيا عندما دافعت عن شعبها وهاجمت أعداءها، دولوريس ضحكة دافئة ويد قوية، عبقريتها لا جدال فيها".

خلاصة

حتى وفاتها ظلت دولوريس إباروري لا باسيوناريا، وفية للنضال الثوري والمثل الشيوعية، لقد فضلت، كما تقول، أن تموت واقفة بدل أن تعيش جاثية على ركبتيها، المثل الذي شاع بين الناس منذ أن نطقت به، وهو الشعار الذي ظلت وفية له إلى آخر رمق في حياتها، كانت دولوريس شخصية رمزية للشيوعية في القرن العشرين، لا يمكن أن تتحدث عن الأخلاق الشيوعية دون أن تنتصب قامة هذه الثورية البروليتارية الأممية، إنها المرأة المكافحة والرائدة في نضالات العمال والنساء في إسبانيا. لم تقاوم دولوريس إغراء ترك كتابات تروي وتشرح الأحداث التي وقعت لها ومرت منها، كانت الطريقة التي كتبت بها مذكراتها سنة 1962 تعكس طريقا شاقا للوصول إلى النضال السياسي، حيث لم تكن تحظى المرأة بالاحترام والاعتبار. من جهة أخرى نشرت عدة كتب حول دولوريس وشخصيتها الشيوعية المناضلة، كما اهتم بشخصيتها البطولية العاملون في مجال السينما.

لقد أصبحت دولوريس من خلال الأدوار التي لعبتها في الحرب الأهلية الإسبانية، في مقاومة الفاشية أسطورة ورمزا للمقاومة الإسبانية، لم تتخل أبدا عن النضال من أجل الشعب الإسباني، كانت امرأة عاملة أفرزتها الطبقة العاملة، امرأة ذات قناعات عميقة، كانت محط إلهام جميع الأشخاص اللذين التقوا بها، هذه الشيوعية الشهيرة، الشجاعة فعلت كل شيء خلال الحرب الأهلية، من تدبير الحضانة لأطفال المقاومين إلى تدبير المراكز حيث توجد الأسلحة الرشاشة.

في كل ما قامت به وأنجزته ومارسته، كانت دولوريس تجسد الأخلاق الشيوعية كما يجب أن يكون عليها الشيوعي الحقيقي، والتي بدونها لا يستوي أي كلام عن الثورية وعن الشيوعية.

جميلة صابر

11 دجنبر 2019

جميلة بوحيرد: أيقونة الثورة الجزائرية

(الجزائر)

"أعرف أنكم سوف ستحكمون علي بالإعدام، لكن لا تنسوا أنكم بقتلي تغتالون تقاليد الحرية في بلدكم، ولكنكم لن تمنعوا الجزائر من أن تصبح حرة مستقلة"

في فاتح نونبر سنة 1954 اندلعت الثورة الجزائرية المجيدة ضد الوجود الاستعماري الفرنسي الغاصب للأرض والهوية منذ1830. لم تتوقف المقاومة الجزائرية الشعبية خلال هذه الفترة الطويلة من مواجهة الاستعمار الفرنسي المتغطرس الذي كان يعتبر الجزائر اقليما فرنسيا يتبع للسيادة الفرنسية، وسقط مئات الآلاف من الشهداء وسالت دماء غزيرة على أرض الجزائر التواقة للحرية والاستقلال، لكن لم تكن عوامل الانتصار قد تجمعت بعد. كانت الحركة الوطنية الجزائرية يقودها مصالي الحاج، وكان حزب هذا الأخير يدعو إلى النضال السلمي من أجل نيل الاستقلال ويناور من أجل ابعاد أي طريق مسلح للثورة، إلا أن هامش المناورة بدأ يضيق أمام صعود جيل جديد من المناضلين بدأ يتشرب بأفكار جديدة ويستمع إلى نبض الثورات التي تهز العالم.

بعد الحرب الامبريالية العالمية الثانية، بدأت سماء الجزائر تتلبد بالسحب القادمة من الشرق (شرق الثورة العالمية) منذرة بقرب وصول العاصفة. لقد كان للانتصار المدوي الذي حققه الجيش الأحمر السوفياتي على القوات النازية ودخوله برلين عاصمة الدولة النازية، بعد معارك بطولية، انتهت برفع العلم الأحمر فوق الريشتاغ الألماني واستسلام القوات النازية، أُثره الكبير على الأجيال الجديدة من الجزائريين، الذين كان جزء منهم قد ساهم في الحرب العالمية الثانية وعاد إلى البلاد بعد انتهائها. ولم تمض إلا سنوات قليلة، حتى دخل الجيش الأحمر مدينة بكين (الجيش الشعبي للتحرير) فأعلن ماوتسي تونغ في اكتوبر 1949 عن قيام الجمهورية الشعبية للصين. ثم بعد ذلك، وفي سنة 1954، سمع العالم بالهزيمة المدوية التي تعرضت لها القوات الاستعمارية الفرنسية في الفيتنام (معركة ديان بيان فو الشهيرة) على يد قوات الفييت مينه بقيادة هوشي مينه ونغوين فان جياب.

أمام هذه الأحداث التي هزت شعوب العالم عامة، وشعوب المستعمرات خاصة، بدا للجيل الجديد من مناضلي الشعب الجزائري أن لا طريق للتحرر والاستقلال إلا طريق الثورة المسلحة، طريق حرب الشعب التي تضمنها الجماهير. هكذا نهض القادة الثوريون الجدد من أجل إطلاق الثورة الجزائرية وتأسيس أداتها الوطنية والثورية: جبهة التحرير الوطني الجزائرية. وقد ساهم في هذا التأسيس العربي بلمهيدي ومحمد بوضياف ومصطفى بن بولعيد وديدوش وكريم بلقاسم وأحمد بن بلة وبن طوبال وآخرون... وقرر القادة الثوريون أن يكون فاتح نونبر 1954، هو يوم انطلاق الشرارة الأولى للثورة، فانطلقت الحرب التحريرية الجزائرية واستمرت إلى أن قرر الشعب الجزائري ونال استقلاله.

وخلال المرحلة الأولى من الثورة (1954-1957)، عرفت ولاية الجزائر التي كان يقودها الشهيد العربي بلمهيدي، تصاعدا هائلا للعمليات المسلحة مما جعل السلطات الاستعمارية تستعين بخيرة قوات الجيش الفرنسي منهم من تمرس في الفيتنام، وقررت

هذه القوات استئصال وجود جبهة التحرير الوطني في قلب العاصمة الجزائرية، ومن قلب حي القصبة الشعبي مركز تواجدها، لتدور إحدى أكبر معارك المدن في تاريخ الثورات، إنها معركة الجزائر (انظر فيلم معركة الجزائر الشهير).

قاد الشهيد العربي بلمهيدي معركة الجزائر إلى حدود اعتقاله ثم استشهاده، وعوضه بعد ذلك شعبان رمضان الذي اضطر الى مغادرة الجزائر، ليصبح ياسف السعدي القائد الميداني الفعلي لتنظيم جبهة التحرير الوطني بمدينة الجزائر، وقد فطن هذا الأخير إلى الدور الذي تستطيع أن تقوم به المرأة الجزائرية، فأنشأ مجموعات مناضلة من النساء قادرة على اختراق صفوف العدو وضربه في قواعده الخلفية، هكذا دخلت النساء الجزائريات معترك الثورة، ولم يكن ذلك بغريب، فورائهن تاريخ طويل من النضال. وتشكلت اللائحة من أسماء شهيرة سيخلدها التاريخ الثوري للشعب الجزائري من بينهم جميلة بوحيرد، زهرة ظريف، سامية لخداري، حسيبة بنت بوعلي، عليلي ربيعة وأخريات كثيرات.

من بين هذه الأسماء، انتشر اسم أصبح على كل لسان وتداولته وكالات الأنباء العالمية، وأصبح رمزا لنضال النساء والشعوب، ودونت من أجله الأشعار والقصائد، وكتبت الكتب، وأخرجت الأفلام....

نتحدث هنا عن جميلة بوحيرد، فمن هي هذه المناضلة التي هزت العالم؟

إنها المناضلة الثورية الجزائرية، أيقونة الثورة الجزائرية والبطلة الجزائرية في حرب التحرير الوطنية 1954 – 1962، رمز من رموز الكفاح من أجل الحرية و الاستقلال، تغنت باسمها الملايين من شعوب العالم. قضت جميلة خمس سنوات في سجن الاحتلال الفرنسي، ثم غادرته سنة 1962 بعد انتصار الثورة الجزائرية.

ولدت جميلة بوحيرد سنة 1935 في حي القصبة بالجزائر العاصمة، من أب جزائري، مثقف ليبيرالي، و أم من أصل تونسي، أي من عائلة من الطبقة المتوسطة، تعلمت في الجزائر العاصمة في مدرسة فرنسية رسخت في طلابها قناعة أنهم فرنسيون مثلهم

مثل كل الجزائريين الشباب، اللذين كانوا محظوظين في الأربعينات من القرن الماضي لولوج المدرسة، نشأت بوعي ثقافي فرنسي، و لم تتعلم القراءة أو الكتابة باللغة العربية، التي تعيش بها وسط أسرتها و تتكلم بها في المنزل، فقد كانت الفرنسية هي لغة التدريس في مدرستها، المدرسة الفرنسية، حيث كان التلاميذ مجبرين على غناء نشيد "فرنسا أمنا"، بينما كانت جميلة تردد "الجزائر أمنا"، الذي كان ينتهي بمعاقبتها، لقد كانت الفتاة متمردة منذ صغرها، فلا غرابة في أنها التحقت ب "جبهة التحرير الوطني" الجزائرية في سن 20 سنة، عندما اندلعت الثورة سنة 1954، و كانت الأولى التي تطوعت لزرع القنابل في الطرقات والأماكن، التي يستعملها الاحتلال العسكري الفرنسي.

أثارت بداية حرب التحرير الوطني في نونبر 1954 جوابا حماسيا من أخ جميلة، الذي قام بتجنيدها بدورها من أجل القضية الوطنية. لقد أصبح الوطنيون الجزائريون الشباب مثل جميلة ثوريين بسبب المعاملة الوحشية، التي تعرض لها سجناء "جبهة التحرير الوطني" على أيدي الفرنسيين، في إطار الجهود الفرنسية المتصاعدة لسحق التمرد وإغراقه في الدم. كان اثنان من سجناء "جبهة التحرير الوطني"، تعرض أحدهما للتشوه من جراء جروحه الخطيرة أثناء قتاله للفرنسيين، وقد تم إعدامهما، و كان رد "جبهة التحرير الوطني" أن أعلنت، أنه مقابل كل عضو مقاتل يتم اعدامه، سيتم قتل 100 فرنسي بدون تمييز، و كانت جميلة بوحيرد قد أصبحت عضوا في شبكة الجزائر العاصمة التي كان يقودها ياسف السعدي ابن أحد خبازي القصبة، و كانت المهام التي تكلف بها تخصص لضرب وتفجير كل الأماكن التي يرتادها المعمرون الأوربيون وخاصة الفرنسيون التي تتراوح أعمارهم بين 18 و54 سنة.

بحلول نهاية سنة 1956، كان ياسف السعدي قد أنشأ تنظيمات مسلحة في الجزائر العاصمة، تضم أكثر من 1400 مسلح، معظمهم من الشباب المستعدين للتضحية بحياتهم من أجل قضية جبهة التحرير الوطني.

كان أحد العناصر الرئيسية لاستراتيجية ياسف القتالية، هو استخدام نساء جزائريات جذابات و عصريات لزرع القنابل، و ذلك لنشر الرعب بين السكان الأوروبيين في الجزائر العاصمة.

لقد لعبت النساء الجزائريات دورا كبيرا في النضال ضد النظام الاستعماري الفرنسي، سواء في انخراطهن في دعم المقاتلين، أو مقاتلات في العمليات العسكرية، وقد لعبت جميلة بوحيرد، التي كرست نفسها للعمل مع ياسف السعدي دورا رئيسيا في تجنيد العديد من النشطاء الأكثر نكرانا للذات، فبالإضافة إلى بوحيرد، ظهرت كل من زهرة ظريف و سامية لخضري وحسيبة بنت بوعلي وعليلي ربيعة وجميلة بوعزة وجميلة بوباشا ومريم عبد العزيز و غيرهن.

في 30 شتنبر 1956، حضرت كل من جميلة و زهرة و سامية اجتماعا مع ياسف السعدي في أحد أماكن اختبائه في القصبة في الجزائر العاصمة، و تم الاتفاق، أنه بعد ظهر ذلك اليوم سيضعن قنبلة في مكان محدد في الحي الأوروبي بالجزائر العاصمة، و عندما بدا أن رد الفعل الأول للشابات الثلاث تميز بالصدمة، ذكرهم ياسف بالتشوهات المروعة التي عانى منها الجزائريون نتيجة التفجيرات الفرنسية، ولم يتأخر رد فعلهن الإيجابي، و ذلك عندما خلعت جميلة و نساء أخريات حجابهن و صبغن شعرهن و ارتدين الثياب الصيفية اللامعة، التي ترتديها الفتيات الأوروبيات الشابات، اللائي يقضين يوما هادئا على الشاطئ. كما تم وصف ذلك في فيلم "معركة الجزائر" سنة 1966، تلقت كل امرأة قنبلة تزن ما يزيد قليلا عن 1 كلغ، و قد كانت القنابل، التي كان من المقرر تفجيرها بفارق دقيقة بين قنبلة و قنبلة، مخبأة في أكياس الشاطئ تحت البيكينيات و مناشف الشاطئ و زيت "البرونزاج"، وانفجرت قنبلتان من بين ثلاثة قنابل، إحداهما في ميلك بار و الأخرى في كافيتيريا تحظى بإقبال كبير بين الأزواج الشباب. لم تنفجر قنبلة جميلة بوحيرد، التي وضعتها في بهو محطة الخطوط الجوية الفرنسية بسبب آلية توقيت خاطئة. و قد أسفرت الانفجارات عن عدد من القتلى و تشوهات خطيرة، و كما هو متوقع، كان رد الفعل الفرنسي يتمثل في

تكثيف أعمال العنف ضد السكان الجزائريين، و اندلعت بشكل تلقائي نيران الكراهية بين السكان الفرنسيين و الجزائريين بعد كل قصف. و اقتناعا منها بأن أنشطتها ستعجل بيوم استقلال الجزائر، فقد واصلت بوحيرد تجنيد الشابات، بعضهن لا يتجاوزن 16 سنة لقضية "جبهة التحرير الوطني"، و واصلت أيضا زرع القنابل بنفسها.

مع اندلاع الثورة الجزائرية في نونبر 1954، و بعد أقل من عام، انضمت جميلة إلى الثورة عن طريق أخيها، و قد اتصفت جميلة بالشجاعة والجرأة الشديدة، مما جعلها تتولى المهمات الصعبة جدا، فانضمت إلى خلية زرع القنابل موجهة لأهداف محددة تضرب الاحتلال الفرنسي في الصميم، و كانت بذلك تصنف ك"إرهابية" من طرف قوات الاحتلال الفرنسي، وبعد اعتقالها، حكم عليها بالإعدام هي و رفيقتها جميلة بوعزة في محاكمة عسكرية. وقد رفضت هذه المرأة ذات الأنفة الكبيرة اقتراح محاميها، بأن توقع عريضة تستعطف فيها رئيس جمهورية فرنسا بعد الحكم عليها بالإعدام.

شاركت جميلة بوحيرد في "معركة الجزائر" سنة 1957، لكن في عملية دهم لقوات الجيش الفرنسي ألقي القبض عليها سنة 1957، بعدما أصيبت بطلق ناري بكتفها، و بدأت رحلة التعذيب الوحشي، لكنها صمدت أمام الجلاد، و لم تمكنه من هدفه، فقد تعرضت للاغتصاب و التعذيب الشديد، عندما استخدم الاحتلال العسكري الفرنسي صدمات كهربائية على ساقها المصابة و صدرها و أعضائها التناسلية، مما سبب لها حدوث نزيف أدى إلى انقطاع الطمث، و قد قام الجلادون الفرنسيون بتعذيبها بوحشية على أمل أن تكشف عن معلومات عن ياسف السعدي، لكنها لم تفعل ذلك، فكان أن حكم عليها بأقسى العقوبات، أي الحكم عليها بالإعدام، و بتهم أخرى ثقيلة.

خلال محاكمتها الصورية في يوليوز 1957، قالت جميلة أمام المحكمة العسكرية للنظام الاستعماري الفرنسي: "أعرف أنكم سوف تحكمون علي بالإعدام، لكن لا تنسوا أنكم بقتلي تغتالون تقاليد الحرية في بلدكم، و لكنكم لن تمنعوا الجزائر من أن تصبح

حرة مستقلة". و حكمت عليها المحكمة الفرنسية بالإعدام، و استقبلت الحكم بضحكة مجلجلة ملأت سماء المحكمة، و هي تردد: "تحيا الجزائر حرة مستقلة"، و ردد من معها ممن حكم عليهم أيضا بالإعدام أو السجن هتافاتها. لم تتحد بوحيرد القضاة فقط بالسخرية من أحكامهم، بل مارست استفزازها لهم، عندما انفجرت بالضحك، ناعتة القاضي الذي نطق بالحكم ب "الفرنسي الصغير"، و بعد أن وصفها ب"الأنديجان" القذرة، صاح فيها "الوقت خطير يا آنسة" ، فأجابت : "لا، الوقت ليس خطيرا، أنت لا تحكم في أي شيء على الإطلاق أيها الفرنسي الصغير، أنت لا تدين أي شيء، يمكنك قتلي إذا كان ذلك يفرحك، لكنك لن تقتل مقاومة الشعب الجزائري، أو باقي الشعوب التي تضطهدها، نهايتك قريبة أيها الفرنسي الصغير، و تحرير الجزائر و إفريقيا و جميع البلدان التي استعمرتها أمر لا مفر منه" .

تحدد يوم 7 مارس 1958 لتنفيذ الحكم، لكن العالم كله ثار، و اجتمعت لجنة حقوق الإنسان بالأمم المتحدة بعد أن تلقت الملايين من برقيات الاستنكار من كل أنحاء العالم مطالبة بإطلاق سراحها، بعد حملة قام بها محاموها جاك فرجيس، المناضل مع جبهة التحرير و المؤيد لحركات التحرر العالمية، و كان من محامي مناضلي جبهة التحرير الوطني من بينهم المناضلة جميلة بوحيرد، و قد نجح في تشكيل رأي عام دولي ضاغط لإطلاق سراحها، فأذعنت السلطات الفرنسية للضغط الدولي و غيرت حكم الإعدام بحكم السجن مدى الحياة، و بعد عامين و نصف، سترحلها السلطات الفرنسية من سجن سركاجي بالجزائر العاصمة إلى سجن فرنسي. و قد جذب سجن جميلة، كما كان الحال بالحكم بإعدامها، الكثير من الاهتمام من وسائل الإعلام الإقليمية و الدولية، و قد تظاهر الكثير من الناس في الشوارع مطالبين بالإفراج عنها، بل حتى رؤساء الدول التقدميين آنذاك، مثل جمال عبد الناصر طالبوا بالإفراج عنها.

كانت القضية التي زادت شهرة فرجيس وقتها دفاعه عن المقاومة جميلة و التي تزوجها لاحقا، و أنجب منها ولدين. و قد أصدر فرجيس كتابا بعنوان "من أجل جميلة" سرد فيه نص محاكمتها كاملا، و عرض تقارير طبية تبين تعذيبها بوحشية من طرف جنود الاستعمار الفرنسي خلال فترة اعتقالها في الجزائر أو بعد نقلها للمحاكمة في فرنسا.

عندما يذكر العرب وشعوب "العالم الثالث" اسما لمناضلة، كانت جميلة هي الأشهر على الإطلاق، و كانت ملهمة للشعراء بما يقرب من 70 قصيدة كتبها عنها شعراء من مختلف مناطق العالم العربي، منهم نزار قباني، صلاح عبد الصبور، بدر شاكر السياب، الجواهري، كمال الشناوي، كما ألهمت بطولتها و ثوريتها مخرجين سينمائيين مثل يوسف شاهين.

في الواقع، فإن قصة جميلة بوحيرد، تبدأ في عام 1830، عندما غزت فرنسا الجزائر. لقد قاتل الجزائريون بشجاعة، لكنهم كانوا غير مسلحين، و عددهم قليل، و خلال العقود الخمسة التالية لهذا التاريخ، تمت مصادرة معظم أراضي الجزائر الخصبة و منحت للمستوطنين الفرنسيين، اللذين بلغ عددهم ربع مليون، بينما كان عدد الجزائريين يتقلص تدريجيا.

بعد استقلال الجزائر، أصبحت جميلة رئيسة "جمعية النساء الجزائريات"، لكن كان عليها أن تقاتل من أجل كل مطلب مع رئيس الجزائر آنذاك أحمد بن بلة، و قد غادرت بعد سنوات من الاستقلال الساحة السياسية، و انتقلت إلى العيش في باريس.

خلاصة

تعتبر جميلة بوحيرد من ضمن المقاتلين الأقوياء من أجل الحرية والاستقلال في القرن العشرين، لكن لكون جميلة امرأة فإنه لا يعرف إلا القليل عن هذه المرأة الثورية، و إن حجابا من الصمت قد ألقي على هذه المرأة لإخفاء اسمها و إدخاله تحت طائلة النسيان، فالمعلومات المتعلقة بمساهمتها، و التي كانت مهمة للغاية في ثورة التحرير الجزائرية، تتكون أساسا من تلميحات مبعثرة هنا و هناك، هذا في الوقت الذي لا توجد فيه مدينة عربية لا تحمل شوارعها أو مدارسها اسم هذه الثورية الجزائرية العظيمة، و كتب عنها الشعراء، و ألفت عن بطولاتها الروايات، بل كانت موضوع معالجة سينمائية عديدة، بالنظر إلى الدور الحيوي الذي لعبته، حتى بعد اعتقالها، و خلال محاكمتها، و لاحقا طوال فترة سجنها، في نجاح الثورة الجزائرية، و في الترويج لفكرة الكفاح المسلح ضد الاستعمار، بينما مني بكامل الاعتبار من كان أقل شأنا منها في خدمة الثورة الجزائرية من رفاقها، إنها بالتأكيد الباتريارکا، التي تطمس كل إنجازات النساء، غير أن المستقبل الثوري للشعوب وللنساء سيرفع عاليا

أسماء هؤلاء النساء الثوريات، وسيقهر الباتريارکا ويبني الاشتراكية، ويبقي عاليا راية جميلة ورفيقاتها من اجل غد مشرق لكل نساء العالم

جميلة صابر

2019 – 8 – 8

تمارا بونكي أو تانيا الثائرة

شيوعية وثورية وأممية

(الأرجنتين)

"هل سيتم نسيان اسمي ذات يوم، و لا شيء مني يبقى على الأرض؟" تمارا بونكي

"لقد ماتت بشكل بطولي من أجل حرية أمريكا اللاتينية، لكنها ستعيش دوما كنموذج

لما يمكن أن تفعله امرأة شجاعة حقا و ثورية!". إينتي ببريدو

هايدي تمارا بونكي بايدر، شيوعية ثورية أرجنتينية من أصل ألماني، وتعرف أكثر باسمها المستعار "تانيا" وكذلك "تانيا المقاتلة". كانت تمارا بونكي المرأة الوحيدة، التي قاتلت في صفوف "جيش التحرير الوطني"، الذي قاده تشي غيفارا في بوليفيا، إنها الشيوعية الأرجنتينية، التي ذهبت إلى أدغال أمريكا اللاتينية للمساهمة في الثورة بدءا ببوليفيا، يحفزها في ذلك نجاح الثورة في كوبا، هذه الثورة التي ألهمتها أيما إلهام.

رغم حياتها القصيرة، كانت حياة تمارا مكثفة للغاية، وكان عليها أن تتبنى شخصيات وأسماء متعددة أينما حلت وارتحلت عبر مسارها القصير. إنها المرأة التي حاربت واستشهدت من أجل مثلها العليا، المثل الشيوعية الثورية مع تشي غيفارا في بوليفيا، وكانت نموذجا للتمرد والنضال المستميت من أجل انتصار الثورة. لعبت تمارا دورا هاما في التجربة الكوبية بعد الثورة و في حركات ثورية بأمريكا اللاتينية.

فما المسار الذي قطعته تمارا في مشوارها القصير بحثا عن المساهمة في الثورة؟

1) شباب مسيس جدا :

ولدت تمارا في 19 نونبر 1937 في بيونيس أيريس بالأرجنتين، ابنة ناديا بايدر و إيريك بونكي الشيوعيين الألمانيين اللاجئين إلى الأرجنتين عندما صعدت النازية إلى السلطة في ألمانيا، ففي 1935، اضطر إيريك و ناديا بونكي مغادرة ألمانيا التي كان يحكمها هتلر. ترعرعت تمارا و أخوها وولف في جو مسيس للغاية، فقد انضم والداها مباشرة بعد لجوئهما إلى الأرجنتين إلى الحزب الشيوعي الأرجنتيني، و هكذا وفر الوالدان لتمارا و أخيها الظروف لكي يترعرعا في أجواء سياسية مكثفة، غالبا ما كان بيت الأسرة في بونيس أيريس يستخدم لاستضافة اللاجئين وعقد الاجتماعات السياسية وقاعدة لإخفاء المنشورات السرية، و إخفاء الأسلحة أحيانا، لقد عاشت تمارا و تابعت دراستها في بيئة عائلية كرست نفسها للقضية الشيوعية.

تمتعت تمارا بشعبية كبيرة في مدرستها لتعدد مواهبها، فقد تابعت دروس الصباغة و الرسم و البالي، تميل إلى الموسيقى و الفولكلور، كما كانت رياضية شغوفة، و طالبة ممتازة، طورت ولعا خاصا بالموسيقى الشعبية في أمريكا الجنوبية، غير أنه في سنة 1952 عندما قام نظام الجنرال خوان بيرون بقمع الشيوعيين، و في نفس الوقت كانت النازية قد سقطت، انتقلت تمارا مع

والديها إلى ألمانيا الديموقراطية حيث ستعود الأسرة إلى ألمانيا الشرقية، و قد كانت في هذا التاريخ في 14 من عمرها، على الرغم من المقاومة التي أبدتها تمارا، لكن والدتها تمكنت من إقناعها بوعدها بالعودة إلى الأرجنتين، و استقرت في ستالينشتات (سميت فيما بعد ب إيزنهاورشتات)، حيث تابعت عن كثب جميع الأحداث في بلدها و في أمريكا اللاتينية.

تألقت (ازدهرت) تمارا في بيئتها الجديدة، و بدأت دراسة العلوم السياسية في جامعة هومبولت في برلين الشرقية، انضمت بسرعة إلى "منظمة الشباب الألماني الحر" التابعة ل "الحزب الاشتراكي الموحد" في ألمانيا، حيث طورت عملا مكثفا كقائدة، و كانت عضوا في الحزب الاشتراكي الألماني الموحد، الذي انضمت إليه و كان عمرها 18 سنة، واشتغلت في قسم العلاقات الدولية نظرا لقدراتها الفكرية و إتقانها لعدة لغات، كما انضمت أيضا إلى "الاتحاد العالمي للشباب الديموقراطي"، و الذي سمح لها بحضور مهرجان الشباب و الطلاب العالمي في فيينا و براغ و موسكو و هافانا، بل شاركت تمارا في تنظيم المهرجان العالمي، الذي أقيم في موسكو سنة 1957، حيث تحدثت مع وفدي كوبا و الأرجنتين. لقد سمعت عن كفاح الكوبيين في سييرا مايسترا، و مشاركة أحد الأرجنتينيين يدعى أرنستو تشي غيفارا، و تابعت عن قرب كل الأخبار، و قد عمها الفرح لما علمت دخول الثوار سانتياغو (كوبا)، و أعربت عن رغبتها في القتال في الأرجنتين. عندما كانت الثورة في مرحلة التحرير والنضال السري، كانت تحاول دائما التقرب من الكوبيين، اللذين سبق لهم أن مروا بجمهورية ألمانيا الديموقراطية، وكانت دائما مرتبطة بكوبا وأرادت أن تعرف كوبا. كانت تمارا متحمسة للمشاركة في أي ثورة، خاصة في أمريكا اللاتينية، و أساسا في البلد الذي ولدت فيه، الأرجنتين، لقد كانت تتنفس الشيوعية داخل أسرتها، و قررت الدخول إلى الأرجنتين للالتحاق بالنضال السياسي وسط الحزب الشيوعي الأرجنتيني، وطن الولادة و النشأة.

في بيان كتبته في 4 فبراير 1958 تقول تمارا عن نفسها:

"في جمهورية ألمانيا الديموقراطية تربيت و تعلمت أن أفكر و أعمل كماركسية – لينينية، لهذا السبب، فإن الشيء الأكثر طبيعية بالنسبة لي، هو القتال طول حياتي، في هذا البلد أو ذاك، و في جميع الظروف في صفوف حزبنا الماركسي – اللينيني،

لهذا السبب دخلت كمرشحة في الحزب الاشتراكي الموحد الألماني، إن أعظم رغبة عندي هي العودة إلى الأرجنتين بلدي الأم، و أن أقدم للحزب كل قوايا، من الطبيعي أن أعود إلى بلدي بموافقة الحزب".

لقد كانت تمارا تعبر في مختلف الرسائل التي بعثتها لأصدقائها في الأرجنتين عن رغبتها في العودة إلى الأرجنتين، لقد كانت الأرجنتين تسكنها.

بفضل أصولها و دراستها، تتحدث تمارا عدة لغات : الألمانية و الاسبانية و الروسية و الإنجليزية و الإيطالية، و سرعان ما أصبحت مترجمة للمصلحة الدولية "للحزب الاشتراكي الموحد" في ألمانيا، و قد أدى بها عملها هذا إلى الالتقاء بالزوار من جميع أنحاء العالم، و في سنة 1960، ستقابل الثوري الأرجنتيني تشي غيفارا، الذي زار ألمانيا الشرقية مع الوفد التجاري الكوبي، هنا في برلين ولد رباط صداقة و هوية سياسية ثورية، فتركت تمارا، و هي المعجبة بالثورة الكوبية كل شيء في برلين، ففي سنة 1961 ستغادر ألمانيا و لم تعد إليها أبدا.

مستلهمة بالثورة الكوبية، انتقلت تمارا إلى كوبا، انخرطت في البداية كمتطوعة في الريف الكوبي لبناء المنازل والمدارس، عملت في العديد من المؤسسات الثقافية والجماهيرية، ك "المعهد الكوبي للصداقة بين الشعوب" و "اتحاد النساء الكوبيات"، وعملت في وزارة التعليم، وسرعان ما لوحظت كفاءتها وديناميتها وحسها العالي في خدمة الناس ليتم توظيف الشابة تمارة للمشاركة في حملة محو الأمية الكوبية. كانت تمارا تنشر طاقة هائلة من حولها أينما عملت، ولها رغبة كبيرة في العمل، إنها تبدأ في بناء حياة جديدة، لأنها ترى بالفعل أن كوبا قدمت لها ما كانت تحلم به: صنع ثورة، لقد حققت حلمها في الذهاب للعيش في كوبا، و كان هدفها القتال من أجل الثورة.

بالإضافة إلى مواهبها المتعددة كانت تمارا تتقن فن ربط علاقات صداقة، ومن بين صديقاتها كانت أنجيلا سوتو التي قالت عنها:

"لقد أصبحت تمارا بالنسبة لي من أفضل صديقاتي لتلك السنوات، عندما كان عمري 20، 22، 23 سنة، لقد كانت لطيفة و قوية أيضا، لقد كانت شخصية مركبة، لكن بالأساس كانت كاملة جدا، تخيل بالنسبة لنا نحن شباب 1961 كنا شبابا متمردين، اتحاديات، "اتحاد النساء الكوبيات"، و لجان الدفاع عن الثورة وتصل تمارا و تلتحق بنا، و تصبح مقاتلة، شابة متمردة، شابة شيوعية".

لقد عبرت تمارا لأليسا ألونسو، مديرة البالي الوطني الكوبي أنها تريد أن تذهب إلى كوبا، كوبا الثورية و العمل على انتصار الثورة.

أخيرا تم اختيار تمارا للخضوع لتكوين في إطار عملية "فانتاسما" بقيادة تشي غيفارا في بعثة "حرب العصابات" في بوليفيا. كان هدف غيفارا إطلاق انتفاضة ثورية على مستوى القارة في البلدان المتجاورة: الأرجنتين و الباراغواي و البرازيل و البيرو و الشيلي وذلك بخلق اثنين و ثلاثة و الكثير من "الفيتنامات" لتحدي الإمبريالية الأمريكية. استعدادا لذلك عهد غيفارا لتمارا بتدريب داريل ألاركون راميريز المعروف تحت اسم حرب "بنينيو" في بناردیل ريو في غرب كوبا.

لقد أراد غيفارا أن تتعلم تمارا الدفاع الذاتي، بما في ذلك استخدام السكين و المدفع الرشاش و المسدس، و كيفية إرسال و استقبال الإرسال التلغرافي و الرسائل المشفرة بالراديو، إنها الفترة التي أخذت فيها اسم "تانيا" كاسم للحرب.

تقول تمارا عندما كانت في كوبا

"نعم إنه وضع خطير للغاية ... لكن يمكنني أن أقول لكم مرة أخرى، أنه لا يوجد أكثر مجالا من أن أكون في خضم موقف حرج، حيث يكون النضال الثوري هو الأكثر صعوبة، كم من واحد يريد أن يكون هنا في كوبا للمساهمة في الدفاع عن الثورة الكوبية، أنا محظوظة لأنني قادرة على ذلك، و لهذا عدت إلى أمريكا اللاتينية، إذا كنت مهتمة بالعيش الرغيد، محاطة بكل وسائل الراحة، كنت سأبقى في برلين، حيث كان لدي كل شيء، ثورة أمريكا اللاتينية تتقدم بثبات إلى مستوى أعلى، و أنا محظوظة لأنني أستطيع أن أكون جزءا منها! ... الوطن أو الموت! سننتصر".

كتبت تمارا بونكي هذا في رسالة إلى والديها سنة 1962، عندما كانت متطوعة أممية في كوبا، في ذروة "أزمة الصواريخ" عندما تم تهديد الثورة بالموت من قبل القوى الإمبريالية، و مع ذلك، تعبر هذه الكلمات عن رؤية تمارا للعالم و الأخلاق الثورية، هي التي تركت الراحة في منزلها بألمانيا الشرقية لخدمة الثورة الكوبية.

من المسلم به أن التزام تمارا كمتطوعة في البرامج التعليمية و المليشيا في كوبا كان مثيرا للإعجاب، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك، عندما أصبحت مستعلمة ثورية و ممثلا رئيسيا و مقاتلة في الحملة العسكرية الأخيرة لتشي غيفارا، الذي استشهد في بوليفيا البعيدة.

خلال تكوينها في كوبا، و فيما بعد في مزرعة صغيرة في ضواحي براغ، أدهشت تمارا الكوبيين بذكائها و صلابتها و قدرتها على الاستعلام، لقد وصفها مثلا بنينيو أنها:

"محبوبة وجميلة و لطيفة ولكن أيضا صعبة للغاية".

لقد أصبحت تمارا أكثر ارتباطا بالكوبيين من خلال الترفيه عنهم في معسكر تدريبي، من خلال تشغيل الأغاني الشعبية الأرجنتينية بالأكورديون أو الغيتارة، اللذين كانت تتقن العزف عليهما. بالإضافة إلى ذلك، فكشخصية اجتماعية جدا، يمكنها بسهولة تكوين

صداقات، و أدرك غيفارا أنها تمتلك خصائص مفيدة لعملها المستقبلي في بوليفيا، لقد اعتبرت تمارا المرأة ذات المهمات الصعبة، لذلك كانت المرأة الوحيدة في صفوف مقاتلي القائد الثوري شي غيفارا.

في مارس 1964، شرح القائد غيفارا بنفسه لتمارا بونكي ماذا ستكون مهمتها في بوليفيا، فاستقبلها في مكتبه المحلي بوزارة الصناعة، ليقدم لها تفاصيل الخطة، التي يجب اتباعها، و منذ تلك اللحظة كان يجب على تمارا حماية التغطية على نفسها و ضمان تكوينها. كانت تمارا معتادة على الحد من صداقاتها، مما سمح لها بالتكيف بسهولة أكبر مع حياتها الجديدة، كان عليها أن تعتاد على الشعور بالوحدة و الابتعاد عن الأصدقاء، و تضليل البوليس، ليس فقط في كوبا، و لكن أيضا في أمريكا اللاتينية و حتى والديها.

2) في بوليفيا تستشهد الثورية الأممية التي جعل منها الشعب البوليفي أسطورة

في أكتوبر 1964، ستكون المحطة التالية لتمارا، إنها المحطة الرابعة بعد الأرجنتين و ألمانيا و كوبا، محطة بوليفيا، لقد انتقلت إليها تحت اسم جديد "لورا غويتريز باور"، كعنصر سري لحملة غيفارا الأخيرة، بمهمة خلق الظروف لتنظيم جبهة ثورية، و عندما كلفت بمهمة في بوليفيا تبنت اسم "تانيا" تكريما لفتاة روسية تدعى سويا، قاتلت النازيين تحت هذا الاسم المستعار، و تم القبض عليها و شنقها.

كانت مهمتها الأولى جمع المعلومات عن النخبة السياسية و العسكرية البوليفية، بربط علاقات مع كبار ضباط الجيش و أعضاء البورجوازية الحاكمة و السفر داخل البلاد و دراسة الأوضاع الاجتماعية فيها، و انتظار الاتصال، الذي من شأنه أن يعلن أن لحظة العمل قد حلت. في السابق، قبل حلولها ببوليفيا بوقت قصير، كان عليها أن تعيش لفترة من الوقت في جمهورية ألمانيا الاتحادية، لتتعلم عادات البورجوازية. في أحد الأيام، كانت على بعد 200 م من منزل والديها لكنها لم تستطع أن تودعهم، و لم

يكتشفوا ذلك إلا بعد موتها بفترة طويلة، ثم غادرت إلى أمريكا اللاتينية: البيرو، الأرجنتين، البرازيل و أخيرا بوليفيا التي وصلتها في 18 نونبر 1964.

و بحكم تخصصها في الإثنولوجيا و في الفولكلور الأرجنتيني، فقد استطاعت أن تتسرب في جميع المجالات الحكومية، كما قال الباحث و المؤرخ الكوبي فروبلان غونزاليس، الذي ألف مع زوجته عدة كتب حول حياة شي غيفارا "**كانت فتاة جذابة ذات كاريزما، و مثقفة، تتقن أربع لغات، تلعب الأكورديون و الغيتارة و متميزة في الرياضة البدنية**".

من وجهة نظر تكتيكية، كانت تمارا شخصا ثمينا لحرب العصابات، التي يقودها غيفارا، لأنها كانت تستعمل معدات راديو مخبأة في مقصورة خلف جدار شقتها، ليس فقط لإرسال رسائل مشفرة إلى هافانا، و لكن لمقاتلي غيفارا على الأرض، و مع ذلك، في أواخر 1966، أجبر عدم وثوقية العديد من رفاقها في الشبكة الحضرية، التي تم إنشاؤها لدعم مقاتلي تشي، تمارا على الذهاب إلى معسكرهم الريفي نيانكاهواثو عدة مرات، في إحدى هذه الرحلات قدم أحد الشيوعيين البوليفيين، اللذين تم أسرهم المنزل المحصن حيث كانت جيب تانيا متوقفة، المكان الذي تركت فيه دفتر عناوينها، و نتيجة لذلك، تم كشف غطائها، و لم يكن لها من خيار سوى الانضمام إلى حملة حرب العصابات المسلحة لغيفارا، و على هذا النحو كانت مسؤولة عن تقنين الغذاء و البث الإذاعي.

عندما بدأ وصول أول مجموعات المقاتلين، أصبح عمل تانيا أكثر تعقيدا و خطورة، لكنها ظلت خارج شكوك البوليس، كان يذكرها تشي دائما في مذكرته، و دائما بمناسبة الاتصالات المهمة، يحتفظ بها للمهام الثقيلة في لاباز و خارجها. عندما تم اكتشاف سيارتها الجيب، التي كانت متوقفة في المرآب سقطت تغطيتها، وكان عليها أن تبقى في الجماعات المسلحة. يعلق شي بعد ذلك في مذكراته "لقد ضاع عامان من العمل الجيد و الصبور" فيعطيها القائد غيفارا بندقية م 1 و تصبح تانيا مقاتلة منذ هذا التاريخ.

بدون تانيا كوسيلة اتصال بين الجماعة المسلحة و العالم الخارجي، فقد وجدت الجماعة المسلحة نفسها معزولة، و سرعان ما وجدت تانيا نفسها تعاني من ارتفاع في درجة حرارة جسمها، و إصابة في الساق، و تأثيرات مؤلمة لطفيلي بعوضة "شيغوي"، و نتيجة لذلك قرر غيفارا إرسال مجموعة من 16 مقاتلا مريضا آخرين، بمن فيهم تانيا خارج الجبال، لقد كان سلوكها القتالي نموذجيا مثل عملها السري، كانت مجموعة جواكين، التي كانت جزءا منها تقاوم طيلة الرحلة التي عاشتها ما بين مارس و 31 غشت، ويؤكد باكو أحد الناجين من المجموعة، أن موقفها كان مشجعا للجميع، فقد كانت تسير على الرغم من الجروح الرهيبة في قدمها، و كان قائد المجموعة، الذي أغلق المسير خلفها لحمايتها، يبحث عن مكان حيث يمكنها التعافي بصحبة مقاتل كوبي كان هو أيضا مريضا بشكل خطير.

خلال خمسة أشهر في بوليفيا، كان على تانيا أن تواجه حياة صعبة في أدغالها، حيث نقص الماء و الغذاء و الطقس السيء و عداء العدو المستمر.

في 31 غشت 1967، في الخامسة و عشرين دقيقة مساءا تعرضت مجموعة حرب العصابات، التي يقودها جواكين لكمين، نصبه حراس الجيش البوليفي بمساعدة وكالة المخابرات الأمريكية عندما كان يعبر نهر ريو غراندي في فادو ديل سيو، فحوصرت المجموعة، و كانت تانيا تحمل بندقية م 1 فوق رأسها، و لم يكن لها من الوقت للاستيلاء على السلاح، فأصابتها رصاصة في ذراعها و في صدرها، فتسقط ويجر التيار جسمها، لقد قتلت مع ثمانية مقاتلين آخرين، ثم نقلت جثتها في اتجاه مجرى النهر، و لم يتم العثور عليها إلا بواسطة الجيش البوليفي بعد بضعة أيام، يوم 6 شتنبر. عندما تم عرض جثتها، التي نالت منها سمكة البيزانا على بارينتوس، الرئيس البوليفي آنذاك كانت الخطة رميها في مقبرة لا تحمل علامات مع بقية المقاتلين (مقبرة جماعية)، إلا أن فلاحات المنطقة، طالبن بأن تحصل المرأة على دفن مسيحي مناسب، هكذا انطفأت شمعة الثورية الأممية، وردة ريو غراندي البيضاء (وجدت بقايا جثتها قرب صخرة مغطاة بالورد الأبيض).

في سنة 2001، تم إرسال جثة تانيا إلى كوبا، الوطن الذي تبناها، حيث دفنت بمراسيم تشريفية بحضور والدتها المسنة، و قد دفنت إلى جانب رفيقها أرنستو شي غيفارا القائد الثوري الأممي في سانتا كلارا المدينة التي حررها غيفارا خلال الحرب الثورية في كوبا، عندما دخل المدينة على رأس مجموعة مسلحة دخول الأبطال.

خاتمة

لقد دخلت تمارا – تانيا التاريخ المعاصر لكوبا و أمريكا اللاتينية، كواحدة من النساء الأكثر شجاعة، لقد حلمت تمارا و قاتلت من أجل عالم أفضل، و قد كانت منسجمة مع مبادئها إلى آخر أيام حياتها، كانت الثورة عملها الرئيسي و الإرث الذي تركته وراءها، و لم تقدم الأرجنتين، البلد الذي ولدت فيه و أحبته، و الذي لم تغادره إلا إكراها مع الإصرار على العودة إليه، لم يقدم بعد اعترافا تاريخيا لهذه المناضلة الشيوعية الأممية، التي أصبحت نموذجا للمرأة الثورية الصلبة، بالأخلاق الشيوعية كما يجب أن يكون كل شيوعي و كل شيوعية: التضحية، نكران الذات، الإصرار، العزيمة، الإرادة ...

في 1966 كانت تمارا قد كتبت في أحد أشعارها تقول متسائلة: **هل سيتم نسيان اسمي ذات يوم، و لا شيء مني يبقى على الأرض؟"**

في مقدمة لكتاب :**"تانيا، حرب العصابات التي لا تنسى"** يجيب صاحب الكتاب إينتي ببريدو :

"لقد ماتت بشكل بطولي من أجل حرية أمريكا اللاتينية، لكنها ستعيش دوما كنموذج لما يمكن أن تفعله امرأة شجاعة حقا وثورية!".

جميلة صابر (8 ـ 11 ـ 2019)

ليلى خالد

(فلسطين)

الأسطورة الفلسطينية الثائرة

**"أنا لست معادية للسامية، أنا معادية للصهيونية،
لن أقبل هذا الاحتلال أبدا، أرضي استعمرها أناس جاؤوا من مكان آخر، لذلك قررت في وقت مبكر للغاية حمل السلاح للدفاع عن أرضي".**

**"عندي قضية نبيلة، أكثر نبلا مني، قضية من جرائها،
يجب أن تكون في مرتبة ثانية كل المصالح والاهتمامات الخاصة".**

**"لا يمكن تقاسم الحرية أو تقسيمها،
لن يكون هناك سلام طالما يوجد صهيوني واحد على الأرض الفلسطينية".**

**"إن المرأة هي التي تعطي الحياة، إذن فهي التي لها القدرة على الدفاع عنها،
هي التي تعمل على استمرار البشرية، لهذا السبب فأنا فخورة أن أكون امرأة".**

من أقوال ليلى خالد

مقدمة:

ليلى خالد مناضلة "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين"، هي الثورية الفلسطينية التي لم تر طريقة أخرى لتذكير العالم بقضية الشعب الفلسطيني، و تنبيهه لصمته المخزي تجاه الشعب الفلسطيني المهجر و المقتل، سوى اختطاف الطائرات، و قد استطاع فعلها هذا حقا أن يجلب الأنظار لها كامرأة، و من تكون هذه المرأة، و ما هي القضية و الأسباب و الدوافع، التي جعلتها تقوم بذلك، و أصبحت صورتها تتداول في كل وسائل الإعلام، صورة لليلى خالد بكوفيتها الفلسطينية التي تلف رأسها و احتضانها للبندقية، تعبر عن اختيار ليلى و معها "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين" ذات التوجه الماركسي - اللينيني الثوري، الكفاح المسلح طريقا ثوريا لإنجاز التحرر الوطني على كامل أرض فلسطين التاريخية.

لفتت ليلى خالد نظر العالم حول دورها في تحويل الطائرة - رحلة AWT رقم 840 - سنة 1969، - والتي هدفت إلى التعريف باضطهاد الفلسطينيين من طرف الكيان الصهيوني- من روما إلى أثينا.

فمن تكون هذه المرأة الشجاعة؟ كيف تنظر لأسلوبها في الكفاح ضد الاحتلال الصهيوني لأرض فلسطين؟

1) ليلى خالد: المولد والنشأة وسياق "البندقية هي الحل":

ولدت ليلى خالد ابنة علي خالد وجميلة لطوف في مدينة حيفا بفلسطين، التي كانت جزءا من منطقة الانتداب البريطاني، وذلك في 9 أبريل 1944، أجبرت عائلتها على مغادرة حيفا مسقط رأسها بعد سقوط المدينة في أيدي قوات الاحتلال الصهيونية في 13 أبريل 1948 عندما كان عمرها أربع سنوات بالكاد، كان ذلك بعد أربعة أيام من عيد ميلادها، الذي لم يتم الاحتفال به أبدا بعد ذلك، وكان التاسع من أبريل، اليوم الذي يخيم فيه الحزن على فلسطين، حيث الذكرى الأولى لمذبحة "دير ياسين "[1].

لجأت عائلة ليلى خالد إلى لبنان سنة 1948 تاركة الوالد، أحد ضحايا الاحتلال الصهيوني، واستقرت العائلة في مدينة صور اللبنانية. درست ليلى خالد في مدارس الاتحاد الإنجيلي في صور، وأنهت دروسها الثانوية في مدرسة صيدا للبنات.

في سنة 1959، في سن 15 سنة، انضمت ليلى إلى حركة القوميين العرب، التي أنشأها جورج حبش في أواخر الأربعينات، وأصبح الفرع الفلسطيني لهذه الحركة يسمى "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين" بعد حرب الأيام الستة سنة 1967، وذلك في إطار التحولات التي عرفها اليسار العربي بعد هزيمة 5 يونيو 1967.

في سنة 1963، التحقت ليلى بالجامعة الأمريكية في بيروت، وانتخبت في اللجنة الإدارية للاتحاد العام لطلبة فلسطين في بيروت، وكان عليها أن تغادر الجامعة بعد عام من ولوجها، لأن أسرتها لا تستطيع دفع رسوم الجامعة.

[1] . **دير ياسين**: قرية فلسطينية توجد غرب القدس تعرضت في 9 أبريل سنة 1948 لمجزرة رهيبة على أيدي المنظمات الصهيونية الإرهابية المعروفة بأسماء "إرغون" و"شتيرن" و "ليهي" و "الهاجانة"، وقد ذهب ضحية المجزرة مآت الفلسطينيين من شيوخ وشباب وأطفال ونساء. وقد نقل بعض المراسلين من عين المكان صورا عن الفظائع التي ارتكبها الهمج الصهاينة ضد سكان قرية دير ياسين. ويحكي أحد المراسلين الصحفيين عما شاهده قائلا:" إنه شيء تأنف الوحوش نفسها ارتكابه. لقد أتوا بفتاة واغتصبوها بحضور أهلها، ثم انتهوا منها، وبدأوا بتعذيبها، بل وقطعوا نهديها ثم ألقوا بها في النار".

بين سنتي 1963 و1969، درست اللغة الإنجليزية في المدارس العامة بالكويت، وانضمت إل "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين" منذ تأسيسها في دجنبر 1967، ومن سنة 1969 إلى 1972، شاركت ليلى خالد في العمليات العسكرية الخارجية ل"الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين"، التي نظمها الدكتور وديع حداد[2].

في 29 غشت 1969، اختطفت هي ورفيقها سالم عيساوي طائرة تابعة لشركة AWT، وقد تم سجنهما في سوريا لمدة شهر ونصف، ثم أطلق سراحهما.

في 6 شتنبر 1970، كانت ليلى خالد واحدة من مختطفي طائرة العال الإسرائيلية، واحتجزت لمدة شهر في بريطانيا، عندما هبط الطيار في لندن، وقد قتل رفيقها الأمريكي، وأصله من نيكاراغوا على متن الطائرة على أيدي رجال الأمن الصهاينة.

بين سنتي 1973 و 1977، دافعت ليلى خالد عن مخيمات اللاجئين الفلسطينيين خلال الحرب الأهلية اللبنانية، إما كإطار في "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين" أو كعضو في الأمانة العامة للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية، ووقفت إلى جانب النازحين الفلسطينيين و الجرحى. تم انتخابها كعضو في أمانة الاتحاد النسائي في المؤتمر الثاني لتلك النقابة سنة 1974، بصفتها ناشطة نقابية.

---

[2] . **وديع حداد**: ولد وديع حداد في مدينة صفد الفلسطينية سنة 1927. وكان وديع يعرف بلقبه الحربي: أبو هاني وهو من رفاق جورج حبش الأوائل منذ تأسيس "حركة القوميين العرب"، وساهم في تحويل الفرع الفلسطيني للحركة إلى "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين". ويعرف وديع حداد بكونه كان القائد الفعلي ل " الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، العمليات الخارجية" (أطلق عليها كذلك "مجموعة العمليات العسكرية الخارجية"، أو "مجموعة العمليات الخاصة") التابعة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

كانت المخابرات الصهيونية والامبريالية تعتبره "الخطر الأمني" رقم واحد. كان وديع حداد يمتلك، إضافة إلى قدرات قيادية كبيرة وذكاء باهر، عقلا استراتيجيا هائلا جعل كل مخابرات العالم تهابه. إنه صاحب شعار" وراء العدو في كل مكان"، وتحت قيادته اشتغلت ليلى خالد كمقاتلة في الصفوف الأمامية للثورة الفلسطينية.

توفي وديع حداد في 28 مارس 1978 في ألمانيا الدمقراطية نتيجة تسميمه من طرف المخابرات الصهيونية.

شاركت ليلى خالد في العديد من المؤتمرات الدولية و الإقليمية و المحلية، و في العديد من ورشات العمل المخصصة لشؤون المرأة، ساعدت أيضا سنة 1978 في تأسيس "دار أطفال الصمود" لرعاية أطفال شهداء مخيم "تل الزعتر" للاجئين شمال بيروت، عندما سقط في أيدي القوات اليمينية (المجموعات الفاشية المسلحة التابعة لحزب الكتائب) خلال الحرب الأهلية اللبنانية.

بين عامي 1978 و 1980، درست ليلى خالد في جامعتي موسكو و روسطوف، لكنها توقفت عن دراستها عندما استدعت "منظمة التحرير الفلسطينية" جميع طلبة الجامعة في الخارج للمساعدة في الدفاع عن الثورة الفلسطينية.

في 1979، أصبحت ليلى عضوا في المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الرابعة عشرة في دمشق، و استمرت في عضويتها في المجلس، و بهذه الصفة كانت جزءا من العديد من الوفود البرلمانية الفلسطينية، و كانت عضوا في لجنة المرأة العربية في الاتحاد البرلماني العربي.

عندما غزا الكيان الصهيوني لبنان في صيف 1982، حاولت ليلى خالد (من خلال الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية) إيجاد مأوى للنازحين ومعالجة الجرحى في المستشفيات.

بعد الخروج من لبنان سنة 1982، أعيد تنظيم "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين"، و شغلت ليلى خالد مناصب إدارية و قيادية مختلفة. و في سنة 1986، تم إنشاء "منظمة المرأة الفلسطينية"، لتكون بمثابة إطار عام ل "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين"، و تم انتخاب ليلى خالد سكرتيرة أولى.

في سنة 1993، تم انتخابها لعضوية اللجنة المركزية ل "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين" في مؤتمرها الوطني الخامس، و في سنة 2005، و بعد هذا المسار الطويل تم انتخابها لعضوية المكتب السياسي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

في سنة 1997، رحلت هي و عائلتها إلى عمان عاصمة الأردن، حيث استقرت هناك إلى اليوم.

مستوحية تجاربها الشخصية في النفي القسري من مسقط رأسها و معاناة والديها و شعبها، ذهبت ليلى خالد بكفاح النساء الفلسطينيات في اتجاهات جديدة و غير مسبوقة، لقد قدمت مساهمة كبيرة في المجالات الاجتماعية و الإنسانية و السياسية

و في خدمة قضيتها، قضية فلسطين، و في الدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني في التحرر و الانعتاق من ربقة الاحتلال الصهيوني لأرض فلسطين.

2) المسار الثوري لليلى خالد : امرأة و قضية :

بدأت ليلى خالد التزامها السياسي، و عمرها 15 سنة، فالمناضلة الثورية و هي في سن صغيرة، ترفض احتلال فلسطين من طرف الصهاينة، و تشرح ذلك بقولها:

"أنا لست معادية للسامية، أنا معادية للصهيونية، لن أقبل هذا الاحتلال أبدا، أرضي استعمرها أناس جاؤوا من مكان آخر، لذلك قررت في وقت مبكر للغاية حمل السلاح للدفاع عن أرضي."

كانت ليلى في سن 15 من أوائل من انضموا إلى حركة القوميين العرب، التي بدأت في أواخر سنوات الأربعينات مع جورج حبش، عندما كان ما زال طالبا في الطب في الجامعة الأمريكية ببيروت.

إن معركة ليلى من أجل فلسطين ليست بسبب ارتباط قديم ببلدها، فوالداها ليس فلسطينيين بل لبنانيين، بل كان حب العدالة هو ما يحفزها. مثل غسان كنفاني، عرفت هي أيضا انعطافا في شبابها، عندما فهمت وضعيتها فجأة، في رسالة جميلة و مؤلمة موجهة لابنه، يصف كنفاني اللحظة التي تفهم فيها وضعيته مباشرة بعد لحظة "العار من الفرار"، عندما رأى و هو في العاشرة من عمره رجال أسرته يسلمون أسلحتهم ليتحولوا إلى لاجئين، إذ يكتب **"لا تصدق أن الرجل يكبر، لا، لقد جاء إلى العالم فجأة، كلمة، في لحظة معينة، تدخل قلبه و تعطيه قوة دفع جديدة، مشهد واحد، يمكن أن يجعله يسقط من سقف الطفولة على صلابة الطريق".**

في سيرتها الذاتية تحت عنوان "سيعيش شعبي"، تروي ليلى تجربة مماثلة، عندما ذهبت لجمع البرتقال في بستان مجاور، عندما وصلت إلى لبنان، و ما زالت تعتقد أنه كان برتقالها، فعلت ذلك ببراءة الأطفال، لكن كان لذلك الحادث ما بعده. قالت لها والدتها : **"عزيزتي هذه الثمار ليست لنا، أنت لم تعودي في حيفا، أنت في بلد آخر"**، قبل أن تهرع إلى المنزل لتمسح

دموعها و تخفي خجلها، نظرت إليها بحزم الأم قائلة : "**من الآن فصاعدا يحظر عليك أكل البرتقال، الذي ليس لك**"، في إشارة القبول مثل الأطفال، أومأت بنعم، "**لكن كلماتها لا تزال تتردد في رأسي، لأول مرة بدأت أتساءل عن ظلم المنفى**"، تقول ليلى.
في منزل الأسرة، تتلقى ليلى خبر هزم إسرائيل لجيوش مصر و الأردن و سوريا مجتمعة، في حرب الأيام الستة، مهينة، عسكريا، العالم العربي، و استولت على الأراضي الفلسطينية المتبقية، غرب الأردن و شمال سيناء.
كان الفلسطينيون من الضفة الغربية و غزة، بمن فيهم الآلاف من اللاجئين يعيشون في ظل النظام الأردني و المصري، منذ تأسيس الكيان الصهيوني سنة 1948، و كلهم أصبحوا الآن عرضة للاحتلال العسكري الصهيوني، و على الرغم من ذلك، كان اهتمام العالم بالفلسطينيين في حده الأدنى. كان سخط الفلسطينيين في مخيمات اللاجئين في الأردن و لبنان و سوريا يتصاعد، و أصبحت حركة المقاومة، التي تطورت منذ منتصف الستينات من القرن الماضي أكثر ثورية و أكثر شعبية، بسبب هزيمة الأنظمة العربية المدوية في حرب الأيام الستة، و تنامي الشكوك لدى الفلسطينيين من الدعم الأجوف لبعض الأنظمة العربية.

كان من الصعب فصل حركة المقاومة الفلسطينية عن اللحظة و الأجواء التاريخية التي نشأت فيها، فبعد فترة وجيزة من حرب الستة أيام، و كأنها طائر الفينق انبعث من الرماد، و حفز أمة مهانة بأكملها من انهيار المجتمع و الجيوش العربية، فخلال انبهار البدايات الأولى حصدت المقاومة مجموعة من الأبطال من بين مجموعة واسعة من الرأي العام العربي، و قد أدى الأمر حتى بقوميي الصالونات إلى تسمية الفدائيين ب "الملائكة" و "المنقذين". هذا النوع من الدعم سرعان ما أثبت أهميته، لكن لفترة من الوقت، كان يضغط على بعض الأنظمة العربية لدعم حركة المقاومة الفلسطينية، من خلال وضع نفسها بشكل مباشر في سياق كفاح "العالم الثالث" ضد هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية الاقتصادية و السياسية، لقد أعادت حركة المقاومة الفلسطينية إحياء العناصر الجذرية في العالم العربي.

في سنة 1967، في سن 23 سنة، ذهبت ليلى خالد إلى الأردن للتدريب مع "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين"، لقد كانت ليلى خالد مناضلة ذكية، حصيفة و مثقفة، و هي على استعداد لفعل أي شيء للقتال ضد الكيان الصهيوني، إنها تذهب إلى الحد الأقصى، إنها المقاتلة المجتهدة و المخلصة لقيادة إحدى العمليات الرئيسية للحركة.

تقول ليلى خالد:

"لقد اختارت القيادة أكثر المقاتلين التزاما للعمليات الحساسة، قفزت إلى السقف عندما قيل لي أن علي اختطاف طائرة 840 لشركة AWT على طريق لوس أنجلس – تل أبيب، كان هدفنا إجبار الكيان الصهيوني على إطلاق سراح سجنائنا، بنفس المناسبة، أعترف بذلك، هذا إشهار ل "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين".

تقول ليلى و هي متحمسة، بالنسبة لها، هي لا تخشى الموت.

"التضحية من أجل الوطن الأم تتجاوز الحياة أو الموت، و إذا كان هذا هو قدري فليكن".

في سن 28 كانت ليلى خالد قد حولت اتجاه طائرتين، و احتجزت عشرات الركاب رهائن، و قد تم نشر صورتها على غلاف العديد من المجلات الإخبارية، و ألصقت صورة وجهها على جدران المهاجع الطلابية، لقد أصبحت ظاهرة شعبية، و مصدر إلهام لشخصيات تعمل في مجال التلفزيون و السينما.

في يوم 29 غشت 1969، انطلق سليم عيساوي و ليلى خالد من محطة توقف بروما، لقد تم التخطيط للعملية بشكل دقيق قبل عدة أسابيع، مسلحة بمسدس 6 مم و قنبلة يدوية، تقوم ليلى بتهديد الطاقم، الذي فتح لها قمرة القيادة، جلست إلى جانب القبطان و أعلنت دوافعها للركاب و لمراكز المراقبة، و طلبت من الركاب عدم الذعر قائلة:

"لا تخافوا، لا تذعروا، لن يحدث لكم أي شيء، نحن لسنا هنا لإلحاق الأذى بكم، و لكن لضمان إطلاق سراح سجنائنا الفلسطينيين المحتجزين تعسفا من طرف إسرائيل، ستعودون بأمان إلى منازلكم، لا تخافوا".

في غضون ذلك، و لكي تبدو جادة، عرضت أمام قبطان الطائرة قنبلة يدوية، و تمكنت من إقناعه بعدم عرقلة العملية، ثم طلبت الطيران فوق حيفا مسقط رأسها، و قبل القبطان بالطبع طلبها، تقول ليلى: **"قمنا بتحويل الطريق فوق مدينتي، كنت مندهشة جدا"**.

رفض مشغل نقطة تفتيش مطار تل أبيب ذكر اسم الحركة، التي باسمها تقوم ليلى بهذه العملية، فتغضب و تهدد بالهبوط بالطائرة في تل أبيب، فامتثل للأمر في النهاية، أمرت ليلى بتكرار ذلك ثلاث مرات بذريعة أنه يتكلم بصوت منخفض، و ذلك استفزازا و تحديا.

هبطت الطائرة في دمشق و نزل الركاب و فجرت ليلى قمرة القيادة بقنبلة يدوية، و قد تم اعتقالها من طرف السلطات السورية.

شمل مطلب الإفراج عن الأسرى طياران سوريان تم أسرهما سنة 1967، مما شجع السوريين على التساهل، و بعد 45 يوما من الاحتجاز تم إطلاق سراح ليلى و من معها من المختطفين و الالتحاق بالأردن.

لا أحد كان يظن أن مشاركة ليلى كانت ستقف عند هذا الحد، فبمجرد إطلاق سراحها، فكرت الفتاة الثورية البالغة 26 سنة في القيام بعملية جديدة. أكسبت أول عملية لليلى سمعة سيئة عند الغرب، و هو أمر عادي جدا باعتبار أن ما قامت به ليلى حسب هذا الرأي هو فعل إرهابي، لكن الشعوب المضطهدة اعتبرتها بطلة و أيقونة النضال الثوري، مثلها في ذلك مثل تمارا بونكي و أولرايك ماينهوف و أخريات من النساء الثوريات. لم تكن ليلى محبطة، فقد وجد رؤساؤها الحل في تغيير ملامح وجهها، فبعد عملية الاختطاف الأولى، التي اهتمت بها جميع وسائل الإعلام في العالم، خضعت ليلى لست جراحات تجميل على أنفها و ذقنها لإخفاء هويتها، و السماح لها بالمشاركة في عملية اختطاف في المستقبل، فليلى خالد لا تريد أن تحمل وجه أيقونة، فهي ترى أن كل شيء ممكن في سبيل قضية عادلة : قضية شعبها، قضية فلسطين .

في يوم 6 شتنبر 1970، ستعيد ليلى الكرة برفقة أحد الأمريكيين، و أصله من نيكاراغوا، باتريك أرغيلو، بتحويل الرحلة الإسرائيلية العال 219 من أمستردام إلى نيويورك. استغرقت العملية و قتا قصيرا، فقد تم إحباط الهجوم عندما قام حراس الطيران الصهاينة بقتل رفيقها أورغيلو، و من شل حركة ليلى، رغم أنها كانت تحمل قنبلتين في ذلك الحين، إلا أن ليلى تلقت تعليمات صارمة

للغاية بعدم تهديد حياة ركاب الرحلة المدنية، حول الطيار اتجاه الطائرة نحو مطار هيثرو في لندن، حيث تم تسليم ليلى إلى مركز شرطة إيلينغ، و قد تعاطف معها سجاناها، و بسرعة ربطت علاقات صداقة بين المناضلة و حراسها، و بعد 28 يوما من الاحتجاز، في 1 أكتوبر أطلقت الحكومة البريطانية سراحها في تبادل للأسرى، و في السنة الموالية تخلت "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين" عن أسلوب الاختطاف، رغم أن الحركات المنشقة عن المنظمة استمرت في اختطاف الطائرات.
في حادثتي اختطاف مذهلة، تتلقى ليلى فقط ما مجموعه ثلاثة أشهر من السجن، بل على العكس، خرجت بحال جيدة و معنويات مرتفعة.
عندما يقولون لليلى أن حياتها تذكر بحلقة من حلقات جيمس بوند، فإنها ترد بأن التزامها لا يمت بصلة بفيلم، و أن جميع الوسائل كانت جيدة لتحقيق غاياتها النبيلة، و تقول ليلى:

"ما الذي دفع شخصا لعبور نصف الكرة الأرضية إلى فلسطين للقيام بهذه المهمة الخطيرة؟ كان باتريك شيوعيا ثوريا، كان تصرفه الشجاع بمثابة بادرة للتضامن الأممي، إنها شعلة الحياة انطفأت، لقد أضاءت الطريق نحو العودة إلى فلسطين ... عاش اورغيلو، عاش شعبي، و عاشت الثورة".

بالنسبة لليلى خالد، كانت أحداث 1970 [3]، تعني أن صورتها انضمت إلى صورة تشي غيفارا، إلى الآلاف من جدران اليساريين، و أنها أصبحت بالنسبة للكثيرين نموذج المرأة الثورية.
تقول ليلى :

"عندي قضية نبيلة، أكثر نبلا مني، قضية من جرائها، يجب أن تكون في مرتبة ثانية كل المصالح و الاهتمامات الخاصة".

---

[3]. **أحداث** 1970: المقصود بأحداث 1970 تلك المحاولات التي قامت بها الرجعية العربية (النظام الأردني خصوصا بدعم من السعودية) والإمبريالية الأمريكية من أجل تصفية المقاومة الفلسطينية التي كانت قواعدها العسكرية تتمتع بوجود علني في الأردن. وقد انتهت تلك المؤامرات التي كانت تحبك تحت غطاء دبلوماسي (مخطط روجرس....) إلى تصفية الوجود الفلسطيني المسلح بالأردن، وهو ما يعرف ب " أيلول الأسود" حيث ارتكبت أبشع المجازر في حق المقاومة الفلسطينية.

تذكر مثل هذه الخطابات الثورية، بأن ليلى خالد تنتمي إلى عصر مختلف تماما : في وقت كانت فيه عملية الاختطاف أداة أساسية في تلك المرحلة، حيث كان الالتزام و المخاطر الشديدة و التضحيات تثير الإعجاب، هي دبوس النضال المسلح، مثل بطلها تشي غيفارا، كان لدى ليلى السحر و كذلك الإيمان، و كان لديها ازدراء مؤكد لزملائها الثوريين الغربيين، فكما تقول :

"لقد وجدنا أنه من الممتع للغاية أنهم كانوا يعتقدون بصدق أنهم يقومون ب "ثورة" إذا خلعوا ملابسهم علنا و استولوا على مبنى جامعة، أو صرخوا فاحشة على البيروقراطيين".

إن ليلى خالد أيقونة تحرير فلسطين، تمثل الالتزام الثابت للمرأة الفلسطينية بالعودة إلى ديارها، هي قصة امرأة فلسطينية ولدت في حيفا بفلسطين، تبدأ جذورها عندما أجبرت عائلتها على الفرار من منزلها بحيفا، و كذلك الآلاف من الفلسطينيين أثناء نضالهم للحفاظ على منازلهم و أرضهم و حياتهم في ظل الاحتلال الصهيوني، عهد الإرهاب الصهيوني، الذي تأجج و ازداد فاشية مع نشوء الكيان الصهيوني سنة 1948، و نتج عن ذلك إلى يومنا هذا إنكار حق العودة لليلى خالد و الشعب الفلسطيني إلى أراضي فلسطين 1948.

خلاصة

فيما قامت به ليلى خالد من أعمال، فقد تأثرت بهذه القوى الثورية، التي تمور في العالم، لقد رفضت الظلم، و طالبت بالحق في العيش بسلام على أرضها، و كما تقول :

"يجب استعمال العنف ضد المحتل العنيف".

و تضيف قائلة:

"لقد حاولت إسرائيل مرارا أن تمحو وجود المخيمات كما لو أنها أرادت أن تجعل الناس ينسون وجود الفلسطينيين، و بالمثل في فلسطين المحتلة. تم تدمير 540 قرية فلسطينية، لجأ الفلسطينيون المقيمون في بيرام و إكريت إلى المحكمة العليا الإسرائيلية، التي حكمت لصالحهم، لكن "الحكومة الإسرائيلية" ترفض تطبيق الأحكام القضائية "لبلدها"، إنه أمر مجنون".

"لا يمكن تقاسم الحرية أو تقسيمها، لن يكون هناك سلام طالما يوجد صهيوني واحد على الأرض الفلسطينية".

عندما ظهرت ليلى على وسائل الإعلام الدولية تم وصفها بالمرأة الجذابة و الجميلة، اختطفت طائرتي ركاب لجذب انتباه العالم إلى القضية الفلسطينية. تقول ليلى في تعبير على أن الثورة تعني أيضا الحياة كباقي جوانب الحياة:

"لقد تعلمت أن المرأة يمكن أن تكون مقاتلة، مقاتلة من أجل الحرية ... و أنها يمكن أن تقع في الحب و أن تحب، يمكن أن تكون متزوجة، لديها أطفال، تكون أما ... الثورة أيضا يجب أن تعني الحياة كل جانب من جوانب الحياة".

و تضيف:

"إن المرأة هي التي تعطي الحياة، إذن فهي التي لها القدرة على الدفاع عنها، هي التي تعمل على استمرار البشرية، لهذا السبب فأنا فخورة أن أكون امرأة".

لم تندم ليلى خالد على أي من اختياراتها، ففي نظرها فكل ما فعلته هو صحيح و مبرر، و غالبا ما تقتبس من تشي غيفارا لتأكيد أقوالها، لكنها ليست في حاجة ل "حرب العصابات" لمساعدتها على عقلنة أفعالها، فحتى غاندي حمامة البعض المختارة، قال :

"حينما لا يوجد خيار سوى بين الجبن و العنف فإنني أوصي بالعنف".

بالنسبة لليلى، فإن دور اللاجئ هو "موضوع ازدراء" و "مهين"، بين خيارين مفروضين، خيار المشي بنظرة خضوع لتسول بطانية و بطاقة تموين، و خيار الاستيلاء على الكلاشينكوف، اختارت الخيار الثاني، و توضح، عمليات الاختطافات كانت تكتيكا، لفترة قصيرة، فقط لجذب انتباه العالم، و لكي يتساءل الناس عن السبب، و يبدو أن هذا قد نجح، فحتى مضيفة أول طائرة اختطفتها ليلى، كانت قد قالت أمام الكاميرات:

"وحتى مع وجود الأشياء على ما هي عليه، لا يزال من العار أن الفلسطينيين ليس لديهم وطن".

حدث أن طرح على ليلى خالد سؤال : **"هل تظنين أنكم ستربحون الحرب بهذه الطريقة ؟** " أي ب "الإرهاب" و اختطاف الطائرات، فأجابت:

"في الفيتنام فإن الفقراء انتصروا على الأمريكيين".

و تضيف قائلة :

" و ماذا بعد، هناك معادلة أساسية: هناك حيث يوجد احتلال، هناك مقاومة، لا أحد يستطيع تغيير ذلك، إنه أساسي، إنه طبيعي، لا يمكن تغيير الشمس و جعلها تشرق من الغرب، إنها الحقيقة، إنه أمر طبيعي عندما تعيش تحت القمع فإنك تقاوم".

جميلة صابر

2019 – 11 – 21

أولرايك ماينهوف

(ألمانيا)

المناضلة الثائرة و القائدة المنظرة و الشهيدة الثورية

تقديم :

حلت يوم 7 أكتوبر 2019، الذكرى 43 على اغتيال الشهيدة المناضلة الثورية الألمانية "**أولرايك ماينهوف**" (Ulrike Meinhof) التي تميز مسارها النضالي بمساهمات متعددة في المجال الصحافي والفني (كاتبة سيناريو) و السياسي و الفكري، و شكلت مع "أندرياس بادر" الثنائي الثوري القيادي الأكثر شهرة ل "الراف" (RAF) ("فصيل الجيش الأحمر")، الذي لعب دورا بارزا في قيادة التنظيم المسلح، إلى جانب مناضلات و مناضلين آخرين، ساهموا في العديد من العمليات المسلحة ضد مؤسسات الدولة الإمبريالية الألمانية و ضد القواعد العسكرية و الاقتصادية للإمبريالية الأمريكية في ألمانيا، و قد كانا ثنائيا متكاملا بحيث اتسمت "أولرايك" بمساهماتها النظرية، التي كانت تقدم البناء النظري للتنظيم الثوري، بينما تميز رفيقها "أندرياس بادر" بقدراته الكبيرة في مجال القيادة العملية للحركة و التنظيم الثوري، دون نسيان أنه كان من الأوائل الذين نظروا للعنف الثوري في ألمانيا آنذاك.

و على نهج أسلافها الثوريين الماركسيين الألمان، كانت "أولرايك ماينهوف" أممية حتى النخاع، تساند كل القضايا العادلة للشعوب و الأمم المضطهدة، و قد حضي الشعب الفلسطيني لديها و لدى رفاقها الثوريين باهتمام خاص، حيث كانت تجمع "الراف" علاقة قوية بالتنظيمات اليسارية الفلسطينية، خاصة "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين"، التي ساهمت في تكوين الكوادر العسكرية الأولى للتنظيم الثوري الألماني في كل من الأردن و غزة (شارك في هذه الدورة التكوينية العسكرية كل من "هورست ماهلر"، "أندرياس بادر"، "غودرون إينسلين"، "أولرايك ماينهوف"، "بيتر هومان"، "برجيت اسدونغ"، و قد شارك جزء من المجموعة في عمليات مسلحة ل "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين").

كانت ألمانيا الفدرالية خلال سنوات الستينات من القرن الماضي، خاضعة في المجال السياسي لنفوذ حزبين سياسيين كبيرين، هما الحزب الاجتماعي الديموقراطي و الحزب الديموقراطي المسيحي، اللذان لوحدهما كانا يمثلان ما يقارب 90% من مقاعد البرلمان، مشكلين ما كان يسمى ب "الائتلاف الكبير"، بينما كان يمنع منعا كليا كل نشاط لحزب شيوعي، مما جعل البعض يرى أن الحياة السياسية في ألمانيا قد تم إقفالها.

و ظهرت المعارضة من خارج البرلمان، خاصة داخل الحركة الطلابية الألمانية، التي عرفت أوجها ابتداء من 1966، حيث بدأت مئات الآلاف من الطلبة تخرج إلى التظاهر، ضد جرائم الحرب الإمبريالية الأمريكية في الفيتنام، لكن الولادة الحقيقية لهذه المعارضة ستتم

في 2 يونيو 1967 عندما خرجت الجماهير الطلابية في تظاهرات عارمة ضد زيارة شاه إيران لألمانيا، و خلال هذه المظاهرات قتل "بينو أوهنيسورغ".

في أوج المظاهرات الطلابية، التي كانت تعرف تصاعدا، قام مجموعة من المناضلين، الذين سيعملون على تأسيس "الراف" لاحقا، بإشعال النيران في المتاجر عن طريق قنابل حارقة، و سيتم اعتقالهم بعد يومين على ذلك، و سيقدمون إلى المحاكمة، و هؤلاء هم : "أندرياس بادر"، "غودرون إنسلين"، "ثرولد برول" و "هورست شهنلاين"، و خلال محاكمتهم، سيعلنون عن مسؤوليتهم عن الحريق، باعتباره أسلوبا للاحتجاج ضد اللامبالاة اتجاه الإبادة التي يتعرض لها الشعب الفيتنامي، و قامت رئيسة تحرير المجلة اليسارية الشهيرة "كونكريت"، "أولرايك ماينهوف" بالدفاع عنهم. و في سياق عام اتسم بحملات واسعة من طرف الجرائد الألمانية ضد اليسار الثوري، قام أحد الفاشيين يوم 11 أبريل 1968، باغتيال الزعيم الطلابي الثوري "رودي دوتشكي"، فاشتعلت الحركة الطلابية، و اتسعت دائرة التعبئة النضالية، و احتل الطلبة أغلب الجامعات الألمانية، و دارت معارك كبيرة بين الحركة الطلابية و الأجهزة القمعية للنظام الحاكم، و انتهت المعارك باعتقال 1000 طالب ألماني، و مئات الجرحى و قتيلين، و قد عرف الوضع أوجه عندما صادق البرلمان الألماني على قوانين الطوارئ الاستثنائي لمواجهة الوضع.

و في يوم 14 ماي 1970، قامت مجموعة مسلحة بتحرير "أندرياس بادر" من السجن، و قامت نفس المجموعة بتوجيه رسالة إلى مجلة "883"، حيث جاء في آخرها الدعوة إلى : "تطوير الصراعات الطبقية، تنظيم البروليتاريا، البدء، عن طريق المقاومة المسلحة، في بناء الجيش الأحمر".

هكذا، شكل يوم 14 ماي 1970، تاريخ تأسيس "فصيل الجيش الأحمر" (الراف).

وقد تميز النشاط العسكري المسلح للتنظيم الألماني خلال السبعينات بمهاجمة القواعد العسكرية الأمريكية في ألمانيا، و من الأمثلة الشهيرة على ذلك، التي تدخل في إطار التضامن مع نضال الشعب الفيتنامي، مهاجمة التنظيم للحاسوب المركزي العسكري للولايات المتحدة في مدينة "هيدلبورغ"، الذي كان يقوم بتخطيط كل أعمال الهجوم و القنبلة ضد الشعب الفيتنامي، و لم تترك عمليات التنظيم الثوري أجهزة النظام الألماني البوليسية و غيرها تنعم في سلام، بل كانت هي الأخرى محط هجوماتها المتتالية.

تنتمي "أولرايك ماينهوف" إلى الجيل الأوربي الثوري في نهاية الستينات و بداية السبعينات من القرن الماضي، الذي يئس من الخطوط التحريفية الإصلاحية للأحزاب الشيوعية في أوربا الغربية و غيرها، فخرج يبحث عن الطريق المؤدية إلى الثورة، و إلى التضامن مع حركات التحرر الوطني و الشعوب و الأمم المقهورة.

هكذا ظهرت إلى الوجود أسماء منظمات ثورية جديدة تحمل أسماء مختلفة مثل "الألوية الحمراء" و "الخط الأمامي" بإيطاليا، و "اليسار البروليتاري" و "العمل المباشر" بفرنسا، و "الخلايا الشيوعية المكافحة" ببلجيكا، "الفهود السوداء" بأمريكا، و حركات كثيرة في أمريكا اللاتينية من قبيل "حركة التحرر الوطني: "توباماروس" بالأروغواي، و "جيش التحرير الوطني" بالبرازيل، و "حركة توباك أمارو" بالبيرو، و "الجبهة الشعبية لتحرير

فلسطين" و "الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين" ...، إضافة إلى التنظيمات الثورية القائمة من قبيل "الجيش الجمهوري السري الإيرلندي" (إيرا)، و "حركة إيتا" بمنطقة الباسك بإسبانيا و غيرها.

كان العالم في زمن "أولرايك" يمور بالحركات الثورية المتنوعة في خطوطها الإيديولوجية و السياسية و الاستراتيجية، رغم أن الاتحاد السوفياتي آنذاك كان يرزح تحت قيادة تحريفية، لكن إسهامات الثورة في الصين و ألبانيا و الفيتنام كانت تؤجج النضالات الثورية في الدول الرأسمالية الإمبريالية، و لدى حركات التحرر الوطني في القارات الثلاث، و كان الشباب الثوري ينهل من كتابات ماركس و انجلز و لينين و هو شي منه و ماو تسي تونغ و جيفارا ، و من الإرث الثوري للحركة الشيوعية العالمية، رغم أن استيعاب هذا الإرث كان متفاوتا لدى هذه المجموعة الثورية أو تلك، و رغم أن الثورة الثقافية البروليتارية الصينية قد انتصبت كقلعة شامخة في مواجهة التحريفية العالمية بقيادة الاتحاد السوفياتي، و رغم دروسها، فقد ظل الخط الثوري لدى العديد من المنظمات الثورية ملتبسا غير قادر على وضع خط فاصل بين الماركسية – اللينينية و التحريفية، بين خط الثورة البروليتارية العالمية و خط التحريفية العالمية، و رغم هذه الحدود التي اتصفت بها الحركات الثورية خاصة في أوربا، فلا يمكن الاستهانة بهؤلاء وأولئك من الثوريين و الثوريات، الذين حاولوا أن يلقوا بالخطوط التحريفية أرضا، و تجرأوا على البحث عن الطريق الثوري، فسقط منهم الكثير من الشهداء و الشهيدات، من بينهم "كارلوس مارغييلا" و "إرنستو شي جيفارا" و "أندرياس بادر" و "تمارا بونكي" و "أولرايك ما ينهوف" و كثير غيرهم.

إن "أولرايك ماينهوف" تنتمي لهذا الجيل الثوري، بانتصاراته و إخفاقاته، و حدودها هي حدود هذا الجيل، فرغم أنها كانت متأثرة بأفكار ماو تسي تونغ، إلا أنها لم تستوعب دروس الثورة الثقافية البروليتارية الصينية، فخاضت معركتها ضد الامبريالية

الأمريكية، باعتبارها نضالا على الصعيد العالمي مستمرا إلى حدود الانتصار، و لم تدرك أهمية النضال من داخل القلعة الإمبريالية الألمانية، و بذلك غاب عن ذهنها و ذهن رفاقها فكرة بناء الحزب الثوري الشيوعي الماركسي – اللينيني في زمن مناهضة الإمبريالية و التحريفية العالمية.

في 15 يونيو 1972، اعتقلت الأجهزة القمعية الألمانية عن طريق وشاية، المناضلة الثورية "أولرايك ما ينهوف"، و وضعت في سجن "ستامهير" السيئ الذكر، و الذي كان يخضع لإجراءات أمنية قصوى، و وضعت "أولرايك" في زنزانة انفرادية، حيث خضعت لأبشع تقنيات التعذيب المسماة : "التعذيب الأبيض"، حيث يخضع المعتقل إلى أقصى درجات العزلة لدفعه إلى الجنون و الانتحار، و قد تحدثت "أولرايك" في رسائلها من السجن عن هذه التجربة المريرة، التي خضعت لها فيما يسمى ب "ممرات الموت" (انظر رسائلها من السجن)، و في 9 ماي 1976 اغتالت أجهزة القمع الألمانية الرفيقة "أولرايك ماينهوف"، وأعادت سنة 1977 الكرة، فاغتالت رفيقها "أندرياس بادر" في التنظيم الثوري.

إن الحديث عن "أولرايك ماينهوف" و غيرها من الثوريات اللواتي سبق الحديث عنهن في هذه السلسلة من البيوغرافيات، الهدف منه هو التعريف بنساء ثوريات حملن على عاتقهن، في مراحل و سياقات مختلفة مسؤولية النضال الثوري، و في نفس الوقت، نشر ثقافة النضال الثوري النسائي و شحذ همم النساء خاصة الشابات منهن، من أجل النهوض بأعباء النضال الثوري الجديد، علما أن تحرر النساء من صنع النساء، و في نفس الوقت هو مسؤولية ملقاة على كاهل الماركسيين – اللينينيين الثوريين و الماركسيات – اللينينيات الثوريات على حد سواء، فلا عذر للمنسحبين من جبهة النضال هاته، و لا مكان لأنصاف المناضلين.

ان لكل مناضلة ثورية مسارها و تجربتها و حدودها في نفس الوقت، التي علينا أن ندركها الآن لنستحق الافتخار بكل تضحياتهن و عطاءاتهن مستحضرين في نفس الوقت حدود تلك التجارب بوضعها في سياقاتها التاريخية، و عدم تحميلها أكثر مما يلزم، فنقع في التبخيس أو في التضخيم و ننسى الدروس الحقيقية، و نعبر إلى المستقبل دون تمحيص الماضي و استخلاص دروسه للمستقبل.

فلتتجرأ الماركسيات – اللينينيات على النضال، و لتحتلن الصفوف الأمامية لمواقع النضال الثوري و لو تطلب الأمر من أجل ذلك، **القيام بثورة في الثورة.**

مقدمة:

"الاحتجاج، هو عندما أقول أن هذا لا يلائمني، و المقاومة، هي عندما أعمل على أساس أن الذي لا يلائمني لن يحدث بعد الآن، و الاحتجاج هو عندما لن أشارك بعد الآن، و المقاومة هي عندما أعمل بحيث أن كل الآخرين لا يشاركون هم أيضا منذ الآن". ("الموقف الطبقي"، أولرايك ماينهوف).

"تجرأ على النضال، تجرأ على النصر! اهجموا و حطموا سلطة الإمبريالية! إنه من واجب كل ثوري صنع الثورة! ندعوا جميع مناضلي الجمهورية الفدرالية إلى جعل جميع المؤسسات الأمريكية أهدافا لهجماتهم في نضالهم ضد الإمبريالية الأمريكية، عاشت "را ف". ("الموقف الطبقي"، أولرايك ما ينهوف)

هكذا تكلمت "أولرايك ماينهوف"، وكان الزمن نهاية الستينات و بدايات السبعينات من القرن العشرين الحبلى بالأحداث السياسية، أهمها الحرب الإمبريالية الأمريكية ضد الشعب الفيتنامي، و كانت أصداء الثورة الثقافية البروليتارية الصينية الكبرى تلقي بأنوارها على شعوب العالم، و كان المكان الجمهورية الفدرالية الألمانية (ألمانيا الغربية) حيث النظام الألماني الإمبريالي يمشي ذليلا في صف الإمبريالية الأمريكية، فاتحا جغرافيته للقواعد العسكرية الأمريكية، و كان الشباب كله حنق و غضب من العنجهية الأمريكية، و هي تعتدي على الشعوب و تعيث ظلما في الشعوب التواقة للتحرر.

هذا هو السياق التاريخي الذي بزغ فيه نجم الثورية الألمانية "أولرايك ما ينهوف" خليفة الثوريتان الألمانيتين، "كلارا زتكين" و "روزا لوكسمبورغ".

1) الولادة و النشأة:

ولدت "أولرايك ماينهوف" في 7 أكتوبر 1934 في مدينة "أولدنبورغ"، وفي سنة 1936 انتقلت عائلتها إلى "يينا"، والدها هو المؤرخ و الفنان الدكتور "إنجربورغ ما ينهوف"، و الذي أصبح مديرا لمتحف المدينة، توفي سنة 1940 متأثرا بداء السرطان. أما والدتها فهي "اينجبورغ ماينهوف"، امتهنت التدريس بعد الحرب العالمية الثانية، وتوفيت بدورها نتيجة إصابتها بالسرطان.

في سنة 1946، عادت الأسرة إلى مدينة "أولدنبورغ"، عندما انتقلت مدينة "يينا" إلى الاتحاد السوفياتي وفق اتفاقية مؤتمر يالطا. حصلت "أولرايك" سنة 1952على دبلوم المدارس التحضيرية للدراسات العليا في مدرسة "فلبورغ"، ودرست الفلسفة و السوسيولوجيا و التربية. أصبحت "أولرايك ماينهوف" عضوة في الحزب الشيوعي الألماني، الذي تم حظره سنة 1959، و غادرته سنة 1964 (في سنة 1968، أصبح الحزب يعمل في الشرعية تحت اسم "الحزب الشيوعي الألماني"). وبموازاة ذلك، كانت النضالات الطبقية في ألمانيا الغربية تعرف نموا لا بأس به، ونضالات الشباب الألماني تقودها الحركة الطلابية، كما هو الحال في العديد من الدول الأوربية، موجهة بالأساس ضد الحرب الامبريالية في الفيتنام. كمثقفة لامعة، أصبحت "أولرايك ماينهوف" صحافية في مجلة "كونكريت"[4]، المجلة الثقافية الشهرية لليسار الثوري، حيث ظلت تكتب فيها لمدة عشر سنوات.

2) المسار الثوري ل"أولرايك ماينهوف":

[4].كونكريت : مجلة ألمانية يسارية، ذات اهتمام سياسي و ثقافي، أسسها سنة 1957 "كلاوس رينر روهل"، و كانت تصدر بمدينة "هامبورغ"، و كانت "أولرايك ماينهوف" قد تحملت خلال الستينات مسؤولية رئاسة تحريرها.

بدأ النشاط النضالي الفعلي ل"أولرايك"، في خضم الاحتجاجات على زيارة شاه إيران إلى برلين، و المواجهات التي حصلت للمتظاهرين مع رجال القمع، و ما رافقها من أحداث عنيفة، فقد كانت ألمانيا محجا للأنظمة الرجعية حليفة الإمبريالية. من خلال مشاركتها في احتجاجات الشباب الثوري، ارتبط مصيرها بكل من "**غودرون أنسلين**"، و التي اعتبرت العقل التنظيمي الأول ل "فصيل الجيش الأحمر" إلى جانب الشخصية القيادية للتنظيم، "**أندرياس بادر**"، و قد تميزت "أولرايك" بكتابة بيانات التنظيم بلغة مؤثرة و خطاب هجومي، أبانت فيه، كمناضلة ثورية، عن قدرات سياسية كبيرة.

كانت أفكار "أولرايك" أفكار جيل يساري ثوري أوروبي لجيل بأكمله، فقد عاشت في مرحلة، حيث كانت الإمبريالية العالمية تحاول تسويق ما تسميه بإنجازاتها الاقتصادية، وديموقراطيتها البرلمانية، وكان الحديث عما يسمى ب "المعجزة الألمانية". لقد كانت "أولرايك" صدى لهؤلاء الرجال و لهؤلاء النساء في برلين، في روما، في باريس ... الذين منذ سنوات الستينات و هم يشاركون في نضالات اليسار الثوري، إن انتقادها للعلاقات الاجتماعية الرأسمالية، كرهها للاضطهاد، تجريمها للحروب الاستعمارية و الإمبريالية، تضامنها مع حركات التحرر في بلدان "العالم الثالث"، رفضها الجذري للنظام القائم، جعل منها ثورية لا يشق لها غبار.

تقول "أولرايك" راسمة صورة دقيقة لألمانيا ذلك الزمان :

" لا أرى فرقا حقيقيا بين الإرهاب البوليسي الذي عشناه في برلين، و الإرهاب الإرهابي لسنوات الثلاثينات (زمن النازية).

لقد توصلت "ماينهوف" إلى فهم الوضعية في ألمانيا الغربية بشكل عميق، فقد فهمت أن التقاليد النازية ما زالت حاضرة، و يجب النضال ضد اللامبالاة، والعمل على مساندة التقاليد الثورية، كما فهمت مخطط الإمبريالية الأمريكية، باستعمال ألمانيا الغربية كقاعدة اقتصادية من أجل تطورها الخاص، و أيضا كقاعدة عسكرية ضد الفيتنام، و بطبيعة الحال ضد "المعسكر الاشتراكي"، لقد أدركت "أولرايك" أن نظام ألمانيا الغربية ليس سوى كركوز للإمبريالية الأمريكية.

لقد أحبت "ماينهوف" الحياة بما يكفي، الشيء الذي جعلها لا تقبل بنظام سحقها في نهاية المطاف، النظام الأكثر قمعية، فلم تجد "ماينهوف" إلا طريق العنف الثوري من بين أشكال النضال الأخرى، للانتصار على النازية اليومية التي كانت تهدد أوربا.

تتلخص مواقف "ماينهوف"، فيما قالته عن الموقف الطبقي سنة 1976، من خلال أحد نصوصها ترد فيه على موقف المتفرج الذي يدافع عنه البعض:

" لا يتعلق الأمر بتحديد للمعنى، لأن النضال، أي ما هو رئيسي، قد تم إلغاؤه، إن موقفك لا يوجد إذا بقيت فوق برجك تراقب (محطك)، فهذا لا علاقة له بما نحن نريده. إننا نريد ما نريده، أي الثورة، وبمعنى آخر، هناك هدف، وبالعلاقة

مع هذا الهدف ليس هناك موقف، ليس هناك سوى حركة ونضال، العلاقة بالكائن، كما تقول، هي: أن تناضل: هناك وضع طبقي: بروليتاري، بلترة ...، الإذلال، الإهانة، نزع الملكية، عبودية، بؤس" ("الموقف الطبقي"، أولرايك ماينهوف).

عاشت "ماينهوف" فترة حكم "أديناور"[5]، في أجواء خانقة، حيث لا تزال مستنقعات الماضي تكتسح الأجواء، فعاهات الحاضر الذي تعيشه المرأة هو من ذلك الإرث النتن، تقول "أولرايك":

"خلال 14 سنة من حكمه، صنع أديناور 55 مليون ألماني – من الكتاب و القراء و السياسيين و المعلقين و منتجي الأفلام أو المخرجين، التلفزيون و المشاهدين – شعب من نصف المخبرين و غير المطلعين، يقول البعض نصف ما يعرفونه، و البعض الآخر يعرف فقط نصف ما يجب أن يعرفوه، جميعهم تشوشوا بالأحكام المسبقة، محاطون بالطابوهات، متشابكين للغاية مع الأوهام إلى درجة لم يعودوا فيها قادرين على إدراك مصلحتهم و اهتماماتهم الخاصة".

"إن تباطؤ الفكر و شلل الحركة أضحى متأصلان في الثقافة الألمانية، فالتعليم الاستبدادي الذي يمارسه الرايخ الثاني و الثالث، ساهم في إحداث آثاره في ألمانيا، فالطلاء الجمهوري ضعيف للغاية، حتى أن التوافق مع الرأي العام هو أن تكون متفقا مع السلطات، حتى قبل أن تطلب ذلك، إعلان المتهم مذنبا حتى قبل صدور حكم المحكمة، إعطاء الحق لأي حمار من البوليس بدلا من إعطائه للبريء من المعتقلين، و النظر إلى كل محام كأنه مشارك معه في الجريمة"، بطبيعة الحال، فهذا الانقياد المنهجي، هو في نفس الوقت نتيجة لقمع شديد بشكل خاص، و قناع عن ورطة فظيعة. **"لقد تعلمنا من فرويد**

[5] ـ أدناور كونراد : رجل دولة ألمانيا، ولد في 5 يناير 1876 و توفي في 19 أبريل 1967، و شغل منصب مستشار فدرالي لألمانيا من 15 شتنبر 1949 إلى 15 أكتوبر 1963، ثم أصبح رئيسا لألمانيا الفدرالية بعد ذلك، و عرف بعدائه الشديد للشيوعية و لكل نشاط شيوعي في ألمانيا.

و رايش ... من بين أمور أخرى، أننا، نحن الألمان لدينا صعوبات أكثر من غيرنا مع عدواننا المكبوت، لأننا لا نجرأ على كره أولئك الذين يجب أن نكرههم، أولئك الذين يقمعون اعتداءاتنا في الماضي، الرؤساء، الآباء، أولئك الذين يوجدون في الأعلى".

"إن ظهور حكومة "الائتلاف الكبير" في الأول من دجنبر سنة 1966، جعل الموقف يزيد من عدم القدرة على التحمل. خلال السنوات السابقة تم حظر المنظمات "المتطرفة" من اليمين و اليسار، و انضمت "الديموقراطية الاجتماعية" إلى إعادة التسلح و اقتصاد السوق و قانون حالة الطوارئ، من حركة معارضة تحولت شيئا فشيئا إلى حركة انتقال في الاستمرارية، و يقترب هذا التطور من نهايته، ف "أحزاب النظام"، المسيحيون الديموقراطيون و الاشتراكيون يتفقون على تقاسم السلطة، و نتيجة ذلك فكل معارضة تتحول إلى قلب النظام، ف "الائتلاف الكبير" ليس بحاجة إلى انتقادات، فهو لا يحتاج إلا إلى تأويلات، لكن من يهاجم الإجراءات المقررة من طرف أحزاب الشعب يتعرض للتو للاشتباه في مهاجمة الشعب نفسه و إرادته، كما عبرت عنها أحزابه".

بقدر ما اهتمت "أولرايك" بما يجري في داخل بلدها ألمانيا، توسع أفقها خارج حدود ألمانيا، فاهتمت أكثر فأكثر بنضال حركات التحرر في جميع أنحاء العالم، و كان حماسها شديدا بصفة خاصة للفيتنام، في الحرب الضارية التي يخوضها هذا البلد ضد الإمبريالية الأمريكية، و في ألمانيا تهاجم، ليس فقط الجمود السياسي الذي تعرفه البلاد، و لكن أيضا الاضطهاد الاجتماعي الذي يمارس تحت غطائه، و كانت ترى على أن أسوأ شيء في العالم بالنسبة لها، أن تكون متفرجا و تظل غير مبال.

في نهاية الستينات، وجدت "أولرايك" نفسها بالفعل في نوع من الفخ الداخلي، بين السخط الذي يزداد حيوية كل يوم، و الشعور المتزايد بالعجز، لأن ألمانيا في ظل حكومة "التحالف الكبير"، هي مجتمع أصبحت فيه الكلمة بلا جدوى، لقد فقدت فعاليتها و قدرتها على الإقناع، و عن كل إمكانية للحوار أو احتمال للحوار، الذي يدمر على التو، ففي هذا البلد يظهر واضحا أن الفكر لا يمكن أن يتحول بأي شكل من الأشكال إلى طاقة سياسية و ممارسة، و النتيجة أن المعارضة تدور في حلقة مفرغة، لقد فقدت أهميتها، ما دامت القضايا التي تناقش لا تقدم لها أي مقاومة نظرية، ما دام لا يمكنها التدخل في أي مكان من الصرح السياسي، فهي تنهك نفسها في حركة دائمة، ليس لها أي فعل إيجابي أو سلبي ... إن المشكل الذي يواجهها، هو أنه، كيف يمكن أن يكون لها تأثير بالخطاب على وضع، حيث الخطاب لا يعتد به.

في الواقع، ففي الوقت الذي تتطور فيه الحركة الطلابية و "المعارضة خارج البرلمان"، فإن "أولرايك" تظهر شيئا فشيئا كأنها مسكونة بمتطلبات "المرور إلى الفعل"، فمنذ 1967، وضعت موضع السؤال، معنى المظاهرات ضد حرب الفيتنام حيث تقول :

"السؤال هو معرفة ما إذا كان الاحتجاج ضد هذه الحرب لا يمكن اعتباره ذريعة ديموقراطية جديدة، موت النساء و الأطفال و تدمير المستشفيات و المدارس و تدمير المحاصيل و الصناعات الحيوية –"حتى يصرخون بالشكر"، "حتى تنتهي القضية" – كل هذا يجبرنا على التشكيك في فعالية أنشطة المعارضة و فعالية المظاهرات، التي يأذن بها البوليس، و الذي هو أداة الحكومة، التي ترسل طائرات هيلوكوبتر الباندسوهير إلى الفيتنام، والتي وفقا لذلك لن تسمح بطبيعة الحال أن

تزعج هذه المظاهرات سياسة الحكومة و بالأحرى منعها، من يفهم ما يجري في فيتنام، يشرع في السير بأسنان مشدودة، بضمير بدأ يدرك أن عجزه في إنهاء هذه الحرب يصبح تواطؤا مع من يقودها".

في مثل هذا السياق، ف"المشاعر الطيبة" ليست عذرا و العواطف مهما كانت مبررة، فهي لا قيمة لها.

و كتبت "أولرايك" في وقت لاحق **"السخط ليس سلاحا، إنه غبي و أجوف، من يسخط، من هو مهتم، و معبأ، لا يصرخ، بل يفكر فيما يجب فعله"،** و بنفس الشكل رسمت خطا واضحا بين الاحتجاج و المقاومة:

"الاحتجاج، هو عندما أقول أن هذا لا يلائمني، و المقاومة، هي عندما أعمل على أساس أن الذي لا يلائمني لن يحدث بعد الآن، و الاحتجاج هو عندما لن أشارك بعد الآن، و المقاومة هي عندما أعمل بحيث أن كل الآخرين لا يشاركون هم أيضا منذ الآن".

سنتان بعد اعتقالها، مرة أخرى، و انطلاقا من التناقض بين الخطاب و الممارسة تعرف "أولرايك" منظمة "الراف" بقولها:

"نحن مجموعة من الرفاق، الذين قررنا العمل على مغادرة مرحلة الخمول، التجذر الشفوي فقط، مناقشات لا طائلة منها حول الاستراتيجية، و أن نقاوم".

تلعب الذاكرة هنا دورا أساسيا، ف"أولرايك" لا تريد أن تلام مستقبلا على هذه السلبية، التي اتهم بها اليسار الألماني في ثلاثينات القرن الماضي، و التي سهلت فوز هتلر، فقد كتبت سنة 1966 :

"فكما سألنا آباءنا عن هتلر، سنسأل يوما عن فرانز جوزيف ستراوس"[6].

و قالت أيضا، بوقت قليل قبل وفاتها **"نريد جيدا أن يكف تاريخنا على أن يكون تاريخ مثار خجل"**.

بسبب كل هذا، كان العنف الثوري مبررا لدى "أولرايك":

"العنف ليس فقط أمرا حتميا، لكنه أيضا هو شرعي، لأن الطبقات المسيطرة و الدولة هم الذين أخذوا المبادرة، كان الأمر كذلك في الحالة المتعلقة بحرب الفيتنام".

في إحدى نصوصها الجميلة التي تفيض غضبا و سخرية، تدين "ماينهوف" قلب الأدوار، التي تقوم بها الصحافة الحكومية، فبالنسبة لهذه الأخيرة **"فإن الإجرام ليس هو رمي قنابل النابالم على النساء، الأطفال و الشيوخ، و إنما الإجرام هو الاحتجاج ضد هذه القنابل، ليس تدمير المحاصيل – الشيء الذي يعني المجاعة و الموت جوعا بالنسبة لملايين الناس- إنما الاحتجاج ضد هذا التدمير، ليس هو تحطيم مراكز إنتاج الكهرباء و الجسور، ولكن الاحتجاج ضد هذا التخريب، ليس الإرهاب و التعذيب الممارس من طرف القوات الخاصة، لكن الانتفاض ضد ذلك"**.

خلال حياة السرية كان أمام "أولرايك" إمكانية مغادرة ألمانيا مرتين، و الحصول على منفى موثوق في الخارج، لكنها كانت ترفض ذلك في كل مرة، تضامنا مع رفاقها، تقول "أولرايك":

---

[6] ـ جوزيف ستراوس: سياسي ألماني، ولد سنة 1915 و توفي سنة 1988، و كان رئيسا لحزب "الاتحاد المسيحي الاجتماعي" في بافاريا، و تقلد مناصب متعددة في الحكومات المحلية لبافاريا، و كذلك في الحكومات الفدرالية، كما كان عضوا لسنوات طويلة في البرلمان الألماني.

"ليس لدينا ما نخسره في تحطيم النظام، لكن سنربح كل شيء في الكفاح المسلح: الحرية الجماعية، الحياة، الكرامة الإنسانية، إن الحرية أمام هذا الجهاز ليست ممكنة إلا بنفيه التام، بمعنى، عن طريق مهاجمة هذا الجهاز في نضال جماعي".

إن العنف الثوري عند "أولرايك" شرط ضروري للحرية، المقاومة و السلاح في اليد أو الاستسلام، فاختارت الطريق الأول. ففي ماي 1972، ستتعرض ألمانيا لهجومات ضد القواعد العسكرية الأمريكية و المحاكم و مراكز الشرطة، آخرها كان ضد عمارة في ملكية دور نشر "سبينغر" في مدينة "هامبورغ"، و قد أسفر ذلك عن سقوط خمسة قتلى و عشرات من الجرحى، و قد وجهت أصابع الاتهام مباشرة إلى "الراف" التنظيم الثوري الذي تنتمي إليه "أولرايك"، وبين الرواية الرسمية التي تسم التنظيم بالإرهاب

و بين رؤية التنظيم ذاته لنفسه، الذي يجد في الغطرسة الإمبريالية مبررا لنشاطه العنفي، و فيما يعتبره عمليات إرهابية دولية تستهدف الشعوب (إرهاب الدولة المنظم) لم يخف التنظيم تعاطفه مع الفيتناميين في حربهم ضد الاحتلال الأمريكي، و مع الفلسطينيين في مطالبتهم بالحرية من الاحتلال الصهيوني، و مع كل القوى الثورية الأممية، و قد تلقى قسم من عناصره التدريب العسكري في مواقع التنظيمات اليسارية الفلسطينية في الشرق الأوسط و تحديدا "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، التي شاركوا في قسم من عملياتها المسلحة.

في 15 يونيو1972، تم اعتقال "ماينهوف" في "هانوفر"، و اعتقل رفاقها قبلها. و قد تم سجنها في البداية في مدينة "كولوني"، حيث قضت هناك 273 يوما داخل "ممرات الموت" ، توجد في مكان سري للغاية، و كانت خاضعة أيضا ل"عزلة سمعية" كاملة، و هي طريقة في التعذيب استعملها الألمان، حيث يوضع السجين في زنزانة لا يتسرب إليها أي صوت أو رائحة، و عندما

تطول المدة يصل السجين إلى حالة هذيان، و هي من أخطر أساليب التعذيب، و يسمى هذا في لغة التعذيب بالحرمان الحسي، و هو أسلوب الغرض منه انتزاع الاعترافات.

ظلت "أولرايك" وحدها في زنزانة مغلقة بإحكام، ذات جدران مصبوغة بالأبيض بدون نوافذ، لا وجود للضوء بصفة دائمة، لا يجاورها أحد، و لا يصلها أي صوت و لا أية رائحة، لقد قادها هذا النوع من التعامل إلى حافة الجنون، حتى يجد الجلاد مبررا لفعل الانتحار، و قد تعرض رفاقها لنفس المصير.

في 9 ماي 1976، وجدت "ماينهوف" مشنوقة في زنزانتها. لم تقدم "أولرايك" على الانتحار، بل تم اغتيالها في سجنها، وكذا حصل لرفاقها لاحقا من قيادي "فصيل الجيش الأحمر" أو "مجموعة بادر- ماينهوف" كما أسمتهم السلطات الألمانية، و التي أقدمت على تصفيتهم في السجون، مدعية انتحارهم الجماعي لدفن أفكارهم و شعبيتهم عند الشباب الألماني الثائر وقتها. لقد تحدثت السلطات عن انتحار "أولرايك"، لكنها منعت المحامين و أقاربها من رؤية جسدها و تفتيش الزنزانة و حضور عملية التشريح، لقد كان ادعاء السلطات فاضحا، و ما زال هناك إلى اليوم شك وغموض حول الظروف الحقيقية لهذه النهاية، و هل كان الفعل إراديا حقا أم لا! وتظهر المعلومات المتوفرة لحد الآن، أن العملية كانت جريمة نكراء وبدم بارد، اقترفها النظام الإمبريالي الألماني.

قبل ثلاث سنوات عن استشهادها، كتبت "أولرايك" لأحد أصدقائها :

"أعرف جيدا لماذا قلت "ممر الموت" هو محاولة تؤدي بك إلى الانتحار، وسط صمت مطلق

و حيث لا شيء مطلقا قابلا للإدراك".

إن "أولرايك" اليوم في قبرها، حيث لا يوجد أي نصب تذكاري يدل عليها و يلفت انتباه الزائر، يقع في مقبرة "ترينيتي" في حي "آلت ماريندوف" الجنوبي، مستطيل الشكل صنع من خشب البقش، و هو شجيرة لها جذع مكشوف يبلغ ارتفاعه حوالي متر، مغطاة بخصلة صغيرة من الأغصان و بعض الأزهار الزاحفة، في زاوية يوجد مرش أخضر من البلاستيك، و لوحة حجرية تحمل اسما و تاريخين، تاريخ الولادة، و تاريخ الوفاة، و نقش بالألمانية شبه ممسوح : "الحرية هي فقط ..." مع أنه ليس بالوقت الطويل كانت المرأة الشابة، التي تستقر هنا، ترى صورتها معلقة على كل جدران المدينة تسمى "أولرايك ما ينهوف"، كل بوليس العالم يتعقبها، و مكافأة بعشرة آلاف مارك ألماني لكل من ساعد على القبض عليها،

و بعد كل هذه السنين على استشهادها، لم تهدأ بعد المشاعر و الخلافات التي أثارتها حياتها و أفعالها و ستظل كذلك، حياة كل الثوار، و مع ذلك أصبح قبرها مزارا للعديد من المناضلين اليساريين والثوريين.

خاتمة

كانت "أولرايك" في بحثها عن السلاح الإيديولوجي الملائم لتحفيز الناس على النضال ضد الإمبريالية الأمريكية و التعبئة ضد المؤسسات الألمانية، أمام مجموعة من التجارب الثورية، فنهلت في نفس الوقت من الغيفارية و طوباماروس الأوروغواي و النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت و المانيفستو الإيطالي و اليسار البروليتاري الفرنسي و البلاك بانتيرز الأمريكي، ورغم أنها كانت متأثرة بأفكار ماو، إلا أنها لم تكن تفهم أن أفكارها تنتمي إلى عصر الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى الصينية (لم تفهم أهمية الطابع الوطني لنضالها في بلدها، وأهمية بناء الحزب الشيوعي الثوري) ولم تنج من التشويشات التحريفية على فكرها خلال مسار بحثها عن الطريق الثوري، وهي مسألة شاركتها مع جيلها من الشباب الثوري الأوروبي، إنها تشبه روزا لوكسمبورغ في ثوريتها، كما تشبهها في نفس النهاية، أي تعرضهما للاغتيال من طرف نفس العدو الطبقي، و كلاهما سجلتا في دفتر التاريخ الألماني كشهيدتين ينهل من ثوريتهما كل الأجيال في ألمانيا أو في خارجها.

جميلة صابر

2019 – 10 – 7

سعيدة لمنبهي: المناضلة الشيوعية الماركسية اللينينية الثورية المغربية

(المغرب)

إن هذا النص قد سبق نشره في أحد المواقع الصديقة: "30 غشت"، وبإذن من هذا الموقع تم نشره ضمن أجزاء هذا الكتاب

النص كاملا:

تحل اليوم الذكرى الثانية و الأربعون لاستشهاد المناضلة الرفيقة الماركسية – اللينينية المغربية سعيدة لمنبهي، التي سقطت في معمعان النضال الثوري من داخل سجون النظام الكومبرادوري المغربي العميل، التي حولتها سعيدة و رفاقها إلى قلعات للنضال الثوري، حيث يستمر المناضل و المناضلة في تحمل مسؤوليتهما تجاه شعبهما، و من أجل أن تنتصر مهام الثورة الوطنية الديموقراطية الشعبية على طريق الاشتراكية و الشيوعية، فلا مجال هنا لتغليب المصالح الشخصية و الخاصة على حساب مصالح شعب بكامله يعاني أشد المعاناة من القمع و الاضطهاد و الاستغلال على يد إحدى أعتى الدكتاتوريات في العالم و إحدى قلاع الرجعية في المنطقة العربية.

تحل الذكرى، و كل الماركسيين – اللينينيين الثوريين، و معهم كل الثوريين و التقدميين، يقفون إجلالا و احتراما لروح الشهيدة الثورية سعيدة لمنبهي، التي جسدت بنضالها و مواقفها أسمى القيم الشيوعية الحمراء.

تحل الذكرى و تختلف الإحياءات من موقع إلى آخر، و تستوقفنا في السنوات الأخيرة بعض الإحياءات، التي تثير الكثير من الاشمئزاز لدى الماركسيين – اللينينيين الثوريين، لا لكون أصحابها لا يتبنون النظرية الثورية فذاك شأنهم، و لا لكوننا نحتكر هذا الإحياء، ذلك لأن سعيدة هي كذلك شهيدة الشعب المغربي، بل لأننا نرفض كل الإحياءات ، التي تعمل على طمس و تشويه الهوية النضالية و الفكرية للشهيدة، التي اختطتها بدمها في وصيتها الشهيرة : "سأموت ماركسية – لينينية"، و سنقف في وجه كل الإحياءات، سواء كانت احتوائية احتفالية تعمل على تقديم الشهيدة قربانا للنظام الكمبرادوري من أجل مصالح مشبوهة، أو كانت إحياءات خطابية فرجوية تلفها "الجملة الثورية" و تعمل على طمس الحقيقة الثورية التي يجسدها استشهاد سعيدة لمنبهي، رمز تحرر الشعب المغربي، و مشعل تحرر المرأة المغربية .

إن منظورنا، نحن الماركسيين – اللينينيين الثوريين، ككل عمل ثوري نضالي، يقف على قاعدة الماركسية – اللينينية الصلبة و الممارسة الثورية، فعندما نستحضر ذكرى و مغزى الاستشهاد، لا يمكننا أن نتجاهل كل محاولات الاحتواء، و تهريب روح سعيدة إلى ضفة أعدائها الطبقيين تحت غطاءات شتى، تهدف إلى اختزال نضالها إلى أدنى المستويات ليقبل بها الجلاد، فأبدا لن نقبل بذلك، و سنرفع راية العقل الثوري في مواجهة العقل البورجوازي الصغير و الشرعية الثورية في مواجهة الشرعية البورجوازية و الإصلاحية، و ندعم الحق في الثورة كحق أسمى يعلو ولا يعلى عليه، و بالنسبة للذين يخفون مواقفهم من الاستشهاد، باعتباره سلوكا لا عقلانيا انتحاريا، دون أن يجرؤوا على الصدح بذلك، نذكرهم بأن النضال من أجل الثورة حتى التضحية الأسمى قيمة ثورية شيوعية، تنتصب في وجه القيم البورجوازية المصلحية و الانتفاعية و الفردانية، و سعيدة لمنبهي الشهيدة الثورية جسدت بنضالها و استشهادها قمة و سمو أولوية القيم الشيوعية على غيرها، نقول لهؤلاء و أولئك، ممن انبطحوا أما النظام الكمبرادوري و جثموا على ركبهم، إننا نرفض أن نجعل من منطق الانتماء العائلي مدخلا لشرعية لا يكتسبها إلا من وقف على خط النضال و سار عليه، و لنا في ذلك أمثلة لمن لا زال على العهد سائرا و لم يبدل تبديلا، أيها السادة! لكم أخلاقكم و لنا أخلاقنا.

و اليوم، و نحن نستحضر روح شهيدتنا في ذكراها الثانية و الأربعين، تحضر أمامنا الأجواء التي تحل فيها هذه الذكرى، حيث يعيش المغرب احتدادا للصراع الطبقي يؤججه تصاعد الاستغلال و النهب و القمع و الاضطهاد من طرف النظام الكمبرادوري، و تتصدى لذلك حركة الجماهير في كل مكان، التي تنامى وعيها السياسي و إبداعاتها (مظاهرات، وقفات، مسيرات، احتجاجات، و تعبيرات شعرية و غنائية و رياضية مواكبة لهذا الزخم النضالي ... إضافة إلى تطور في الأشكال التنظيمية و الشعارات في سياق انبثاق مثقفين عضويين للجماهير يحركون نضالاتها و يقودونها و يحظون بثقتها و بمصداقية عالية) في معمعان المواجهات الطبقية ضد النظام الكمبرادوري .

تحل الذكرى إذن، و الحاجة إلى فكر و قيم سعيدة لمنبهي تزداد يوما بعد يوم، في ظل غياب شبه تام للقيادة الثورية، فأي فكر هذا الذي استشهدت من أجله الشهيدة؟

لقد سقطت سعيدة شهيدة كماركسية – لينينية تدافع عن خط الثورة الوطنية الديموقراطية الشعبية، و منخرطة في سيرورة النضال من أجل بناء الحزب الماركسي – اللينيني للطبقة العاملة المغربية، و من أجل تحرر المرأة المغربية.

لقد كانت سعيدة مناضلة أممية ثورية، فعن أي خط أممي دافعت سعيدة؟

إن هذا الخط هو الخط العام للحركة الشيوعية العالمية، الذي يعكس بطبيعته القانون العام لتطور العالم، و الذي كان يرى أن النضالات الثورية لدى البروليتاريا و الشعوب في مختلف البلدان سوف تسير عبر مراحل مختلفة، لها خصائصها المميزة ضمن ذلك القانون العام لتطور العالم، و من هنا التزام الأحزاب الشيوعية الثورية بمبدأ ربط الحقيقة العامة للماركسية – اللينينية بالممارسة العملية الملموسة للثورة و البناء الاشتراكي في كل بلد، من هنا كانت القضية الأساسية المطروحة في زمن سعيدة لمنبهي هي قبول أو عدم قبول المبادئ الثورية التي جاءت بها الماركسية – اللينينية، أي قبول حقائقها العامة من عدمه، و كان ذلك يعني الاعتراف بالأهمية العامة لطريق ثورة أكتوبر المجيدة أو رفضه، و هي كذلك قبول حقيقة أن الشعوب التي لا زالت

تعيش تحت النظام الامبريالي الرأسمالي، و التي تشكل ثلثي سكان العالم، لا زالت في حاجة إلى القيام بثورة أم لا؟ ، و كذلك قبول حقيقة أن الشعوب التي كانت تسير في طريق الاشتراكية لا تزال في حاجة إلى السير بثورتها إلى النهاية أم لا ؟

و اختصارا، فإن هذه المبادئ الأممية الثورية، اختزلتها مجموعة من الشعارات و هي:

يا عمال العالم اتحدوا، يا عمال العالم و شعوبه المضطهدة و أممه المضطهدة اتحدوا، و عارضوا الاستعمار و رجعيي مختلف البلدان، و ناضلوا في سبيل السلم العالمي و التحرر الوطني و الديموقراطية الشعبية و الاشتراكية، و سيروا بالثورة البروليتارية العالمية خطوة خطوة إلى النصر الكامل، و أقيموا عالما جديدا خاليا من الاستعمار و الرأسمالية و نظام استغلال الإنسان للإنسان.

مما جاء أعلاه، و بالاعتماد على وثائق منظمة "إلى الأمام" الماركسية – اللينينية، فالشهيدة سعيدة لمنبهي كانت في خط الثورة العالمية المناهض للتحريفية العالمية بقيادة الاتحاد السوفياتي آنذاك.

و لمن يريد أن يستوعب روح التضحية عند سعيدة و أخلاقها فلابد له أن يقف على فلسفتها و أخلاقها المستمدة من تلك الفلسفة.

إن فلسفة سعيدة لمنبهي هي المادية الجدلية، التي لم تكن أبدا نظاما لفلسفة تأملية، فالإنتاجات الكبرى الفلسفية لأبرز القادة الماركسيين – اللينينيين، جاءت كضرورات ملموسة لخوض الصراع الإيديولوجي و النظري، ماركس ضد برودون، انجلز ضد دوهرينغ، و لينين ضد التجريبيين النقديين، و ماو تسي تونغ ضد الدوغمائيين و التجريبيين.

و في كل الأحوال، كانت الفلسفة حزبية، تستهدف القضاء على التعابير المثالية الميتافيزيقية للتيارات السياسية الرجعية داخل الطبقة العاملة و منظماتها و خارجها، و من أجل براكسيس ثوري.

إن الماركسية تكون ثورية أو لا تكون، و الماركسية الثورية هي الماركسية – اللينينية فلا خط ثالث بينها و بين نقيضها، ذلك أن المبدأين الأساسيين للفكر الماركسي، هما "الحق في الثورة"، و "خدمة الجماهير" كواجب أسمى. إن الماركسية في جوهرها حق

في الثورة بما يعني أن لنا الحق في أن نثور ضد الرجعية و ضد الوضع القائم، الذي يديمها و يبررها، فالإيديولوجيا السائدة في مجتمع ما هي إيديولوجية الطبقة السائدة في هذا المجتمع، و كذلك هي وضعية الأخلاق في المجتمع، فالماركسية تجمع في نفس الوقت بين الالتزام بالثورة و وجوب العمل على ذلك، فمن واجب الشيوعيين أن يقوموا بالثورة، و حقيقة النظرية الماركسية هو ما تجعله الثورة عقلها و روحها و مرشدها من أجل القضاء على العدو الطبقي، و لذلك ارتبطت النظرية بالممارسة، في الماركسية، أي الذهاب من النظرية، العقل الثوري، إلى الثورة، و من الثورة إلى النظرية. إن ذلك شرط داخلي للنظرية نفسها، لأن الحقيقة الثورية هي سيرورة واقعية، بما يعني أن الحقيقة هي الثورة ضد الرجعيين، و لذلك جعلت الماركسية – اللينينية من مبدأ خدمة الجماهير مبدئا أخلاقيا يعلو على كل شيء، فالماركسية هي علم الثورة لأنها علم الجماهير الثائرة ضد الرجعيين، و هذا العلم يقف على قدمين هما : المادية الجدلية، التي هي جبر الثورة، و المادية التاريخية، التي هي علم التاريخ الثوري، الذي يرى أن الصراع الطبقي هو محرك التاريخ، و الجماهير هي من يصنع التاريخ عبر نضالاتها الثورية، التي يقودها حزبها الثوري الماركسي – اللينيني المسترشد بالنظرية الثورية الماركسية – اللينينية، في سياق جدلية الحركة الثورية و النظرية الثورية ("لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية")، و في سياق جدلية الجماهير – الطليعة الثورية، عبر التصدي لانحرافين أساسيين :

- البلانكية و النزعة الاستبدالية، حيث الحزب هو كل شيء و فوق الجماهير.
- العفوية و الذيلية للجماهير (الحزب يساوي الجماهير)، أي تذويب الحزب في الجماهير و السقوط في ذيليتها، و هو ما سماه المعلم البروليتاري العظيم لينين ب "لعق دبر الجماهير"، و يعني كذلك ضرورة مواجهة اتجاه "الحركة كل شيء و الهدف لا شيء" السيء الذكر.

في زمن انتشار البضائع و التبضيع و التضبيع بامتياز، زمن العولمة الامبريالية الحديثة، تقدم سعيدة لنا درسا أخلاقيا ثوريا متجددا باستمرار، ففي زماننا تحاصر الأخلاق الثورية، كما يحاصر حاملوها، و انتشر في كل مكان مسوقو الأوهام، و موضة و

لازمة الخلاص الفردي، و كل منوعات تضخم الأنا (أنا و بعدي الطوفان) التي تبثها الإيديولوجية البورجوازية و البورجوازية الصغيرة، من إصلاحية و تحريفية و غاندية جديدة و برنشتاينية جديدة ...

إن مثقفي الطريق الوسط هؤلاء اللذين، كما سبق ذكره، أقسموا ألا يلدغوا من الجحر مرتين و ألا يعيدوا الكرة، محولين إحباطاتهم و انهزاميتهم إلى فكر و سياسة يتبعونها، إنهم أسوأ السياسيين، لأنهم يرفعون شعارات تمويهية و تضليلية، و ينظرون إلى الجماهير ككم مهمل في أحسن الأحوال، يمتطونه لأغراضهم و مصالحهم الشخصية و السياسية، فالسياسة عندهم يصنعها "السياسيون"، هذه السياسة التي يقيسونها بمقياس منفعتهم الخاصة، و هي تعني مغازلة السيد الحاكم لتقديم ما يحتاجه من وصفات و نظريات جديدة، فاختلطت خطاباتهم و سلوكهم بالخطاب و السلوك الرسمي، كما يختلط الحابل بالنابل .

إن الخروج من الوحل، الذي سقط فيه العديد من المناضلين، لا يمكن أن يقع خارج الوعي بضرورة ممارسة النقد و النقد الذاتي، و استلهام الأخلاق الثورية الشيوعية.

إن الأخلاق الثورية عند الشهيدة سعيدة لمنبهي لا تمت بصلة لهؤلاء و أولئك من مثل هذه العينات و النماذج، اللذين أصبحوا يمجدون أخلاق الفردانية الليبرالية و "العقلانية" البورجوازية.

إن الأخلاق الثورية لسعيدة، تنطلق من الماركسية – اللينينية، التي تسعى إلى بناء قيم أخلاقية جديدة في سياق الربط بين الممارسة الثورية المبدعة، و التفكير النظري المادي الجدلي، فالمشروع الاشتراكي يقوم على مبدأ تحقيق شعار "الفرد الحر في المجتمع الحر"، و الانتقال بالمجتمع من "ملكوت الضرورة إلى ملكوت الحرية".

إن البروليتاري الواعي بالمصالح العامة لطبقته و لدورها التاريخي، و المثقف الشيوعي الثوري المندمج في السيرورة التاريخية، كلاهما يحتاج إلى قيم البطولة و الحماسة و الحيوية و ضرورة اكتساب المعرفة العلمية و النظرية، و ربط الممارسة النضالية بالنظرية التاريخية الثورية للتغيير، مما يفرض تحمل المسؤولية التاريخية بصدق و التزام مع الذات.

إن القيم الأخلاقية الثورية هي على طرفي نقيض مع أخلاق دعاة الفردانية الليبرالية، اللذين يمجدون الفرد و الحرية الفردية دون أن يدركوا أن هذه الفردانية هي في نفس الوقت تعبير عن سحق فردانية الفرد، فلا خلاص فردي بدون خلاص جماعي.
و مرة أخرى، فالقيم الشيوعية باعتبارها أرقى الأخلاق، هي كذلك على طرفي نقيض جذري مع الفكر الغيبي التواكلي، كل شيء بقدر، الغنى مقدر، الفقر مقدر، الفقر ابتلاء للمؤمن، و الأهم من كل هذا وذاك، يجب انتظار لحظة الدخول إلى الجنة للتعويض عن كل المعاناة، فلابد من الحفاظ على العقائد و الشرائع و خدمة ولي الأمر و طاعته، فمن مات و ليس في عنقه بيعة لولي أمر فقد مات ميتة جاهلية (و أطيعوا أولي الأمر منكم ...) كما تروج لذلك سياسة السلطان و فقه السلطان.
إن الأخلاق الشيوعية الثورية بمعناها الماركسي، تعتمد في منهجها الديالكتيكي على مقولة الواقع باعتباره سيرورة و إمكانا، و إذا كان لينين قد حدد السياسة باعتبارها "فن الممكن" فلا يعني ذلك النزول بها إلى مستوى واقعية سياسية فجة تبرر كل شيء، كما يفعل كل بورجوازي صغير يشتغل في ميدان السياسة.
إن الوصول إلى الممكن في الماركسية – اللينينية هو تألق للإنسان الواعي لشروط حريته، فالضرورة و الحرية مرتبطتان جدليا.
من المشروع الشيوعي الرامي إلى القضاء على المجتمع الطبقي و الاستغلال و الاستيلاب، تنتصب فكرة و غاية تحقيق الإنسان الشامل، هذا الإنسان المتعدد الطاقات و الإمكانيات و المواهب و المعارف، المتحرر من قيود الاستغلال و الملكية الخاصة و الاضطهاد و الاستيلاب، إن الوصول إلى هذا المشروع لن يتأتى إلا على أساس تجاوز ديالكتيكي عبر تحطيم الشروط العامة المكبلة للإنسان، و الارتقاء بالواقع إلى الأعلى. إن هذا التجاوز واجب اجتماعي وفردي لا ينفي السيرورة التاريخية، بل يسير في اتجاهها نحو الإنسان الشامل.
و على هذا الأساس، أفرزت الثورات العالمية نماذج جديدة من الطلائع المناضلة، تتوفر على حيوية طبيعية و متفتحة و قادرة على الربط بين الممارسة الثورية و التفكير النظري المادي و الجدلي، بما يعني ذلك من تجاوز للاستيلاب الإنساني، و وضع حد للتناقضات الداخلية للفرد و الدفاع عن قيم جديدة لا تحركها التنافسية و الربح الأقصى، و لا تقوم على خدمة القيمة التبادلية،

بل على توفير القيم الاستعمالية ضمانا لحاجيات المجتمع و ازدهاره (الشيء الذي لا توفره إلا اشتراكية حقيقية) ولا تسقط في الخضوع و الخنوع و الإذلال و الانبطاح أمام السيد المستغل (بكسر الغين) بل تدعوا إلى قيم التحرر و التضامن و التآزر و المودة و الصداقة و العمل و الإبداع، قيم تدعو إلى التحرر الشامل للمرأة و الرجل على حد سواء، فلا تحرر للمجتمع بدون تحرر المرأة و العكس صحيح .

لا أحد يستطيع أن ينكر أن سعيدة لمنبهي كانت مناضلة و رفيقة في المنظمة الماركسية – اللينينية المغربية "إلى الأمام"، و جسدت في مسارها النضالي قيم المناضلة الشيوعية الثورية المقتنعة أشد الاقتناع بمبادئ الماركسية – اللينينية، من بين هذه المبادئ، مبادئ التنظيم الثوري القائم على الانضباط الثوري، وكما جاء في النظام الداخلي لمنظمة "إلى الأمام"، فتلك المبادئ تجسد و تترجم الهوية الطبقية، و خط الحزب الثوري الماركسي – اللينيني و أهدافه بشكل مكثف، و تعرف هذه المبادئ بالمبادئ الخمس و هي:

1 ـ **القيادة الجماعية**

2 ـ **المركزية الديموقراطية**

3 ـ **النقد و النقد الذاتي**

4 ـ **المحاسبة الجماعية و الفردية**

5 ـ **الانضباط الثوري**

إن المبدأ الأول يعني الوقوف ضد كل أشكال تسلط الفرد مع تأكيد مسؤولية الأفراد و المسؤولية الجماعية للتنظيم و لقيادته على كل المستويات.

و يعني المبدأ الثاني (المركزية الديموقراطية) وجود مبدأ الديموقراطية في التنظيم و العمل، و في تسيير الحزب، و في علاقته بالجماهير، كما يعني وجود المركزية كلحظة جدلية في وحدة تناقضية مع الديموقراطية، و ذلك لتوفير الفعالية و الحزم و الصرامة الثورية.

و يعني المبدأ الثالث كما جاء في النظام الداخلي لمنظمة "إلى الأمام" توفر سلاح لتطور المناضل و التنظيم، و يقول النظام الداخلي في هذا الموضوع:

"إن ممارسة النقد و النقد الذاتي من جميع أعضاء المنظمة، يؤدي إلى صقل العناصر الطليعية و بلترتهم بشكل صارم، و تصفية كافة رواسب الممارسة و الإيديولوجيا البورجوازية و الإقطاعية، و أشكالها المختلفة لدى الأعضاء.

إن ممارسة النقد و النقد الذاتي فرديا و جماعيا، داخليا و أمام الجماهير، سيساهم في بناء الطليعة البروليتارية، و توسيع و تعميق روابطها بالجماهير و تطوير خطها و تنشئة شيوعيين طليعيين يجسدون الإنسان الجديد".

أما المبدأ الرابع فيعني أن المحاسبة جماعية، تشمل التنظيم برمته، قيادته و قواعده، و كذلك فردية، تشمل الأفراد من أجل التمييز بين المسؤولية الجماعية و المسؤولية الفردية تلافيا للانتهازية و الهروب من المسؤولية.

و يقوم المبدأ الخامس على ضرورة وجود الانضباط الثوري لقرارات المنظمة و هياكلها كشرط ضروري لبناء الطليعة البروليتارية و قيادة الثورة، مما يتطلب من المناضل الثوري، توفر شروط الصلابة و الحزم و الحيوية و الانضباط الثوري و الصمود.

تلكم هي أهم المبادئ التي ناضلت تحت رايتها الشهيدة المغربية الماركسية – اللينينية سعيدة لمنبهي داخل المنظمة و في حياتها الخاصة

إنها المبادئ التي تعطي أهمية للنضال و التضحية و الصمود حتى الشهادة، من أجل انتصار الثورة، مما يعني ضرورة الانضباط، في إطار المنظمة الثورية و محاربة كل أشكال خرق الانضباط و التخريب وضرب وحدة التنظيم، و على قاعدة هذه المبادئ مارست سعيدة الدعاية للأفكار الثورية و سط الجماهير و كسب الأنصار و متعاطفين جدد، و احترام مبدأ السرية و صون أسرار

المنظمة و الجرأة في توفير اللوجستيك للمنظمة السرية و توفير الحماية للرفاق و ربط قضايا الثورة المغربية بالثورة العربية و الأممية.

تلكم هي الشهيدة سعيدة لمنبهي كما كانت في الحقيقة و الواقع بفكرها و فلسفتها و ممارستها و أخلاقها، و ليست كما يتصورها من يلعقون حذاء النظام و يأكلون من صحنه و يسيرون في حاشيته و يبيضون صفحة النظام الملطخة بدماء الشهداء، لهؤلاء و لأولئك من الحشوية نقول أن سعيدة عصية عن الاحتواء، سعيدة الشموخ، سعيدة النجمة الحمراء، سيظل اسمها منارة و نبراسا لكل الماركسيين – اللينينيين الثوريين.

سعيدة لمنبهي، رفيقتنا، 42 سنة من الغياب، 42 سنة من الحضور الدائم في همومنا و تطلعاتنا نحو مجتمع الديموقراطية الجديدة السائر نحو الاشتراكية و الشيوعية.

سعيدة لا تموت، سعيدة لا تقهر، سعيدة المثال الذي لا يفنى، سعيدة النموذج الذي يحتذى، فكفى ثرثرة و شقشقة لسان، فمن يكرم الشهيد يتبع خطاه.

المجد و الخلود للشهيدة البطلة الرفيقة الثورية الماركسية ـ اللينينية المغربية سعيدة لمنبهي.

المجد و الخلود لكل شهداء الحركة الماركسية ـ اللينينية المغربية.

المجد و الخلود لكل شهداء الشعب المغربي.

المجد والخلود لكل شهداء الشعوب التواقة إلى الحرية والديموقراطية والاشتراكية.

موقع 30 غشت

نبذة مختصرة عن حياة سعيدة لمنبهي:

تاريخ الولادة: 1952 المكان: مدينة مراكش
المهنة: أستاذة الإنجليزية بالرباط
تاريخ الاعتقال: 16 يناير 1976 السن عند الاعتقال: 24 سنة
الحكم الصادر: 5 سنوات + سنتان تاريخ صدور الحكم: 14 فبراير1977
تاريخ الاستشهاد: 11 دجنبر 1977 السن عند الاستشهاد: 25 سنة
مكان الاستشهاد: مستشفى ابن رشد - الدار البيضاء

- الولادة والنشأة و الانتماء النضالي:

كان البلد المغرب، قطعة من جغرافية هذه الأرض، يوجد في شمال غرب إفريقيا أو غرب المغرب الكبير، و كانت المدينة مراكش، الحمراء إحدى أقدم عواصم المغرب التاريخية، أسسها المرابطون و جعلوها عاصمة لحكمهم، مدينة التاريخ و الجغرافيا الجميلة، هي أيضا مدينة الكلاوي، الباشا الإقطاعي و عميل الاستعمار الفرنسي و الذي جعل منها مقر إقامته والذي أذاق ساكنتها كل صنوف العذاب، و التي لا زالت ذاكرة المراكشيين تحكي عنه و عنها إلى اليوم. مراكش أيضا مدينة المقاومة ضد الاستعمار و عملائه، مدينة الشهيد حمان الفطواكي المقاوم الذي أعدمه الاستعمار، مراكش و ألف حديث وحديث...

في ذات سنة، سنة 1952 سنة من سنوات الجمر، التي كانت تقطعها البلاد في تحد عنيد للاستعمار وأركانه، سنة الانتفاضة العمالية والشعبية بمدينة الدار البيضاء، بعد اغتيال الشهيد فرحات حشاد، الزعيم النقابي بتونس، اندلعت انتفاضة الكريان

سنترال أحد أحياء البيضاء الصفيحية حيث كان يتكدس عشرات الآلاف من العمال والكادحين والفقراء، هي إذن سنة انتفاضة مارس 52 التي ستعلن نهاية سنوات المخاض التي بدأت مع انتفاضة وادي زم 1948 ودخول الطبقة العاملة على خط المقاومة الجذرية وانطلاق المقاومة المسلحة بعد ذلك.

في هذه السنة كانت ولادة سعيدة لمنبهي وذلك يوم 16 شتنبر.كان يوما عاديا ولا شك كباقي أيام السنة لدى المراكشيين لولا أنه في هذا اليوم كان أحد بيوت المدينة و هو منزل ذو بوابتين إحداهما تطل على حي دوار كراوة والأخرى صوب رياض الزيتون، يعج بحركية غير عادية، الأم فخيته بلكبير الهيلالي تضع مولودة جديدة، مفجرة فرح الزوج وأسرتها الصغيرة، أطلق على المولودة اسم سعيدة و كانت السعادة تملأ البيت الأسري. في ذلك البيت أطلقت سعيدة صرخة الحياة الأولى لتبدأ المشوار في أحضان أبويها وإخوانها محاطة بالحب والحنان. سنوات بعد ذلك، ستلتحق سعيدة بمدرسة "قبور الشهداء" ("قبور الشو" كما ينطقها المراكشيون) الابتدائية، و قد اجتازت سعيدة هذه المرحلة بنجاح لتنتقل إلى مؤسسة "أبو العباس السبتي" (الإعدادية والثانوية) لتحصل على البكالوريا سنة 1971، منتقلة بعد ذلك إلى الدراسة الجامعية.

كانت الرباط وجهتها التالية لاستكمال دراستها الجامعية و ذلك سنة 1972، الرباط، تلك المدينة التي بناها الموحدون لتصبح بقرار من الماريشال ليوطي العاصمة الإدارية للبلاد منذ الحقبة الاستعمارية.

الرباط المدينة القائمة على شاطئ الأطلنطي هي وتوأمها سلا. المدينة الجامعية الرئيسية للبلاد آنذاك حيث كان أغلب طلاب البلاد يتوجهون إليها لمتابعة دراستهم الجامعية.

في هذه السنة التي التحقت فيها الشهيدة بالجامعة كانت نضالات قوية و معارك ضارية تخوضها الحركة التلاميذية والطلابية وأصداء نضالات جماهيرية تنفجر في كل مكان.

كانت سنة 1972 سنة كل الاحتمالات، حيث صعود اليسار الثوري الماركسي – اللينيني وتحمله مسؤولية الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، (في غشت 1972سينعقد المؤتمر 15 للاتحاد الوطني لطلبة المغرب " أ.و.ط.م") و في 22 أبريل من نفس السنة سيتم الإعلان عن تأسيس النقابة الوطنية للتلاميذ (ن. و. ت)).في السنة نفسها ستكون محاولة الانقلاب التي قادها المجرم أوفقير ضد الملك رأس النظام الكمبرادوري القائم كتعبيرعن تناقضات حادة داخل التحالف الطبقي السائد.

في أجواء ملتهبة، وصراعات إيديولوجية وسياسية داخل الجامعة، وفي خضم أجواء نضالية تخيم على البلاد ضدا على القمع الأسود والاستغلال والاضطهاد والاستبداد السياسي، تابعت سعيدة دراستها بشعبة الإنجليزية بكلية الآداب والعلوم الاجتماعية، وانخرطت منذ البداية في النضال داخل كلية الآداب معقل اليسار الثوري الماركسي اللينيني فتحملت المسؤولية داخل تعاضدية كلية الآداب لسنتي 72-73 باسم "الجبهة الموحدة للطلبة التقدميين". استكملت سعيدة تكوينها كأستاذة للسلك الأول بالمركز التربوي الجهوي الذي ستتخرج منه كأستاذة لمادة الانجليزية بإعدادية الخوارزمي بالرباط، و ستنخرط مباشرة بعد التحاقها بالعمل في النقابة الوطنية للتعليم التابعة للاتحاد المغربي للشغل كمناضلة نقابية.

خلال هذه السنة، سنة 72، سيدشن النظام الرجعي حملة واسعة ضد اليسار الثوري الماركسي اللينيني مست العديد من أطر منظمتي "أ" و "ب" ("إلى الأمام" و23 مارس لاحقا)، كما تعرضت الحركة الطلابية للقمع الشرس من خلال اختطاف العديد من مناضليها و مسئوليها ومتابعة ومطاردة الآخرين. ولم تتوقف الحملة بعد صعود اليسار الثوري إلى قيادة أوطم بل تصاعدت إلى حدود إقدام النظام على حل الاتحاد الوطني لطلبة المغرب في 24 يناير 1973، فانخرطت سعيدة في النضال من خلال مساهمتها في المظاهرات المنددة بالقرار الرجعي دفاعا عن أوطم وخطها النقابي الثوري واستمرارا لكفاحها العنيد ومن أجل الصمود في وجه الإعصار مجسدة شعار الصمود والارتباط بالجماهير الذي رفعته منظمة "إلى الأمام" في وجه إحدى أعتا الحملات القمعية التي أطلقها النظام "الفاشي" ضد الحركة الجماهيرية والقوى التقدمية والثورية.

سعيدة لمنبهي هي أيضا ابنة منظمة" إلى الأمام"، فسعيدة التي حظيت دائما بحب أسرتها كبرت ونقلت معها الحب والمودة والصداقة و الرفاقية إلى كل من تقاطعت معهم على طريق حياتها كإنسانة وكمناضلة ثورية مؤمنة دائما بالحق في الثورة.

سعيدة التي خبرت سبل النضال داخل الحركة التلاميذية بثانوية "أبو العباس السبتي" بمراكش، وكمناضلة بكلية الآداب للاتحاد الوطني لطلبة المغرب والجبهة الموحدة للطلبة التقدميين وكمناضلة نقابية بالاتحاد المغربي للشغل، سعيدة المناضلة العنيدة، المشبعة بالأمل والتفاؤل الثوري والمتشبعة بالفكر الماركسي اللينيني والتواقة إلى تحرر المجتمع مجتمع الرجال والنساء المتساوين في كل شيء، سعيدة في إحدى أحلك ظروف القمع الأسود الذي طال البلاد والعباد على يد نظام ديكتاتوري مصاص للدماء، في مغرب الاعتقالات والمحاكمات الصورية والطرود الملغومة والإعدامات، في مغرب تازمامارت، الكمبليكس، درب مولاي الشريف، اكدز، دار المقري وغيرها... في مغرب "الجدران لها آذان" حسب التعبير السائد وحيث حيازة كتاب شبهة، وقراءة جريدة شبهة، والتضامن مع فلسطين شبهة ووو...سعيدة وهي كل تلك الخصال الثورية سعيدة التي كانت تعيش كل تلك الظروف ستتخذ قرار انخراطها في المنظمة الماركسية اللينينية "إلى الأمام" لتواصل النضال من أجل دولة ديمقراطية شعبية ومن أجل الاشتراكية. ومن موقع عضويتها لإحدى خلايا المنظمة ومسؤوليتها التنظيمية داخلها (كانت سعيدة مسؤولة عن خلية بالرباط- سلا) شرفت سعيدة المرأة المناضلة بثباتها وإقدامها وجرأتها وصمودها في أحلك لحظات المواجهة والتحدي عند نقل الوثائق السرية، أو توزيع المناشير السرية، أو القيام بأعمال التمويه لكراء المنازل (المستعملة كمقرات سرية للمنظمة) أو عند أعمال الرصد وضبط المواعيد أو عند لزوم الحزم لمواجهة خطر داهم أو لطمأنة مناضل أو رفيق لازال في بداية النضال، سعيدة الرفيقة جديرة بنساء المقاومة الفرنسية أو الجزائرية من أمثال جميلة بوحيرد وغيرها. كيف لا تكون كذلك وصدى المرأة المغربية المقاومة مستمر، من المقاومة الأولى ضد الاستعمار في جبال الأطلس وغيرها إلى النضال إبان الحركة الوطنية

والمقاومة المسلحة في الخمسينات إلى نضال العاملات والفلاحات والطالبات والكادحات في المعامل والبوادي والجامعة وفي الأحياء الشعبية.

لقد مزقت سعيدة حجاب النضال عن المرأة لتفتح طريق نضالها الطويل ضد شروط اضطهادها المزدوج ومن أجل مجتمع المساواة الحقيقية بين الرجال والنساء.

كانت سعيدة من المناضلات الأوائل اللواتي فتحن طريق النضال النسائي الثوري ببلادنا، بل كانت أول من مهد له وفجر ينابيعه بشفافية ووضوح وصدق وإرادة لا تلين. لم تكن سعيدة لترضى بأنصاف الحلول و حتى في سلوكها اليومي كامرأة وإنسانة كانت صادقة ونزيهة لا تعرف المساومة على حريتها وحرية الآخرين. سعيدة التي لم يمهلها الموت وغادرتنا في مقتبل العمر تركت لنا قصائدها ورسائلها الى عائلتها وبحثا أو مقال لم يكتب له أن يتم. لو أعدنا قراءته لأدركنا الكثير من أفكارها وقيمها النضالية كامرأة رفعت صوتها ضد الاضطهاد المزدوج للنساء ومن اجل تحررهن تحررا كاملا وشاملا. فبمقدمات منهجية تاريخية واعتمادا على نظرة ثاقبة مسلحة بفكر ثوري، تناولت سعيدة الكتابة في موضوع شائك يتعلق بمن يطلق عليهن "النساء العاهرات". فقد قدمت سعيدة نظرتها للتاريخ قائلة" لم يعد التاريخ تاريخا للأسر الحاكمة ولا يحق للمؤرخين المزيفين أن يكتبوا تاريخ شعب، فالناس هم من يصنعون التاريخ بدمائهم. وهذا التاريخ يسجل ذلك الإرهاب الذي يزرعه النظام الرجعي في صفوف الشعب عن طريق أجهزته القمعية....."

"وحدها الإيديولوجية الماركسية اللينينية، إيديولوجية كل الشعوب المستغلة تستطيع أن تنتزع البلاد من نير الإمبريالية والإقطاعية خادمتها المخلصة".

بالنسبة لسعيدة لمنبهي ف " الانحلال والفساد في مجتمع ما تولده طبيعة هذا المجتمع نفسه: المجتمع الرأسمالي باعتباره نظاما استغلال ولا عدالة اجتماعية يغذي مختلف مظاهر الانحلال: الفساد و العهارة."

"من المؤكد، أنه في مجتمع طبقي وفي ظل نظام مفروض على الجماهير من طرف الاستعمار و الامبريالية من أجل الحفاظ على مصالحهما الاقتصادية والسياسية، فالعهارة، الرذيلة والرشوة هي مظاهر ملازمة لهذا النظام. إنها مظاهر يتم نشرها وتشجيعها. الشعب في ظل نظام لا وطني يتعرض للفقر الأكثر قتامة".

في نظر سعيدة فالمرأة المغربية تعاني من استغلال مزدوج " في هذا المناخ الذي يمكن وصفه بالفاشي، لا يمكن لنا أن ننسى الاستغلال المزدوج الذي تتعرض له المرأة في بلد متخلف وتابع. هذا الوضع الخاص للمرأة المغربية، التي تتعرض لمظهرين من الاستغلال: استغلال من طرف النظام مثلها مثل الرجل واستغلال من طرف هذا الرجل نفسه، هو ظاهرة اجتماعية متولدة تلازميا وفي نفس الوقت من طبيعة البنيات الاقتصادية –السياسية و الاجتماعية القائمة. فمن الطبيعي أن تعتبر المرأة في ظل نظام بطريركي مجرد كائن تابع ليس بإمكانه لا امتلاك الأرض ولا اختيار الزوج أو الانفصال عنه، ليس لها إلا وضعية القاصر....."

من خلال مقالها المكتوب من داخل السجن سنة 1976 قدمت سعيدة الأستاذة المتخرجة من المركز التربوي الجهوي بالرباط درسا في البيداغوجية الثورية. فهي لم تنجز بحثها إلا بعد أن انبنت بينها وبين تلك النساء ضحايا المجتمع الطبقي ثقة متبادلة وفي هذا الصدد تقول سعيدة" بيننا وبين هؤلاء النساء حصل تعاطف كبير" وفي مكان آخر على هامش المقال كتبت تقول" بعض الناس حين يتكلمون عن عاهرة يقولونها بنبرة احتقار. نحن نعطي لهؤلاء النساء ضحايا الاستغلال كل الاحترام الذي يمكن أن يستحقن".

في نظر سعيدة هؤلاء النساء كن مرغمات في ظل "نظام لا يهيأ للشباب سوى طريق المخدرات والكحول أو طريق السجن والتعذيب بالنسبة لأولئك الذين اختاروا النضال ضده". ولتكريس الاستعباد و الاستيلاب ترى سعيدة أن "الاستعمال الديماغوجي للدين يسمح بتعزيز الاستغلال والاستيلاب و الاستعباد بالنسبة للمرأة".

أدركت سعيدة جيدا الطبيعة الطبقية للعهارة من خلال دراستها للفئات الثلاث التي تنتمي لهن النساء اللواتي يمتهنها (اللمبن-بروليتاريا، البورجوازية الصغيرة، الفئات "الراقية"). ثلاث فئات من العاهرات لثلاث أنواع من الطلب في سوق المتاجرة بجسد المرأة.

وفي محاولة لسبر غور وعيهن الطبقي والجنسي وقفت سعيدة على ذلك الوعي الحسي لديهن الذي يظل ذا أفق مستلب. فهن يعرفن من هم أعداؤهن ويعرفن أن الدولة متعفنة وغير عادلة لكنهن لا يعرفن ما هي الحلول، محتميات بعامل الزمن، معتقدات أن هذا الأخير خارج أي عمل ملموس كفيل بتغيير واقعهن. وخلصت سعيدة إلى القول أن كل هؤلاء النساء والمرأة بشكل عام لا يمكنهن أن يعرفن تغييرا لوضعية استغلالهن المزدوج إلا إذا اكتسبن وعيا طبقيا وعملن من اجل تغيير جذري للمجتمع ومن اجل بناء مجتمع اشتراكي يمنح للمرأة حقوقها الفعلية أي المساواة التامة مع الرجل ودور فعلي في الإنتاج ومساهمة حقيقية في الحياة السياسية لبلدها. إن تحرير المجتمع كله هو مهمة المرأة والرجل على حد سواء وعلى رأس هذا المجتمع العمال والفلاحون.

ونحن نقرأ هاته الأسطر، يدرك كل المناضلين المخلصين و المناضلات المخلصات جسامة الخسارة بفقدان سعيدة ذلك الاسم الرمز، ذلك العنوان لوطن جريح مستباح والذي لا زالت المرأة تعاني فيه من كل أصناف وفنون الاضطهاد المزدوج فنزداد حماسا للنضال لأن لنا سعيدة في القلوب.

امرأة بهذا الطموح، بهذا الفكر و هذا الحب للشعب، سعيدة ابنة" إلى الأمام" سيكون لها نصيب وافر مما تعرضت له المنظمة من اعتقالات و اختطافات و تعذيب.

- 16 **يناير**1976: **يوم الاعتقال:**

في هذا اليوم من سنة 1976 ستكون سعيدة على موعد ليس ككل المواعيد، ستكون على موعد نحو الدهاليز المظلمة، حيث سترى هناك كل أصناف القبح و الخس، سترى هناك أناس ما هم بأناس، بشر لا كالبشر، ممارسات لا كالممارسات.

كانت سعيدة مواظبة على زيارة أختها خديجة وابنتها فدوى والتي كانت تحبها كثيرا. وفي إحدى أيام يناير الباردة من سنة 76 تدلي لأختها بإمكانية اعتقالها انطلاقا من فرضية اعتقال الرفيق الذي كانت تشاطره مقر سكناها والذي غاب عن الأنظار منذ 48 ساعة، ولم تكن تعرف الجواب عما إذا كان قد اعتقل أم لا.

لم تضيع سعيدة كثيرا من الوقت قبل أن تتوجه إلى مقر سكناها لإفراغه من كل ما يمكن أن يهدد أمن الرفاق وأمن المنظمة من مناشير، وثائق ومعلومات تفيد القمع.

يوم 16 يناير: الساعة السادسة مساء:

كان الوقت مساء وكانت الشمس قد أكملت دورة غروبها، وغابت وراء الآفاق منذ مدة، فأرخى الليل سدوله على المدينة وخيم الظلام عليها، وكان مساء باردا يلفح وجه المدينة، تقف سعيدة أمام الأستوديو الذي تسكنه والذي يقع بحي مدغشقر بالرباط قرب المحكمة الابتدائية حاليا. كانت الساعة السادسة مساء حين وصلت لمنزلها بعد زيارة لأختها خديجة.

ما أن فتحت الباب وحملقت بعينيها الواسعتين في جوانب غرفتها حتى لمحت أن كل شيء في البيت قد انقلب رأسا على عقب: ملابسها، كتبها وأغراضها المختلفة وكأن عاصفة قد مرت من هناك و أصابت الأستوديو.

كانت سعيدة ساهمة البال شاردة الذهن، لقد أدركت بحسها أن اللحظة التي حدست وقوعها قد أصبحت حقيقة. وقبل أن يرتد بصرها و يتشكل رد فعلها ،كان أربعة من الكلاب المدربة من رجال المجرم اليوسفي قدور قاتل الشهيد عبد اللطيف زروال قد انقضوا عليها انقضاض ذئب على فريسته، فريسة ثمينة و كنز غالي لا يقدر بثمن واضعين القيد بمعصميها والعصابة السوداء على عينيها لتنقل، تحت وابل من السباب والنعوت المحقرة للمرأة وللمناضلة، إلى المعتقل السيئ الذكر "درب مولاي الشريف" أو" الدرب" كما يطلق عليه اختصارا لتبدأ رحلة أخرى من حياتها النضالية في مواجهة جلاديها الذين وضعهم النظام الفاشي للتنكيل بالمناضلين وتحطيم كل أشكال وروح المقاومة ضد النهب والاستغلال والاضطهاد التي يمارسها على الشعب المغربي. قضت سعيدة ثلاثة أشهر بالدرب إلى جانب رفاقها ورفيقاتها الذين حصدتهم الحملة الثانية الكبيرة ضد منظمة "إلى الأمام" ابتداء من سنة يناير 76.

كان نصيب سعيدة كبيرا من التعذيب النفسي والجسدي كمناضلة وكامرأة مناضلة داخل المعتقل السري السيئ الذكر، حيث كل الوسائل تستعمل بلا حدود من طرف زبانية النظام وكلابه المسعورة لتحطيم المعنويات وتكسير الإرادة الثورية لدى المناضلين. وباعتبارها امرأة عانت سعيدة من العقلية الذكورية الوحشية للجلادين الحاطة من كرامة المرأة وإنسانيتها الشيء الذي لم تنساه وهي تقف أمام القضاة الوجه المقنع للجلاد في دولة اللا قانون و الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان. أمام قضاتها في المحكمة انتصبت سعيدة بدورها لتحاكم جلاديها في مداخلة دخلت تاريخ النضال السياسي بالبلاد عموما والنضال النسائي خصوصا، لقد صرخت في وجه رئيس المحكمة الذي كان يطبق بالحرف توجيهات النظام وأجهزته القمعية: "لقد عذبوني، وصفت بأسوأ النعوت التي أخجل أن أذكر ولو واحدة منها، كم هو معيب و منحط مجرد التفكير بوجود رجال يعاملون امرأة بهذه الطريقة، و يجعلني أصاب بقشعريرة و يثير استنكاري وغضبي.

فكيف لا أكون مسيسة؟ كيف لا أناضل لتحسين وضعية المرأة؟

لقد اخترت الرجل الذي أردت أن يشاركني حياتي. وهل الطلاق ممنوع بالنسبة لامرأة؟ يتعلق الأمر بحياتي الخاصة."

اهتزت المحكمة بالتصفيقات عندما أعلنت سعيدة تنديدها بأوضاع الاضطهاد الذي تتعرض له المرأة المغربية، وبذلك تكون أول امرأة فعلت ذلك ببلادنا وأمام قضاتها المؤتمرين بأوامر أسيادهم. لقد كانت سعيدة منسجمة مع قناعاتها حتى النهاية غير مبالية بمحاولة الجلاد والقاضي ذلك الجلاد الآخر الماس بشرفها وكرامتها كامرأة مناضلة مقتنعة أشد الاقتناع بضرورة تحرير المرأة المغربية.

من درب مولاي الشريف حيث عانت سعيدة كل صنوف التحقير و الحط من الكرامة ستكون وجهتها التالية نحو سجن "عين برجة" ومن تم ستقدم إلى المحكمة، محكمة الاستئناف بالدار البيضاء وذلك في 3يناير1977.

- أمام المحكمة أو الوجه الآخر للجلاد:

يطرح القاضي الأسئلة و سعيدة تجيب. ما اسمك؟ أنت متهمة بالمس بأمن الدولة و المس بالسلطة القضائية ووو... طقس بليد كان لابد للشهيدة أن تعيش أجواءه في شموخ و اعتزاز بالنفس ودون رهبة من القاضي الوجه المقنع للجلاد.

وقفت سعيدة منتصبة القامة مرفوعة الهامة ترد عن أسئلة القاضي (واسمه أحمد افزاز، قاضي جيء به ليمثل دور القضاء تحت توجيهات اليوسفي قدور وأمثاله وسيكافئه النظام على دوره المخزي بجعله على راس ما يسمى بالمجلس العلمي للجهة الشرقية) واثقة بعدالة قضيتها، قضية شعب يعاني من استغلال وقهر واضطهاد نظام مستبد قروسطي، وقفت سعيدة مبتسمة غير مكترثة بمحاولات زعزعة قناعاتها ومنعها من الكلام والتي كان يقوم بها القاضي، محاولات يائسة للعب بأعصابها وجرها إلى حبل الإدانة كما شاء لها. كانت الأجهزة الاستخباراتية، والحاضرة بكثافة داخل قاعة المحاكمة، تتابع التطورات و تراقبها عبر أجهزة وضعت في الطابق السفلي للبناية التي تحتضن محكمة الاستئناف بالدار البيضاء. كانت الأجهزة الأمنية المختلفة تحاصر

البناية من كل الجوانب، وراج خبر متابعة رأس النظام الكمبرادوري لأطوار المحاكمة من خلال أجهزة التصنت التي وضعتها أجهزته. كانت التوجيهات تصل تباعا إلى منصة الرئاسة وكان الرئيس أحمد أفزاز السيئ الصيت يترجمها فورا وبشكل مفضوح مؤكدا بتصرفاته الطابع الصوري للمحاكمة أمام استنكار هيئة الدفاع وغضب المناضلين والمناضلات وعائلات وأسر المعتقلين. أمام هذا الوضع كانت سعيدة واقفة توزع ابتسامتها على الحضور الذي غصت به جنبات قاعة المحكمة تارة، وتارة أخرى يرتسم الغضب على محياها وهي تتذكر صورة الغائب الكبير عن المحاكمة، الشهيد الذي اغتالته أيادي الجلاد اليوسفي قدور الملطخة بالدماء، كان اسم القائد الشهيد عبد اللطيف زروال على كل لسان، كانت روحه تخيم على المكان. تذكرت سعيدة تلك الأغاني الثورية التي كانت ترددها جماعيا مع رفيقاتها ورفاقها وهي تعبر شوارع البيضاء على متن الإسطافيتات البوليسية (تقول الأغنية: " نريد للجميع، الشغل، الخبز، الفرح، الحرية، سنكسر فولاذ الأسلحة ونصنع خبز الجوعى الضروري...."من الأغاني الثورية الفرنسية)، وعادت إلى ذاكرتها أطوار ذلك الإضراب عن الطعام الذي خاضته مع رفاقها تحت شعار "المحاكمة أو إطلاق السراح" والذي انتزع به الحق في المحاكمة وجعلت النظام يقبل به بعد فشل محاولات الالتفاف والتمطيط والابتزاز التي سخر لها خدامه وأعوانه وانتهازيي الأحزاب الإصلاحية...

كانت رفيقتيها في النضال فاطمة عكاشة وربيعة الفتوح يراقبن باهتمام وقوف سعيدة أمام منصة الاتهام ويبادلنها الابتسامة. (اعتقلت سعيدة وفاطمة وربيعة وبييرا دي ماجيو (المناضلة الإيطالية الصلبة التي رفضت الكلام في الدرب في تحد قوي للجلاد اليوسفي قدور وزبانيته، مجسدة بذلك تقاليد الحركة المناهضة للفاشية في إيطاليا و التي كانت إحدى مقاوماتها...) ضمن نفس الحملة القمعية التي تعرضت لها منظمة "إلى الأمام" ابتداء من يناير76.

بإصرار المناضلات الشيوعيات الماركسيات اللينينيات وبقوة إرادتها انتزعت سعيدة الحق في الكلمة، مدافعة عن انتمائها إلى منظمة "إلى الأمام" ومتحدية من أرادوا محاكمتها، محاكمة النظام وجلاديه وذلك رغم أجواء التهديدات بمحاكمة عسكرية

والحكم بالإعدام التي كان يلوح بها ممثل النيابة العامة وغضب رئيس المحكمة الذي كان فاقدا لصوابه في أغلب أطوار المحاكمة، مما فجر رد فعل قوي لهيئة الدفاع فانتصب أحد المحامين واقفا موجها له بقوة وعناد تحت تصفيقات الحضور:

"القاضي لا يحكم وهو غضبان" مما زاد في حنق الرئيس على هيئة الدفاع، فانفضح دوره أمام الجميع.

عرفت أطوار المحاكمة الصورية التي أقامها النظام لمناضلي الحركة الماركسية –اللينينية المغربية لحظات مثيرة تخللتها الأناشيد والشعارات الثورية، واضطر القاضي الفاشي إلى الهروب من القاعة التي كانت تدوي بعبارات فاشيست، فاشيست، فاشيست. وبعد لحظات يعود أحمد أفزاز بعد استشارة أسياده القابعين في مكان ما يملون عليه ما يجب أن يفعل، ليصدر قراره بمنع "المتهمين" من الحضور الجماعي إلى قاعة المحاكمة، مما ساهم في اندلاع إضراب عن الطعام ضد المساس بالحقوق الأولية للدفاع و"المتهمين". ودام الإضراب 19 يوما حيث كان يحضر المتهمون إلى قاعة المحكمة واحدا واحدا وهم وهن في حالة إضراب عن الطعام.

هكذا ومن قلب الحصار، ورغم التهديد ورغم محاولات إسكات صوتها، تكلمت سعيدة ولم تتراجع مدافعة عن مواقف منظمتها، مطالبة بحل ديمقراطي لقضية الصحراء، ومنددة بظروف الاضطهاد الذي تعاني منها المرأة المغربية ومدافعة عن حريتها في اختيار شريك حياتها ومستنكرة الأساليب الذكورية الوحشية الحاطة من كرامة المرأة والتي مورست في حقها من طرف كلاب اليوسفي قدور المسعورة.

كانت سعيدة تبتسم، كانت عيونها الواسعة الجميلة تحلق في البعيد، كانت شهمة معتزة بانتمائها الشيوعي، حين دوت القاعة بالتصفيقات في تحية حماسية لجرأتها وشجاعتها.

مرت الأيام وانسدل الستار عن تلك المحاكمة الصورية التي أظهرت للعالم طبيعة نظام لا وطني، لا ديمقراطي ولا شعبي.

مرت على المحاكمة شهران منذ انطلاقها في 3 يناير العام 1977، وفي إحدى الليالي الباردة وتحت جنح الظلام نقلت سعيدة ورفاقها إلى قاعة المحكمة ليصدر في حقها حكم بخمس سنوات إضافة إلى سنتين بحجة الإساءة للقضاء. صدرت أحكام قاسية في حق مناضلي الحملم (مئات السنوات من السجن: خمس أحكام بالمؤبد، عشرين حكما بثلاثين سنة،45 حكما بعشرين سنة وأكثر من أربعين حكما بعشر سنوات).

كانت أشعة الفجر الأولى ترتسم في الأفق حين احتل المعتقلون جنبات المحكمة وصعدوا فوق طاولات الجلوس مرددين جماعيا نشيدهم الثوري:

لنا يارفاق لقاء غدا سنأتي ولن نخلف الموعدا

فهاذي الجماهير في صفنا ودرب النضال يمد اليدا"

سنشعلها ثورة في الجبال سنشعلها ثورة في التلال

وفي كل شبر سنبعثها نشيدا يجدد روح النصال

فلا السجن يوقفنا والخطوب فليس يهدم عزم الشعوب

طغاة النظام مضى عهدهم وشمسهم قد آذنت بالغروب

كانت اللحظة مؤثرة وثورية بامتياز تخترقها زغاريد النساء ووقوف كل الحاضرين في قاعة المحكمة في تحد حماسي للأحكام الجائرة ولمن حبكوها: النظام الكمبرادوري وزبانيته.

لقد سقط القناع مرة أخرى عن وجه نظام دموي حول البلاد إلى سجن كبير، غير مكترث بالقوانين الدولية الإنسانية والحقوقية، معتقدا بذلك أنه سيقضي على كل أشكال المقاومة لسياسات النهب و الاستغلال و الاستبداد و الاضطهاد التي يمارسها.

- بعد صدور الأحكام:

نقلت سعيدة مع رفيقاتها إلى سجن "عين برجة"(سجن مدني بالدار البيضاء) بينما عاد باقي المعتقلين إلى سجن "غبيلا" (سجن مدني بالبيضاء). حين أقفلت باب زنزانتها لم تكن سعيدة تعلم أنها عاشت آخر لقاء لها مع رفاقها، كانت لحظة وداع قبل الأوان، فسعيدة، ستخوض معركتها الأخيرة وستكون آخر رابط لها بالحياة و بالعالم عندما ستدخل في إضراب طويل عن الطعام ستسقط خلاله شهيدة لتلتحق بمواكب الشهداء.

- معركة سعيدة لمنبهي الأخيرة:

كان المعتقلون السياسيون الذين تم نقلهم بعد صدور الأحكام من سجن "غبيلة" إلى السجن المركزي بالقنيطرة ، الذي بنته السلطات الاستعمارية في المغرب ،وهو أحد أكبر سجون إفريقيا، يقضون أول صيف لهم هناك، سجن يلخص تاريخا بأكمله لمناضلي الشعب المغربي ضد الاستعمار بشكليه القديم والجديد، سجن، تظهر أمامه السجون الأخرى صغيرة جدا لحد أنها لن تحتل أكثر من حي من أحيائه. مدينة اعتقال صغيرة بأحيائها ومعاملها ومطبعتها، مدينة خارج الزمن حيث يمر الوقت بطيئا وحيث حساب الزمن مختلف إلى حد أن معتقليه من "الحق العام" اخترعوا طريقة لحساب الزمن فريدة من نوعها فكانوا يرددون أمام كل داخل جديد" الصيف والصيف تمنيام (8 أيام) والصيف خمسطاش اليوم (15 يوما)، كان يظهر ذلك غريبا لكل قادم جديد لكن ما أن تتوطد أقدامه هناك حتى يدرك كنه تلك العبارة: فالسجن بشكل عام يضم بين جنباته ذوي الأحكام القاسية من حكم الإعدام والمؤبد والأحكام المحدودة من عشر إلى ثلاثين سنة.

وصل المعتقلون السياسيون الماركسيون اللينينيون إلى السجن المركزي بمدينة القنيطرة، بعد أطوار محاكمة صورية في اليوم السابع من مارس من عام 1977. وقد تم نقلهم إلى هناك في "كاميونات" (شاحنات) السيمي (الفرقة المتحركة للتدخل) مغطاة، تحت حراسة مشددة وبمراقبة من الطائرات المروحية.

- **صيف 1977 والطريق إلى المعركة الأخيرة للشهيدة.**

في صيف 1977 كانت الأمور تظهر داخل حي "أ" وحي "ب" (حيث يقيم معتقلوا محاكمة البيضاء 77 بالسجن المركزي بالقنيطرة) عادية من الخارج، إلا من بعض المناوشات مع الإدارة وبعض الإضرابات عن الطعام القصيرة (24 س أو 48 س) أو احتجاجات أسر وعائلات المعتقلين ضد تصرفات الإدارة. كان المعتقلون منكبين على تهيئ معركتهم الكبرى ضد الأوضاع التي كانوا يعيشونها ومن أجل انتزاع حقوقهم كمعتقلين سياسيين. كان التهييء يتم في كامل الكتمان لمعركة ستكون كبرى. كان الهدوء الذي يسبق العاصفة.

رغم العزلة عن رفاقها كانت سعيدة تتابع عن كثب كل ما يجري، وتساهم هي ورفيقاتها في النقاش الجاري داخل منظمة "إلى الأمام" وبين المعتقلين السياسيين. كانت سعيدة متحمسة للإضراب وكانت تشرف على التنسيق مع رفاقها في ظروف أمنية بالغة الصعوبة والتعقيد. كان لازما الحفاظ على سرية الإضراب كما كان تاريخه قد وضع تحت سرية تامة.

في أواخر أكتوبر 77 و بداية نونبر من نفس السنة، حدد يوم 8 نونبر كتاريخ لانطلاق المعركة البطولية التي خاضها المعتقلون السياسيون بالسجن المركزي، والتي دامت 45 يوما. بالنسبة لمنظمة "إلى الأمام" وقيادتها كانت كلمة السر و رمز المعركة يحملان اسم" الشهيد عبد اللطيف زروال".

في السجن المركزي، و في صبيحة يوم 8 نونبر يسلم أحد الرفاق رسالة إلى رئيس حراس حي "أ" بالسجن المركزي ليسلمها بدوره إلى مدير السجن الذي تقضي الإجراءات الإدارية بإرسالها بدوره وتحت إشرافه إلى المدير العام لإدارة السجون بالرباط وإلى وزير العدل. وما إن قرئت الرسالة حتى دبت حركة غير عادية داخل إدارة السجن المركزي، لقد كانت المفاجئة كاملة.

في نفس اللحظة وفي نفس التوقيت تعلن المعتقلات السياسيات بسجن "عين برجة" (سعيدة لمنبهي، فاطمة عكاشة و ربيعة الفتوح) والمعتقل السياسي بسجن غبيلا أبراهام السرفاتي دخولهم المعركة إلى جانب رفاقهم بالسجن المركزي. كانت المطالب واضحة (تحسين الأوضاع المادية والصحية للمعتقلين، من تغذية، وعلاج، وزيارة مباشرة، وفسحة وحيازة المذياع والجرائد والكتب ومتابعة التعليم، وفك العزلة عن الرفاق بسجن "عين برجة" وغبيلة و إلحاقهم برفاقهم...).

لقد انطلقت معركة 8 نونبر 77البطولية.

دامت المعركة 45 يوما من العناد والإصرار والمواجهة والتصدي لمناورات النظام وأحزابه السياسية، التي فضلت الصمت قبل اللجوء إلى المناورة تحت ضغط تضامن وتعاطف الرأي العام الديمقراطي والحقوقي الدولي، ليشكل النظام لجنة مفاوضات تحت إشراف وزير العدل آنذاك المعطي بوعبيد (اللجنة البرلمانية كان يرأسها الاتحادي فتح الله والعلو).

كانت سعيدة تخوض معركتها الأخيرة إلى جانب رفاقها ورفيقاتها بصمود وعزيمة لا تلين.

وبدأت الأوضاع الصحية للمعتقلين السياسيين تسوء يوما بعد يوم نتيجة الإهمال واللامبالاة وصمت النظام وأحزابه، وكانت حركة العائلات التي تقودها النساء (أمهات وزوجات وأخوات المعتقلين والمعتقلات تخوض نضالاتها المستميتة ضد الصمت واللامبالاة وضد جريمة النظام وضد روح الانتقام الطبقي لدولة متعفنة). تقول عنهن خديجة المنبهي في كتابها "منتقيات من كتاب الاضطهاد" "هؤلاء النساء اللواتي لم يسبق لهن في أغلبيتهن تقريبا، الخروج من بيوتهن، سيتحولن إلى مناضلات

مكافحات من أجل قضية أبنائهن"، "كانت اللحظة مثالية بالنسبة لهن للتحرر من السلطة الزوجية وتعلم تجربة جديدة: تجربة أم، زوجة، أخت المعتقل، تعلم النضال من أجل أن يستفيد ذاك أو تلك من أحسن ظروف الاعتقال أو ببساطة إطلاق سراحهم (ن) أو لتحديد تاريخ محاكمتهم (ن)". لولاهن ولولا إصرارهن وصمودهن لسقط العشرات من الشهداء.

من تداعيات و مضاعفات الإضراب الطويل عن الطعام سيتم نقل سعيدة ورفيقتيها فاطمة وربيعة إلى مستشفى ابن رشد بالدار البيضاء بعد أن ساءت حالتها الصحية وقد وضعت الرفيقات الثلاث في غرفة صغيرة ذات نافذة صغيرة.

و في يوم 10 دجنبر و بعد 33 يوما من بداية الإضراب، نقلت سعيدة إلى غرفة كبيرة وهي في حالة غيبوبة (كوما) حيث ظلت ملقاة على الأرض تحت مراقبة "أمنية" و ليس طبية، فكان رجال السيمي يراقبون نبضاتها ويحملون أدواتهم الطبية رشاشات سوداء مستعدة للإطلاق، أما الأطباء فكأن الأرض ابتلعتهم "فلا قسم أبوقراط نفع ولا ضوء البذلة البيضاء سطع ولا تدخل الهيئة الطبية وقع". كانت سعيدة تعيش لحظاتها الأخيرة فاقدة للوعي بل تحتضر ومن حولها أختيها خديجة و الباهية يقبلانها وتحثانها على المقاومة والبقاء "عيشي حبيبتي قاومي، سعيدة نحبك كثيرا" كانت الكلمات مؤثرة وقوية ترن وسط قاعة ممتدة الأطراف حيث كانت سعيدة ملقاة على الأرض، إنها كلمات وداع أخيرة ولا أحد كان يعلم أنها الأخيرة.

فهل سمعت سعيدة تلك الكلمات الأخيرة؟ سيبقى السؤال دائما و سيظل الجواب أيضا غائبا.

و في يوم 11 **دجنبر** 1977**و كانت الساعة الخامسة صباحا،** توقف قلب سعيدة عن الخفقان وسط إهمال طبي إجرامي من النظام، الأم فخيته الهيلالي تصل على عجل إلى مستشفى ابن رشد وهي تحمل معها أشياء لسعيدة فتصاب بالصدمة ما أن أخبرتها ابنتيها بموت سعيدة. كانت كلماتها وهي تسمع الخبر تنم عن ألم وحزن الأم العميق بعد موت حبيبتها سعيدة: "كنت عارفها، عارفها، قلبي علمني، هداكشي علاش جيت ليوم".

يوم 12 **دجنبر** 1977: سعيدة لمنبهي تدخل مدينة مراكش دخول الأبطال الشهداء.

في هذا اليوم تدخل سعيدة مدينة مراكش، بعد سنوات من الغياب دخول الشهداء، كمناضلة ثورية ماركسية لينينية ورمزا لنضال المرأة المغربية.

كان الأب في انتظارها عند باب بيت الأسرة يداري حزنه وألمه على فقدان صغيرته الجميلة، كان البيت غاصا بعائلات المعتقلين السياسيين الذين جاؤوا من كل الجهات. حضر محامو حقوق الإنسان والعديد من المناضلين والمواطنين. كانت سعيدة وهي في كفنها الحريري الأبيض وسط منزلها الأبوي جميلة حتى في موتها.

وانطلق الموكب الجنائزي نحو مقبرة الشهداء بباب دكالة، كان الحضور لافتا وحاشدا، كانت الجنازة مهيبة تليق بمناضلة كبيرة استشهدت من أجل قضايا شعبها. وفي طريقها إلى مثواها الأخير أطلقت حناجر المودعين والمودعات: "سعيدة الشهيدة، في التاريخ خالدة" وتلقفتها الحشود فكانت لحظة وداع مؤثرة لرمز النضال النسائي المغربي.

في إحدى رسائلها من السجن كتبت سعيدة تقول: "اذكروني بدون ألم، وتكلموا عني لأبنائكم". وبعد 34 سنة على استشهادها لازالت أجيال المناضلين والمناضلات تردد اسمها في كل مواقع النضال، ولا زالت المناضلات تغني لها في كل حفل ومناسبة ومسيرة وحركة نضالية، سعيدة اسم على كل لسان...

-من شهيد إلى شهيدة وإلى كل الشهداء

قبل استشهاده بسنتين كتب الشهيد زروال يقول في قصيدة له:

"ها أنذا أسقط في الساحة: أحمل وردة حمراء....تنزف دما::ها أنذا عريان أزحف فوق القتلى::وألم أطرافي...كي أمسك بالراية الممزقة::وأنفخ بدمي في رماد الشرارة المحترقة::هاأنذا أدفع الضريبة::فلتباركي موتي يا حبيبة."

لا ندري هل قرأت سعيدة هاته الأبيات، ولكنها ككل رفاقها ورفيقاتها ستخلد اسمه في كتاباتها، فمن يكرم الشهيد يتبع خطاه، لقد أقسمت أن تموت ماركسية لينينية فأوفت بوعدها.

- على خطى الشهيد عبد اللطيف زروال

تقول سعيدة في إحدى نصوصها الشعرية:

لحظة

لن أتنازل

ولو تحت الأرض

سنشق طريقا

نحو النور

فقي القلب

زروال

فتحية إلى روح سعيدة الخالدة وسنردد دائما ومن بعدنا الأجيال القادمة: "سعيدة الشهيدة، في التاريخ خالدة"

ومن يكرم الشهيد يتبع خطاه حتى النصر.

الرفيق فؤاد الهيلالي (10 ـ 8 ـ 2013)

جيانغ جينغ: مسار امرأة صينية ثائرة

(الصين)

تقديم :

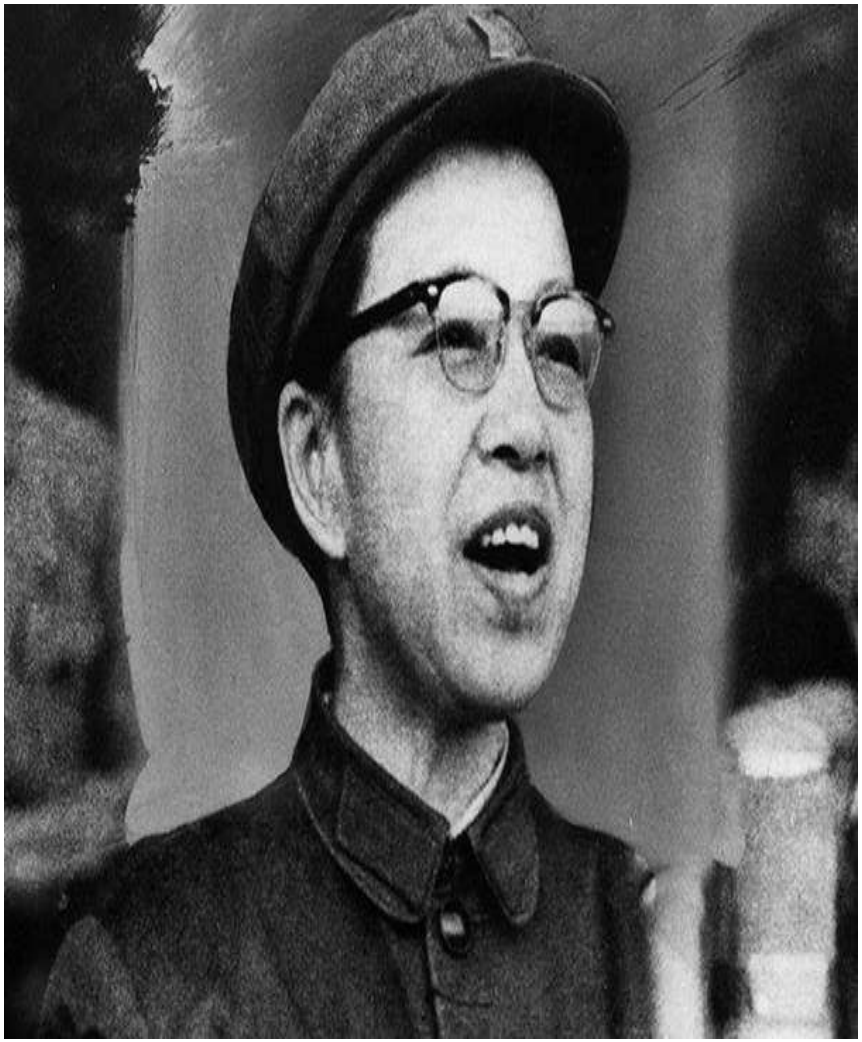

خلال إنجاز هذا النص، الذي يتناول مسار جيانغ كينغ، الشيوعية الثورية البروليتارية، اعترض سبيل الكتابة شح في المعلومات و المادة الخام الضرورية لتتبع هذا المسار، لكن كما يقال، إذا ظهر السبب بطل العجب، فقد تم التيقن من الأسباب و الدوافع التي توجد وراء هذا الإهمال المتعمد، المتعلق بحياة هذه المرأة الصينية الثورية. فقد ضرب الحكام الجدد للصين بعد وفاة ماو تسي تونغ حصارا ممنهجا، هدفه محو جيانغ من الذاكرة، و ممارسة سياسة الإلغاء للشخص و كل إنجازاته لصالح الجماهير و البروليتاريا الصينية، و قد تلاقت هذه الخطة الممنهجة مع المعادين من الامبرياليين للصين و ثورتها الاشتراكية، لذلك فقد تم استغلال بطريقة عكسية حتى المراجع المعادية و الاعتماد عليها لاستخراج ما يفيد موضوعنا هذا حول جيانغ.

من جهة أخرى، فإن الثورة الصينية بقيادة الحزب الشيوعي الصيني، و زعيمها الثوري ماو تسي تونغ، تتعرض لهجمات مكثفة، تعمل على التشويه

و قلب الحقائق و نشر المغالطات و خلط الأوراق، من أجل حرمان الثورة الصينية من مضمونها التحرري الديموقراطي الثوري و الاشتراكي، و نعتها بالثورة البورجوازية، و في هذا يلتقي أعداء الثورة الصينية و خصومها، و من لا يفقهون شيئا مما يقولون، الجاهلون بتاريخها العظيم.

إن استهداف جيانغ كينغ من طرف التحريفيين و الرجعيين و الامبرياليين، هو نتيجة سببين:

أولهما، كونها امرأة حملت لواء الثورة ضد القيم الرجعية الباترياركية، و ضد التقاليد الإقطاعية البالية، التي تضطهد المرأة الصينية، سواء داخل المجتمع، أو لدى بعض القيادات داخل الحزب، التي لم تتخلص من تلك القيم الكونفوشيوسية الإقطاعية.

ثانيهما، كونها رفعت لواء النضال من أجل الثورة الاشتراكية، و التي ذهبت فيها إلى أبعد مدى، من خلال قيادتها للثورة الثقافية البروليتارية في الصين، التي جسدت ثورة داخل الثورة، من أجل استمرار الثورة الاشتراكية تحت قيادة البروليتاريا و الجماهير الثائرة، و من أجل اقتلاع جذور و حصون التحريفية داخل الدولة و داخل الحزب الشيوعي الصيني.

تجسد جيانغ كينغ نموذج المرأة الثورية الشيوعية البروليتارية، المناضلة بلا هوادة من أجل أن تسود القيم الاشتراكية و البروليتارية، في مجالات حقوق المرأة و الاقتصاد و الفنون و الآدب و الثقافة بشكل عام، مطبقة في ذلك خط الجماهير بمعناه الشامل، الذي يجعل من الفكر و الفلسفة و الأدب و الفن في خدمة الجماهير، بل تجعلها في متناول الجماهير بعد إسقاطها من أبراجها العالية.

إن الثوريين الماركسيين – اللينينيين المقبلين على دورة جديدة من أجل بناء أحزاب ماركسية – لينينية حقيقية، عليهم أن يستحضروا هذا النموذج الشامخ من النساء الثوريات، اللواتي و قفن حتى النهاية منتصبات القامة مرفوعات الهامة أمام العدو مهما كان شكله و طبيعته و فكره و موقعه، و يكفينا هنا ذكر كلمتها الشهيرة أمام محكمة جلاديها

" لنا الحق في الثورة! فليسقط التحريفيون من أمثال دينغ كسياو بينغ! أنا مستعدة للموت!"

لكي نقف على أية ثورية هذه الثورية، أية بروليتارية هذه البروليتارية، أية شيوعية هذه الشيوعية، و باختصار أية امرأة هذه المرأة.

"ساعدوا جيانغ على التلويح بالعلم الأحمر" ماو تسي تونغ

جيانغ كينغ : مسار امرأة صينية ثائرة

في شهر ماي، في يوم 14 من سنة 1991 يغيب الموت – القتل إحدى قائدات الثورة الصينية العظيمة جيان كينغ، وبهذه المناسبة يخلد موقع "8 مارس الثورية" هذه الذكرى في إطار الوقوف على الدور الذي لعبته النساء في سيرورة الثورة الصينية العظيمة، وأيضا بمناسبة الذكرى الثامنة والستين للثورة الصينية العظيمة، وهذه الكراسة - في حلقات – هي استعراض للمسار النضالي والحياتي لجيانغ كينغ.

تقديم:

في 14 من شهر ماي لسنة 1991 يغيب الموت – القتل إحدى قائدات الثورة الصينية العظيمة، عندما أن امتدت أيادي التحريفيين إلى هذه المرأة الشيوعية العتيدة، بعد أن تمكنوا من السلطة إثر وفاة ماو تسي تونغ زعيم الثورة الصينية.

لقد كان موت ماو تسي تونغ في التاسع من شتنبر، بمثابة العد العكسي لما سيقوم به التحريفيون ضد الثورة – ضد الشعب – ضد العمال والفلاحين – ضد النساء – ضد كل ما جاءت الثورة من أجل تخليصه من آلاف السنين ومئات القرون من الاضطهاد

والاستعباد والقهر. وطبعا سيبدأ التحريفيون بما يجب البداية به، من تشويه لصورة جيانغ كينغ ورفاقها، وهكذا أطلق التحريفيون عليهم نعت "عصابة الأربعة" (جيانغ كينغ 1917 – 1991 ، زانغ تشان كياو 1917 – 2005، عضو اللجنة الدائمة للمكتب السياسي للحزب، ياو وان يو وان 1931- 2005 ، عضو اللجنة المركزية للحزب، وانغ هونغ وين 1935 – 1992 نائب رئيس الحزب) لتأليب الشعب الصيني ضد تراث ماو، ضد من لاحق التحريفيين وراقبهم وشهر بهم من أجل انتزاع السلطة السياسية منهم، هذه الدعاية التي تلقفتها البورجوازية العالمية لتستعملها ضد الثورة الصينية عامة والثورة الثقافية البروليتارية الصينية خاصة، لقد كانت هذه الدعاية آلة جهنمية لسحق قادة الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى معنويا قبل أن يكون هذا السحق سياسيا، وكما هي عادة التحريفيين دائما، التشويه ثم التشويه والكذب ثم الكذب حتى يصدق كل غير مصدق، فكل أفعال التحريفيين وسلوكاتهم وخياناتهم للعمال والفلاحين أسقطوها على كاهل جيانغ كينغ، وأصبحت ورفاقها العدو الحقيقي لماو، فخونة الثورة اعتبروا الإخلاص لخط ماو والخط الثوري "ثورة مضادة".

بين الخط الثوري الذي يمثله ماو، والخط التحريفي، أخلصت وسارت جيانغ كينغ على الطريق الأول وأدى الطريق الثاني بأصحابه إلى الوصول إلى السلطة، وللوصول إلى هذه السلطة كان لابد من التشويش على الخط الثوري للوصول إلى إعدامه، وبما أن جيانغ كينغ (ورفاقها) قد قضت مضجع التحريفيين، وبما أنها شكلت عقبة كأداء أمام تحقيق هذا المطمح، فقد كان لابد من إخراس صوتها إلى الأبد.

"**إن النساء نصف السماء وعليهن انتزاع النصف الآخر**" هكذا تكلم ماو تسي تونغ،

وهو الشعار الذي التقطته جيانغ كينغ فحرصت على أن يلازمها طوال مسارها النضالي والحياتي، لذلك لحقها كل ذلك العداء من طرف التحريفيين.

إن العداء لجيانغ كينغ لم يكن وليد مرحلة الثورة الثقافية الصينية البروليتارية الكبرى، التي كانت جيانغ كينغ رائدتها، بل إن العداء لها له تاريخ يعود لما قبل ذلك، أي منذ انخراطها في الحزب الشيوعي الصيني، فقد أرعبتهم، وهم الذين ينحدرون من مجتمع فلاحي محافظ تجاه النساء، امرأة متحررة خلعت عذارها، وأساسا منذ ارتباطها بماو، ألم يتدخل قادة الحزب في زواجها بماو ووضعوا شروطهم بعدم قيامها بأي دور سياسي علني.

فكيف انتقلت جيانغ كينغ من امرأة تهتم بالفن، والذي كان شغفها الأول ووسيلتها في التعبير، إلى ثورية تنخرط في الحزب الشيوعي وترتبط به وتناضل فيه إلى آخر رمق في حياتها؟ كيف ارتبطت بالجماهير التي أحبتها وبادلتها حبا بحب، كيف نصبت المحاكم للتحريفيين قبل أن ينصبوها لها، كيف ترافعت أمام محاكم التحريفيين وأفحمتهم، و أدانتهم قبل أن يدينوها، هذا ما تتعرض له هذه المقالة وغيره مما طبعت به حياة جيانغ كينغ تاريخ الصين الحديث، تاريخ الصين الجديدة، الصين الاشتراكية.

مدخل:

من أجل إدراك الدور الذي قامت به جيانغ كينغ، القائدة الشيوعية الماركسية-اللينينية، الوفية للثورة الصينية حتى آخر رمق في حياتها، تلك الحياة التي وهبتها كلها للثورة بهدف بناء صين جديدة، صين خالية من الاستغلال و الاستبداد و الاضطهاد، تلك المناضلة الثورية، التي فهمت أن الاشتراكية كنظام اقتصادي و اجتماعي، و التي تم بناؤها في بلاد شبه اقطاعية شبه

استعمارية مثل الصين، لا يمكن أن تغير حياة الصينيين بدون إحداث ثورة في البنية الفوقية، في العقليات، و خلق ثقافة جديدة تتمشى مع الوضع الجديد للصين، ثقافة تعكس الأسس المادية للبناء الاشتراكي.

من أجل كل هذا، و لمواقفها الثورية الجريئة، و لمدة 15 سنة كانت جيانغ كينغ سجينة لدى التحريفيين، الذين انقضوا على السلطة سنة 1976 مباشرة بعد موت ماو تسي تونغ في شتنبر من نفس السنة.

لقد ناضلت جيانغ كينغ بصرامة طيلة حياتها النضالية ضد القوى التي أرادت الإبقاء عليها غير مرئية و صامتة، أي كامرأة ظل لماو، داخل الحزب الشيوعي وخارجه، و انتهت حياتها في السجن، بعد إصابتها بالسرطان في 14 ماي 1991 على أيدي أعدائها الملطخة بالدماء، و ادعت السلطات التحريفية كما عادة كل الأنظمة الرجعية بأنها انتحرت، في محاولة لتبخيس المناضلة الثورية التي كانتها هذه المرأة، و للتقليل من أهمية كل العطاءات التي منحتها للثورة، أي القيام بعملية محو مخزية لا يليق بفعلها سوى التحريفيون.

بالنسبة لأولئك الذين يحلمون بالثورة، بل أكثر من ذلك، أولئك الذين يقدرون على القيام بها، فإن جيانغ جينغ تظل نموذجا للشجاعة، بنضالها الذي لا ينقطع ضد العادات القديمة و الأفكار الرجعية و المحافظة.

فمن أجل زرع أفكار جديدة عبر المنعطفات و التقلبات الدامية أحيانا، التي سمحت بخلق نظام جديد، بإخلاصها لقضية الشيوعية – لقضية ماو – كانت طيلة حياتها قادرة على تقديم إسهامات هامة للتربية ولفهم الثورة البروليتارية.

لقد دافعت بكل جوارحها عن حق الجماهير في زعزعة السماوات، و تحدي التقليد في كل مناحي الحياة، و ناضلت من أجل تحويل العالم من الأسفل إلى الأعلى من أجل كنس الطبقات، و كل أشكال اللامساواة الاجتماعية، الشيء الذي خلق لها صراعات مع أولئك الذين وقفوا ضد هذه الرؤية الطموحة التي علمها لها ماو. لقد كانت الماركسية – اللينينية دائما، و إسهامات ماو في قلب الإيديولوجيا التي كانت دائما تدافع عنها.

و بالرغم من أنها لم تتح لها فرصة لعب دور علني في الحياة السياسية قبل سنوات الستينات، فقد كانت في سنوات حصارها من طرف الأعداء من داخل الحزب أكثر من خارجه، قد تهيأت للأدوار العظيمة التي ستقوم بها فيما بعد، من خلال الأبحاث و التحقيقات التي اضطلعت بها في الميدان الثقافي، خاصة في ميدان الفنون، و في ميادين أخرى مثل الإصلاح الزراعي. و في الصراعات الداخلية التي كانت تهز الحزب زمن "القفزة الكبرى إلى الأمام" وبعدها، ساعدت ماو و العناصر الثورية بكل همة و تفاني، في إطلاق الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى.

لقد غاصت هذه البروليتارية اللامعة، التي لا تلين لها قناة، بسرعة و حيوية قل نظيرها في قلب النضال و معمعانه، كلما تطلبته تلك الأوقات المضطربة للثورة الثقافية، فقد ضخت فيها طاقة سياسية هائلة، و تحملت فيها القيادة في جزء كبير منها، مساندة الشباب المتمرد و مانحة بسخاء نصائح عملية للشعب، الذي يناضل من أجل الخروج من الدروب المطروقة و أخذ طريق التجديد، طريق الاشتراكية.

كان نضال جيانغ كينغ ضد التحريفيين – الذين كانوا أغلبية – في المجالات الهامة للثقافة و للتربية، هو الذي رسم الطريق للإطاحة بهم خلال الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى، كما تركت بصمتها أيضا في تثوير الفنون، و ناضلت من أجل تقدم النساء، بإزالة بعض العقبات، كما قدمت المثال عن النموذج الحي للتحرر.

كقيادية بارزة في الحزب الشيوعي الصيني خلال العشر سنوات الأخيرة للسلطة البروليتارية، انخرطت جيانغ كينغ بكل نشاط في الصراع الطبقي الشرس داخل الحزب، مقاتلة بلا كلل، من أجل تعزيز الطابع البروليتاري الثوري، و الخط الصحيح للحزب، تحت قيادة ماو، من أجل الدفاع عن تقدم الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى و تقويتها، و قد كانت الأجنحة التحريفية آنذاك داخل الحزب الشيوعي الصيني تأمل تحطيم الخط الثوري لماو، مستغلة كل منعطف في الصراع، وإعادة تنظيم جديدة داخل الحزب لكي تحاول إرجاع الرأسمالية و السير بالصين في الطريق الاشتراكي الامبريالي الفاشي.

إن هذا و غيره كثير و عظيم من المسار الذي سارت فيه جيانغ كينغ قبل أن يؤدي إعدامها إلى وقفه، من طرف أولئك الذين ظلت المرأة شوكة في حلقهم، الثورية المزعجة للتحريفيين، البروليتارية التي استماتت في الدفاع عن أفكارها إلى أبعد مدى.

فما السياق التاريخي لنشأة جيانغ كيينغ؟ ما هي الإنجازات التي حققتها للصين و للثورة الصينية؟ هذا ما ستحاول هذه الكراسة إبراز بعض عناصره.

I - جيانغ كينغ : الولادة و النشأة

1) "إن النساء نصف السماء و عليهن انتزاع النصف الآخر" (ماو تسي تونغ)

ولدت جيانغ جينغ في 19 مارس 1914 في مقاطعة شانتونغ في منطقة كانت تحت مراقبة الألمان، في إطار تقسيم الكعكة الصينية بين الدول الامبريالية المتنافسة حول المستعمرات، و خلال الحرب العالمية الأولى احتلتها اليابان واستعملتها كطريق نحو أطماعها في الصين.

من أسرة حرفيين فقراء، إذ كان والدها صانع عجلات يرمي جام غضبه، لكونه فقيرا، على زوجته و أطفاله، يعنفهم بكل قسوة، إلى أن قامت زوجته في نهاية المطاف بهجرانه للعمل كخادمة عند أحد الملاكين العقاريين.

هجرت جيانغ كينغ البيت مع والدتها لتستقر عند جدتها في خونان، لكن في سنة 1928 تركتها أمها و عمرها لا يتعدى 14 سنة.

لقد ولدت جيانغ في صين شبه إقطاعية، في ظل نظام باتريارکي إقطاعي، حيث كانت المرأة مجردة من كل الحقوق، و تعيش خارج أية حياة سياسية و اجتماعية، عاشت في مجتمع كانت فيه المرأة سبة و عار، مجتمع مثقل بالعادات و التقاليد، و كانت مجبرة كقريناتها من الطفلات على تضميد القدمين لمنع نموهما، حتى أنه بحكم تفشي هذه العادة أطلق على نساء الصين "النساء ذوات القدمين المضمدة".

و في سنة 1911، أي ثلاث سنوات قبل أن ترى جيانغ كينغ النور، بدأت بوادر التغيير تصل إلى الصين، ففي هذه السنة عرفت الصين واحدة من ثوراتها، التي أطلقت حملة نسائية، هدفها تحقيق المساواة بين الرجال و النساء، لكن هذه الثورة ذات الطبيعة البورجوازية لم تستطع تغيير الوضع البئيس للمرأة الصينية، التي عانت قرونا من الاضطهاد و الاستعباد، لكن ستهب رياح جديدة على بلاد الصين، عندما تأسس الحزب الشيوعي الصيني، على يد مجموعة من المناضلين كان من بينهم القائد الثوري ماو تسي تونغ، الذي وضع كأحد أهدافه تحقيق تحرر المرأة و المساواة بين الرجال و النساء، لذلك، و خدمة لهذا الهدف أطلق ماو تسي تونغ الشعار الشهير : **"إن النساء نصف السماء و عليهن انتزاع النصف الآخر"** هذا الشعار الذي ستتلقفه جيانغ كينغ و ستحرص على أن يلازمها على طول مسارها النضالي و الحياتي.

تتذكر جيانغ كينغ كيف أنها عانت من الجوع مرارا، فقد ترعرعت في عصر كانت فيه البربرية الامبريالية تجوع الصين، في زمن، كما قال ماو :

"كانت الأشجار عارية مثل الشعب، حيث الشعب كان يأكل الأوراق، و في ظروف الاضطهاد الإقطاعي، التي كانت فيها الفلاحات يتمنين أن يتحولن إلى كلاب لكي يكن أقل بؤسا" (في إحدى المقابلات مع ماو).

لكن هذه النشأة البئيسة لم تؤثر على الفتاة، فقد انخرطت سنة 1929 في أكاديمية الفنون الدرامية، و تزوجت في السنة الموالية و عمرها لا يتعدى 16 سنة، لكن سرعان ما انتهى هذا الزواج بالطلاق في هذه السن الصغيرة سنة 1933.

و رغم الجوع الذي عانت منه جيانغ كينغ مرارا، و رغم الظروف التي عاشتها في طفولتها، فقد كانت تعتبر نفسها محظوظة، لأنها استطاعت الذهاب إلى المدرسة. وتحكي جيانغ في إحدى المقابلات، كيف أن المادة التي كانت تكرهها أشد الكره في المدرسة الابتدائية هي الدرس حول أفكار كونفوشيوس، أي فكر يعلمك بالأساس الخضوع و الطاعة، أي كيف يجب الخضوع للسلطات، و أنها كانت تتعرض للضرب بسبب شرود ذهنها، و تتذكر في كثير من الأحيان غثيانها و رعبها كطفلة، من رؤية

الفلاحين "المذنبين" تقطع رؤوسهم وتعلق في العمود، و إعدام أولئك الذين يسرقون الطعام، حيث كانت أصواتهم تقري الأسماع، و بالتالي، فإن كل ما عانته جيانغ كينغ في طفولتها داخل الأسرة و المدرسة و المجتمع جعلها متمردة و مشروع ثورية لا يهادن.

في حقيقة الأمر، فإن سنوات التعليم الرسمي في حياتها الدراسية كانت قصيرة، ولم تتعد ثماني سنوات، منها خمس سنوات في المدرسة الابتدائية، و إن كانت تحضر مرارا للدروس الجامعية التي تهمها. و كما عبرت عن ذلك بلسانها، تقول جيانغ كينغ أنها تعلمت أكثر في مدرسة أهم و ذات التأثير الأكبر، ألا و هي مدرسة المجتمع، مدرسة التجربة التي تبدأ بالنسبة لها مع سنة 1933، عندما قدمت طلبا و تم قبولها في الحزب الشيوعي الصيني، الذي كان ما زال في السرية، ففي سنوات الثلاثينات المضطربة، تبين لها أن القيام بالثورة كان أهم جدا من كتابة الشعر، هي التي كانت تكتب الشعر لتعبر به عن مكنوناتها. و مع ذلك، فقد فهمت جيانغ كينغ صعوبات أن تكون عضوا نشيطا في الحزب، عندما تم إرسالها إلى شنغهاي للقيام بأحد الأعمال، و ذلك في خريف 1933، فقد كان الحزب تحت وصاية وانغ مينغ الخصم السياسي الرئيسي لماو، حيث كانت قد حلت بشكل يكاد يكون تاما الانتهازية و أصبحت هي سيدة الموقف.

2) جيانج كينغ عاشقة الفن، الشغوفة بالمسرح :

بدأت جيانغ كينغ تهتم بالمسرح، عندما درسته في سن 15 في مدرسة تجريبية للفن التراجيدي كانت تشرف عليها الحكومة، و لم يقبل طلبها إلا عندما آنست المدرسة نقصا في المرشحين من الإناث، لكن ما لبثت المدرسة أن تعرضت للإغلاق، فانتقلت جيانغ مع أساتذة المدرسة و تلاميذها إلى مدينة بكين كعضوة في فرقة مسرحية متجولة.

اعتبرت جيانغ كيينغ المجال الفني مدخلا من المداخل الأساسية لتوعية الجماهير الشعبية، و نشر الفكر الثوري في صفوفها، و قد خاضت صراعا ضاريا ضد الرجعيين و ضد التحريفيين لجعل الفن و الأدب في خدمة الشعب و الشعب في خدمة الفن.

و شكلت جيانغ مع أصدقائها "المؤسسة المسرحية للساحل" التي كانت تذهب إلى البوادي لتلعب قطعا مسرحية ضد اليابان، و جعل الكومونات السوفياتية التي أقامها الجيش الأحمر الصيني أكثر شعبية.

لقد اكتشف الممثلون درجة الفقر في البوادي، التي لم يشاهدوا مثلها في المدن و تيقنوا بكل وضوح أن الجدل الفاصل بين أهداف الكيومنتانغ الوطني و الحزب الشيوعي أبعد من أن تكون مسألة أكاديمية صرفة بل هي أكثر أبعادا من ذلك.

لقد أصبحت جيانغ ممثلة مسرحية، و كانت تلعب مسرحيات في عدد من المصانع التقدمية، تنادي الشعب من خلالها إلى الدفاع عن الصين ضد اليابان.

وكممثلة مسرحية، قامت جيانغ كينغ في مسرحياتها بأدوار تعالج الكثير من القضايا الاجتماعية، و لم يكن من الأمر السهل بالنسبة لها، و هي تعيش في مجتمع إقطاعي باترياركي يحتقر المرأة و يستعبدها، أن تمارس مهنتها كممثلة مسرحية بالشكل الذي تريده و تقتنع به، و تريد بواسطته تغيير المجتمع الصيني و العقلية الذكورية الملازمة لهذا المجتمع، و في مسرحياتها، و كممثلة مسرحية، كانت تعالج الكثير من القضايا الاجتماعية، مثل واقع العمال في المصانع الاستعمارية، و القضايا السياسية، منها الدعوة لمقاومة الاحتلال الياباني. خلال هذه الفترة (ابتداء من 1933) التقت الممثلة جيانغ كينغ أعضاء الحزب الشيوعي، و ستلتحق في يانان بالقاعدة الشيوعية الحمراء التي بناها الحزب هناك، و ابتداء من هذه السنة سيكون انطلاق الحياة المهنية لجيانغ كينغ كممثلة، و ستتزوج أحد النقاد السينمائيين، الذي ستغادره بعد سنوات قليلة من الزواج سنة 1937، فالفتاة المتمردة على المألوف، التي كانتها جيانغ بل الثورية العنيدة، جعلها لا تستطيع الاستمرار في كل ما يمكن أن يضعها في قالب مغلق، فالبحث عن الحرية عندها لم يكن ليتوقف.

و بهذا يتبين أنه لا يمكن أن يستقيم الحديث عن جيانغ و المؤثرات التي كانت بالغة في حياتها، دون الوقوف عند ميدان الفن الذي تولعت به أشد الولع، و الذي كان عشقها الأول، و خاصة الفن المسرحي، فقد أسست فرقة مسرحية كانت تقوم بجولات عبر ربوع الصين، و عبر هذا المسرح المتنقل عاينت جيانغ كينغ، و وقفت عن كثب على واقع الصين، و خاصة ريفه، حيث أن 90% من السكان هم فلاحون فقراء، لكن جيانغ كينغ ستنتقل من امرأة تهتم بالفن كوسيلة للتعبير، إلى ثورية تنخرط في الحزب الشيوعي الصيني، و أن هذا الفن سيستمر عندها كسلاح للتعبير لكن بروح شيوعية ثورية.

و بالإضافة إلى المسرح جربت جيانغ التمثيل في السينما، فقد لعبت العديد من الأدوار في السينما لتتمكن من العيش بالأساس، و بالإضافة إلى أنها أدركت أن هذه الصناعة لا تزال تهيمن عليها هوليود بالكامل باستثناء بعض الأفلام، فقد أدركت أيضا، أنه، لكي تكون المرأة ممثلة سينمائية في عقد الثلاثينات في شنغهاي، معناه التصادم مع التقاليد في كل جبهة، فقد كانت مهنة محتقرة، و أولئك اللواتي يمارسنها يعتبرن نساءا منحلات، ذوات أفكار، تعد راديكالية من الناحية الاجتماعية. لقد كانت الممثلات هدفا للاضطهاد الشخصي، الذي كان يهدف إلى تطهير هؤلاء "الضحايا من غرائزهن"، و قد أدى هذا التحرش بأكثر من واحدة إلى الانتحار.

كان الكاتب الثوري الشهير لوسن، الذي كان له تأثير كبير جدا في ذلك الوقت، و الذي تعاطف مع الشيوعيين، واحدا من مرشدي جيانغ كينغ، و قد كتب عن ذلك، و عن تحرير المرأة بشكل عام في العديد من المقالات، بما في ذلك كتاب بعنوان "النميمة أمر مخيف" الذي يعالج المعاملة غير العادلة المفروضة على النساء في مجالات الترفيه، و الهجمات الصحفية ضد النساء.

II - يانان : جيانغ كينغ طالبة ماو المتحمسة و رفيقته في السلاح

على الرغم من أنها انضمت إلى الحزب الشيوعي الصيني قبل بضع سنوات إلا أن كل شيء في مسار حياة جيانغ كينغ يشير إلى أن إقامتها في يانان، هي التي شكلت بالنسبة لها بدايتها السياسية و الإيديولوجية الحقيقية. فقد كانت تتابع محاضرات ماو تسي

تونغ، و انضمت إلى مدرسة الحزب بموازاة عملها و دراستها في أكاديمية الفنون و الآداب لوهسون، وقد قامت جيانغ بتأسيس فرق مسرحية ساهمت في خدمة الجبهة.

غير أن العمل في المسرح و السينما لم يكن نشاطها الرئيسي، فعندما قدمت جيانغ إلى يانان في خضم الحرب، أمضت ستة أشهر في التدريب العسكري، و بدأت دراسة الماركسية – اللينينية بجدية.

كان ماو يولي اهتماما كبيرا للقضايا الثقافية، و قد كان يبتعد في بعض الأحيان عن جدول أعماله المزدحم لمناقشة الفن و السياسة مع القادمين الجدد، و قد أصبحت جيانغ طالبة متحمسة لماو، و قبل نهاية سنة 1938 تزوجته، فقد وجد فيها ماو المرأة المتحررة و المتحمسة، التي لها كل مميزات المناضلة الثورية القادرة على الدفاع على فكر ماو ومشروعه التحريري إلى أكبر مدى و أقصى الحدود، فقد كان حماسها لقضية التحرر و التغيير الثوري لا يستطيع أن يتجاهله أحد و كان ماو من الذين أثارهم هذا الحماس.

و قد أنجبت جيانغ من ماو طفلتهما لي نا، التي تربت مع ابنة أخرى لماو من زواج سابق هي لي مين.

عندما توفي ماو تسي تونغ في شتنبر 1976، كان التوقيع المرافق لأكاليل الزهور التي أهدتها له في جنازته عبارة تقول : **"من طالبتك و رفيقتك في السلاح"**، و قد كانت حقا طالبة لماو ورفيقته في السلاح خلال حياته و بعد مماته، و قد كانت حقا ذلك السلاح الذي سيشهر في صدر التحريفية و كل الخارجين عن خط ماو الثوري، إن السلاح الذي امتشقته جيانغ كان سلاحا فتاكا موجه نحو كل ما يعوق الثورة الاشتراكية الصينية في أن تصل إلى أبعد مدى، وكان هذا المدى الثورة الثقافية الصينية البروليتارية

الكبرى التي أبلت فيها البلاء الحسن جر عليها كل ذباب التحريفيين، لقد كانت المعلمة للشعب الصيني و استمرت كذلك إلى غاية كتم أنفاسها.

على مدى 38 سنة من زواج جيانغ بماو، و صفت علاقتها بالزعيم الصيني، (أو بالأحرى المربي الثوري الصيني، إذ كان اللقب المحبب إليه أكثر) بتلك الطريقة: "طالبتك و رفيقتك"، إذ ظلت جيانغ طيلة ارتباطها بماو و إلى غاية و فاتها تتعلم من ماو و تغرف من فكره.

وعلى الرغم من العواصف السياسية العديدة، التي واجهتهما معا، و قد كانت قادرة على هد الجبال، كانت خلال الفترة المضطربة التي عبراها في المناطق المقسمة في يانان، و خلال السنوات الأخيرة من حرب التحرير في شمال غرب الصين، قد تصلبت هذه الروابط، لأن العلاقات الحقيقية و الصادقة دائما تصلبها العواصف و الأعاصير.

كان كل من حل بالمنطقة من الزوار الأجانب، يؤكد على الروح الراديكالية، التي سادت في تلك الأيام من "الحرب الشيوعية" في يانان، عندما تآخى القادة العسكريون الشيوعيون مع الفلاحين، حيث رقص الشيوخ و والشباب معا، و حيث كان الجنود يزرعون الأرض، عندما كانت الحياة بسيطة نسبيا، مدفوعة بالهدف الوحيد، المتمثل في شن حرب ثورية شعبية، لما بدأت ملامح مجتمع جديد قيد الظهور، كما وعد ماو بذلك في شعار مكتوب على جدران يانان :

"مع وجود مدراة على كتف، و بندقية على الكتف الأخرى سوف نحصل على إنتاج الاكتفاء الذاتي و نحمي اللجنة المركزية للحزب".

لا يعرف مدى تدخل الحزب الشيوعي الصيني في زواج ماو، فقد كان مقبولا بشكل عام، لكن التوجس من المرأة كان حاضرا، و كثير من الوقائع و الأحداث التي مرت منها جيانغ يظهر فيها هذا التوجس من المرأة، فيكفي أن تكون امرأة بالغة التحرر، في مجتمع لم يتخلص بعد من عقلية الفلاحين المحافظة حتى في صفوف أعضاء الحزب الشيوعي الصيني، امرأة تمثل في المسرح

و السينما، امرأة جعلت من الثقافة قضيتها، قبل أن تكون قضية حزب ثوري، فكل هذا لن يحقق لها الإجماع على زواجها بماو، و كانت الموافقة على زواجهما بشرط واضح بأن الزوجة لا تصبح بارزة ، و هو موقف كان يخنق مبادراتها مرارا على مر السنين، بعد التحرير، و في لحظة تنفيذ مهام الثورة و البناء الاشتراكي.

انضمت جيانغ كينغ إلى مجموعة من الرفاق، الذين شاركوا في مشروع استصلاح الأراضي (استرجاع الأراضي و الاكتفاء الذاتي الكوموني)، و قد طرح ماو هذا المشروع سنة 1939 لتشجيع الإنتاج في تلال نانيوان، و كان العمل اليدوي الذي سيتم تنفيذه يستغرق 6 اشهر.

و أصبحت جيانغ كينغ لمدة زمنية، السكرتيرة الخاصة لماو، و حضرت منتدى يانان الشهير حول الفنون و الآداب، و كان ماو، الذي يصر دائما على كتابة نصوصه بيده عندما يمنعه المرض من أن يقوم بذلك بنفسه، كانت جيانغ هي من يقوم بذلك. و رغم أنها تفوقت في هذه المهمة و مارستها عن اقتدار، إلا أن قادة الحزب الآخرين، لم يظهروا لها أي احترام أو تقدير.

واجهت جيانغ جينغ عدة أمراض، و كان المرض الذي لازمها في هذه المرحلة من نهاية الثلاثينات و بداية الأربعينات، مرض السل، و لم يكن هذا المرض مانعا لها للانخراط في أعمالها الثورية، فقد واصلت تدريس الدراما في أكاديمية لوهسون، و قامت هناك بكتابة نصوص المسرحيات التي كان يتم عرضها في الجبهة أمام المدنيين و العسكريين، منادية الشعب بالمقاومة ضد الهجوم الياباني.

و في مارس 1949، قام تشيانغ كاي شيك بقنبلة يانان و قد أجبر هذا قادة الحزب الشيوعي على مغادرة المدينة.

في الفترة ما بين مارس 1947 و يونيو 1949 عملت جيانغ كمدربة سياسية في الفرقة الثالثة على الجبهة الشمالية الغربية، حيث عرفت حرب التحرير، التي كما تقول جيانغ، شكلت السنوات الأكثر صعوبة، و يتعلق الأمر هنا بالفترة التي ألهمت الأعمال الشهيرة و المبكرة، التي أنتجت خلال الثورة الثقافية : "كونسيرتو بيانو النهر الأصفر"، فضلا عن اثنتين من الأوبرا الثورية :

"الفانوس الأحمر" و "شاشيابونغ" . و تتذكر جيانغ الاستقبال الحار، الذي أولته الجماهير لماو و دموع الفرح التي تغمر وجوههم، عندما كان الزوجان الرفيقان يزوران القرى على طول الطريق الذي يمر عبر المسيرة الطويلة، كما تتذكر الاحتياطات المتخذة لحمايته وسط الحشود.

كانت المهام التي ندرت لها جيانغ متعددة، و تطابقا مع بيان ماو في 10 أكتوبر 1949، الذي يدعو فيه كل السكان إلى القضاء على تشيانغ كاي شيك، و لتوحيد الأمة، فقد كان واحدا من مهام جيانغ تنظيم حملة، للتذكير بالآلام، التي عاشتها الفرق العسكرية، و تنفيذ حملة المراقبة الثلاث، و التي تعني الإشراف على تحقيق الامتثال لمدونة قواعد السلوك للجيش الأحمر، على النحو المنصوص عليه في قواعد الانضباط الثلاثة و الوصايا الثمانية.

بعد ذلك بوقت قصير، بدأت حملة أكثر عمومية لتقوية الجيش، بينما انتشرت كتابات ماو حول الديموقراطية الجديدة في الصين، كمقدمة للإصلاح الزراعي، كما قادت جيانغ مجموعة من المناقشات كجزء من وحدة الدعاية المتنقلة، و في وقت لاحق، عندما تم تنظيم دولة الديموقراطية الجديدة في بكين في ربيع 1949 انضمت إلى سكرتارية الحزب. و كانت جيانغ تقضي وقتها بين التزاماتها في الجبهة و تقصي بشكل عميق الوضعية السياسية و الاجتماعية للفلاحين، بهدف إطلاق الإصلاح الزراعي.

كانت جيانغ جينغ المرأة المتعددة التخصصات و المهام و المشاغل و الوظائف، فلأنها تحمل الصين الوطن و الصين الشعب في سويداء القلب فقد كانت توجد في جميع الجبهات، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، و السياسية، و في كل هذا أبلت البلاء الحسن، و أبانت عن قدراتها و إبداعاتها الخلاقة، و في كل هذا رغبة متأججة في إخراج الصين من الظلمات إلى النور، نور الصين الشيوعية.

III - جيانغ كينغ و الإصلاح الزراعي لتحقيق الاشتراكية :

كانت لجاينغ كينغ قدرة ملحوظة على تحسين معرفتها و صفاتها كناقدة ثورية، و كذلك على ترقية المفهوم البروليتاري للفنون، كما فاقت قيادة الآخرين في هذا المجال، و قد تطورت هذه الكفاءة بفضل تحقيقاتها و أبحاثها العديدة، التي كانت تقوم بها، مطبقة على أحسن وجه مقولة رفيقها ماو : "هاتوا التحقيقات و دعوا الحماقات" .

في الخمسينات من القرن 20، عندما كانت تحارب القوى التي كانت تريدها أن تكون غائبة و صامتة، أثناء متابعة الدراسة الإيديولوجية و التطور السياسي للمواضيع التي تعالجها، كانت جيانغ تتقن القدرة على العمل بين الجماهير، و قد سمح لها هذا بتطوير المعرفة، على أساس الظروف التي يواجهها الفلاح و العامل، للنضال من أجل تثوير المجتمع، و قد تبين أن ذلك قد شكل فائدة كبيرة لها في المواجهة التي كانت لها مع الفنانين في العشر سنوات بعد ذلك، حول تقديم الصفات الثورية لهؤلاء الأبطال الجدد، الذين حلوا محل الأسياد و الأباطرة على خشبات المسارح في الصين، هذا دون الحديث عن قدرتها على تبني موقف مناسب في الصراع الطبقي الذي احتدم على أعلى مستويات الحزب.

بعد أن أضعفتها الحرب و الآلام التي لازمتها بسبب مشاكل صحية عديدة، تم إرسال جيانغ مرارا إلى موسكو في العشرية الموالية من أجل علاج طويل، لأن أغلبية المستشفيات كانت قد دمرت خلال سنوات الحرب، و بطبيعة الحال، فإن أعداء ماو السياسيين رأوا في ذلك طريقة من أجل إبعادها عن طريقهم، و في أواخر الخمسينات منعت من الحصول على إذن بالعودة إلى بكين، بعدما لم يفعل أطباء أي شيء لتحسين حالتها الصحية، و قد كان سرطان الدماغ يهدد حياتها.

كانت سعادة جيانغ غامرة، عندما وردت أخبار الإضراب الجريء لجيش التحرير الشعبي ضد السفينة الحربية البريطانية أمتيست، التي رست على الساحل في أبريل 1949، و قد علمت بالإضراب من الراديو السوفياتي. بوقت قليل بعد ذلك، في خريف نفس السنة تأسست الجمهورية الشعبية للصين فعادت إلى بكين لتهيئ هناك الخطط، التي تسمح لها بدراسة المناطق الفلاحية القريبة من شنغهاي، حيث بدأ الإصلاح الزراعي على التو.

في السابق، خلال الحملة الشمالية الغربية، كانت جيانغ قد اكتسبت خبرة بإدخال سياسة ماو الثورية في مجال الزراعة و قادت الفلاحين للإطاحة بالملاكين العقاريين الأغنياء.

و بعد أن تم تخريب رحلة رسمية إلى المناطق الريفية في شنغهاي، من قبل المرتدين من الحزب، الذين كانوا يسيطرون على مساحة شاسعة من الشرق (على ما يبدو، من المحتمل أن يكونوا من الموالين ل **وانغ مينغ** التحقوا بالكيومنتانغ بدون علم ماو) اضطرت جيانغ كينغ إلى أن تتدبر الأمر بنفسها للوصول إلى مدينة **ووسيه** الصناعية في منطقة **كيانغسو،** هناك درست السوابق التاريخية لهذه المقاطعة، و نظام تأجير الأرض و الاقتصاد المحلي، قبل زيارة محيط الريف، تقول جيانغ جينغ :

"تعلمت بهذه الطريقة مثلا، بأن المزارعين لن يتمكنوا من العيش بمزروعهم، ما داموا يخصصون جزءا كبيرا من حقولهم لزراعة الشاي و إنتاج الحرير مقابل القليل من الأرز، و توقف الإنتاج بسبب سنوات من الاحتلال الياباني، الذي يمنعهم أيضا من إنتاج ما يمكن أن يغذيهم".

بعد سنوات، زارت جيانغ كينغ ما كان مقاطعة "نموذجية" للكيومنتانغ، حيث لم يسمح للنساء بزراعة الأرض، بالرغم من أنهن يقمن بمعظم العمل، في الوقت الذي كان فيه الرجال يلعبون و يشربون الشاي. و تقول: "لذلك بدأت في ممارسة الحراثة". لقد كانت التفاوتات المادية بين الرجال و النساء أكثر وضوحا في الريف عنها في المدينة، فعلى الرغم من توزيع الأراضي على الناس

من كلا الجنسين على قدم المساواة، إلا أن هذا القانون لم يطبق بشكل عادل، و غالبا ما كانت النساء يمتلكن أراضي أصغر أو أقل خصوبة، و لم يجرؤن على الثورة، تحت وطأة اضطهادهن.

و بالرغم من المرسوم، اذي أصدره الحزب الشيوعي للحكومة، و الذي دعا إلى الأجر المتساوي عن العمل المتساوي، فقد ميز الرجال أنفسهم عن النساء، عندما منعوا هؤلاء الأخيرين من استعمال أدوات المزرعة، و تركوا لهن المهام ذات الأجر الأقل، و قد اعتمد قانون إصلاح الزواج في سنة 1950 أساسا لحماية المرأة، و منحها حرية الاختيار و الحق في الطلاق، و كما وصفت جيانغ كينغ ذلك، أنه من الصعب قلب الممارسات القديمة و الأفكار التقليدية، كما استمر الزواج القسري في بعض المناطق. و قد سافرت جيانغ كينغ إلى عدة قرى خلال هذه الفترة، للمساعدة في تسوية نزاعات الطلاق و توجيه المستشارين المحليين للحزب لمعرفة كيفية معالجة هذه القضايا الشائكة، و تشجعهم على رأي عام لإقناع المخالفين، بدل تمجيد الحلول المعادية وسط الجماهير كعقوبة الإعدام مثلا في قضايا الطلاق.

كانت جيانغ كينغ تشارك بحماس في الصراع الطبقي، الذي حول كل المناطق الريفية في الصين، و شرعت أيضا في خريف 1951 مع فريق العمل، في الإشراف على تطور الإصلاح الزراعي في منطقة **ووهان** على طول نهر **يانغتسي**. لكن في الوقت الذي كانت فيه جيانغ تتمتع بدعم ماو، فإن أعضاء جهاز الحزب السبعة، لم يكونوا متفقين على هذا التواصل مع الجماهير، فرفضوا ذلك، و أمروا بطردها من القطار مع مرافقيها حتى قبل وصول القافلة إلى الريف. رفضت جيانغ التخلي عن مهمتها، مرفوقة بحراسها الشخصيين، و عملت على القيام بتحقيق خاص في هذه المنطقة الصعبة بشكل خاص، التي كانت معقل حزب الكيومنتانغ خلال سنوات طويلة من الحرب الشعبية، و الذي أبدى مقاومة شرسة للإصلاح الزراعي، و قد كان الإصلاح الزراعي هنا يعرف صعودا و هبوطا.

تنبغي الإشارة هنا إلى أن الحزب كان يقود الإصلاح الزراعي، لكنه كان يثق في الجماهير من أجل تطبيق نزع الملكية و إعادة توزيع الأراضي، و قد كان الحزب يرسل مجموعات إلى مختلف مناطق البلاد من أجل تحسيس الفلاحين تجاه هذه الغاية، و رغم أن هذه المهمة كان قد تم القيام بها في المناطق التي كان يقطعها جيش التحرير قبل 1949، فإن المناطق التي ظلت تحت مراقبة الكيومنتانغ حتى التحرير بقيت متأخرة و رجعية، و ليس إلا في اللحظة، التي أصبحت فيها سيرورة توعية الفلاحين منظمة تم تبني الفلاحين للتصورات الثورية.

كان ماو قد حدد ثلاث "جبال" يجب التغلب عليها، و هي الإقطاعية، الرأسمالية البيروقراطية و الامبريالية، و هذا ما تمت ترجمته في البادية بالنسبة للجبل العنيد الأول، ألا و هو الإقطاعية، و ذلك بتنحية الملاكين العقاريين و طبقة الوجهاء المحليين، الذين ترأسوا منظمات أسياد الأرض.

حدد فريق جيانغ كينغ ما بين 8 و 20% من أسوء المخالفين، و وفق قانون الإصلاح الزراعي تم تقديمهم أمام القضاء. و قد وصفت جيانغ كينغ مدى صعوبة احتواء غضب الناس بمجرد أن ينفجر غضبهم ضد هؤلاء الوجهاء (الطغاة) المكروهين، ففي بعض الأحيان، كان على الحراس حمايتهم من الناس، الذين يريدون على الفور ضربهم حتى الموت، و قد قام فريق جيانغ كينغ بعرض العديد منهم أمام محكمة الشعب للحكم عليهم في بعض الأحيان بالإعدام، و بعد ذلك يتم توزيع عقاراتهم و ممتلكاتهم، وفقا لمعايير طبقية صارمة.

كان الاتجاه العفوي، يتمثل في توسيع الأهداف الاجتماعية، مما يعني أن الطبقة الوسطى الريفية (التي كانت عادة ما تتوفر على أراضي صغيرة ذات قيمة منخفضة) كانت في بعض الأحيان قد تمت مصادرتها، أو تحديد المزارعين الأغنياء كملاكين عقاريين، لكن كانت تحدث أخطاء من طرف اليمين تسمح بترك الأسياد يخرجون من المأزق.

بالنسبة لجيانغ كينغ، فإن التفاوت الطبقي يتباين من منطقة إلى أخرى، و يجب وفقا لذلك، تطبيق القوانين الزراعية وفقا للظروف و السياقات.

و في التقسيم الذي كان يتم فيما يتعلق بثروات و ممتلكات الأسياد، فإن أعضاء الحزب يدفعون الفلاحين إلى التحلي ب "عقل واسع"، و أصروا على أن كل أسرة يجب أن تأخذ فقط ما تحتاجه.

تتذكر جيانغ، و هي تضحك، مشهد من ذلك الزمن، عندما كان الأسياد يتحركون، و هم يلبسون كل طبقات الملابس الممكنة حتى لا يعطونها، و في بعض الأحيان يرتدون ملابس كثيرة، لدرجة أنهم لا يستطيعون التحرك.

و من أجل الإشراف على مهام الإصلاح الزراعي، بدأ فريق جيانغ دراسة الماركسية – اللينينية، و حاول، تحت إصرار ماو تطبيق الحاجة إلى **"أن تكون منظما"**، و بعد توزيع الأراضي، كرست جيانغ نفسها لهذا الشعار **"لنقيم حكومة ديموقراطية جديدة، و لننظم انتخابات لجمعيات الفلاحين"**.

في الوقت الذي كان فيه ماو يضع سلسلة من المقالات بعنوان: "الارتقاء الاشتراكي في الريف الصيني"، بهدف إعداد الرأي العام لولادة التعاونيات، في سنة 1955 نشرت جيانغ جينغ أيضا نصا مسرحيا بعنوان "هل يحصل الشعب على ما يكفي من الطعام من الحصة الغذائية؟" و في ذلك حددت حاجة الأفراد و اختارت التقنين الغذائي للمدينة، حيث كانت فيها مقاومة قوية لإعادة تنظيم إنتاج الحبوب.

IV - جيانغ كينغ و زارعة بذور الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى

1) صراع بلا هوادة ضد المثقفين البورجوازيين

استخدمت جيانغ كينغ النقاهة الطويلة التي مرت بها في أعقاب أمراض خطيرة ألمت بها، لقراءة الكثير من الكتب و مجموعة متنوعة من المواضيع.

لقد ركزت على النضال السياسي الذي اعتبرته مركزيا **"بين طبقة العدو و أنفسنا"** على حد تعبيرها، و أصبحت منخرطة في قراءة الكتب و المقالات الجديدة، و اختيار المقاطع الأكثر أهمية للفت انتباه ماو، و إعطاء رأيها الخاص حول القضايا الرئيسية، و كانت على الخصوص تتحمل مسؤولية التحقيق في المشاكل الدولية.

كانت جيانغ لا تترك "شاذة أو فاذة" لا تطلع بها رفيقها ماو خاصة خلال المرض، فخلال شتاء 1953، بينما كان رفيقها ماو في سريره طريح الفراش، كانت تخبره بالأحداث، و ذلك من خلال قراءة الصحف و البرقيات. و في سنة 1954، قرأت له مقالا كتبه طالبان، انتقدا فيه النهج البورجوازي لأستاذ خبير مزيف للرواية التاريخية للقرن ال18، و الذي قام، من بين أمور أخرى بإجراء دراسة حول كتاب **"حلم الغرف الحمراء"**، و أظهرت نقد الطلاب هذا إلى ماو، و طلب منها أن يتم طبعه من قبل صحيفة الشعب اليومية، و سرعان ما أدركت أنه بقدر ما كانت الصحف الأدبية مؤثرة، فقد رفضت يومية الشعب نشر المقال، لأن الذين كتبوه لم يكونوا جزءا من دائرة المؤلفين المرموقين، و بالتالي لا يستحقون امتياز خلخلة التصورات المسبقة، و قد عرف المقال نفس الاستقبال من قبل إدارة الدعاية التابعة للجنة المركزية، فأصدر ماو بيانا يشيد فيه بالمقال باعتباره يشكل **"أول هجوم خطير خلال 30 عاما"** ضد خبراء الرواية المزيفين.

كانت جيانغ كينغ بالفعل قد أزعجت عش دبابير، بمهاجمة عدد آخر من المؤلفات، التي كتبت في مدح الإقطاع و الطبقة البورجوازية القديمة، و قد جلب كل ذلك انتباه ماو.

كان واحدا من هذه الأعمال، فيلم تحت عنوان "**في ملعب شينغ**"، الذي كان موضوعه عن ثورة البوكسر سنة 1900، و هو يصور الفلاحين كجاهلين و بربريين، في حين أنه يمجد الامبراطور ماندشو، أي الارستقراطية الليبرالية كما يزعمون، و اعترضت جيانغ كينغ على عرض الفيلم، و استنكرت الترويج "الوطني" الذي نظمه لي شا وشي و غيره ممن يحيطون به.

عندما شاهد ماو الفيلم وصفه بأنه خيانة وطنية، في زمن حركة الإصلاح الزراعي. و قد كشفت جيانغ عن تعزيز التطلعات البورجوازية في فيلم ووهسون، الذي خرج للعرض على الشاشات سنة 1950، فقد كان فيه التبشير بالتحرير و النجاح الاجتماعي عن طريق التعليم، و بعض الرضى عن النفس تجاه الوجهاء الإقطاعيين، فقد كان يشاهد فيه "ووهسون" كرجل فقير يقتصد كل قرش للحصول على فوائد من الملاكين العقاريين المرابين على رأسماله الصغير، حتى اليوم الذي يتمكن فيه من شراء أرض لبناء مدرسة و توفير تعليم مجاني للأطفال الفقراء.

عندما قال شو يانغ، نائب وزير الثقافة، أنه يمكن جيدا، في الفن تحمل القليل من الإصلاحية، صفقت جيانغ الباب غضبا استياءا قائلة : "**إذن امضوا قدما في إصلاحيتكم**". و على الرغم من أن ماو كان يعتقد أنها كانت تهدر وقتها، إلا أنها انكبت لمدة ثمانية أشهر على إنجاز تحقيق حول حياة و أسطورة **ووهسون**، لقد كانت تريد أن تكون قادرة على إطلاق نقد يرقى إلى مستوى العلم، من أجل تقويض أركان المدافعين عن المقاربة البورجوازية في الفنون (إنها البذور الأولى التي تزرعها جيانغ لما سيعرف لاحقا بالثورة الثقافية البروليتارية الكبرى الصينية، و هي المؤشرات الأولى عن ما سوف تواجهه جيانغ من عداء تجاه كل مبادراتها و انخراطها في هذه الثورة، بل و قيادتها).

حاول تشويانغ منذ البداية منع جيانغ كينغ من مباشرة مشروعها، و عندما لاح أن سيفشل مع امرأة ثورية عنيدة و مصممة عين لها سكرتيرة لاحقا، على أمل تخريب عملها في مقاطعة شانتونغ، حيث كانت أسطورة **ووهسون** تحظى بشعبية كبيرة، و يبدو أن سيد المكان كان يروج ل ووهسن كنموذج للفلاحين يحتذى به.

أثناء التعمق في ماضي هذه الشخصية، تمكنت من التعرف قليلا على أصله الطبقي، و قد دعت ناس المنطقة إلى إزالة الغموض عن شخصية **ووهسون** الشهيرة، و اتضح أنه لم يكن مجرد سيد له عدة عشيقات، بل إنه كان مكلفا بمحاربة انتفاضات الفلاحين، التي كانت واسعة الانتشار في ذلك الوقت في غرب شانتونغ.

أرسلت جيانغ كينغ تقارير إلى مدير صحيفة الشعب اليومية، التي بدأت في نشر نتائج أبحاثها، لكن الفصائل الأخرى أيضا "ذهبت إلى المصادر" لكي تعبر عن نفسها، و في سنة 1951، أخذ الجدل حول نموذج ووهسون نطاقا واسعا لنقاش اجتماعي حقيقي.

و قد رأى ماو أنه من المناسب كتابة افتتاحية لصحيفة الشعب اليومية، استنادا إلى وثائق جيانغ كينغ، مؤكدا على "**درجة الغموض الإيديولوجي المبثوث في الأوساط الثقافية لبلدنا**".

وفقا لعدة مؤلفين، فإنه لم يحدث أن استبدل التاريخ القديم بالجديد، بالإصرار بكل جهد من أجل منع اختفاء المتداعي، ليس عن طريق الصراع الطبقي، الذي يهدف إلى إسقاط الطغاة الإقطاعيين الرجعيين، و لكن بإنكار الصراع الطبقي للمضطهدين و إخضاعهم لهؤلاء الطغاة، على طريقة "ووهسون"، و قد طلب ماو التعليق على الفيلم و المناقشات حول المقالات عن قصة ووهسون. و على الرغم من أن جيانغ كينغ ما زالت غير معروفة لدى الجمهور، إلا أنها كانت منخرطة جدا في المناقشات التي كانت تدور في الأوساط الثقافية، التي كان يسيطر عليها المثقفون البورجوازيون بالكامل، و الذين كانوا مدعومين من قبل كبار الأعضاء التحريفيين وسط الحزب.

في الوقت الذي كان فيه شويانغ يلمح إلى أن جيانغ كينغ كانت تغضب الكتاب و الفنانين، فقد كان في ذهنها انشغالات أخرى، لقد كان الفلاحون يقدمون جهدا ثوريا جبارا لتحويل الزراعة و العلاقات الاجتماعية في الريف، و مع ذلك، لم تكن لهم فرصة لمشاهدة فيلم واحد أو مسرحية في السنة تهمهم، فهل المواضيع المعالجة، عليها أن تناقش الأباطرة و الامبراطورات، المتلألئين،

و الوجهاء المتعجرفين الذين يعدون المال، أو ينبغي بالأحرى تسليط الضوء على أبطال جدد، يعني جماهير العمال، الذين يضحون بحياتهم من أجل تغيير المجتمع؟

لقد رفضت جيانغ إسكات الجدال، ولأنها قوية بتحليل ماو – الذي كان خارج المسارات المطروقة – حول الفن و علاقته بالسياسة، فقد ساهمت في الأربعينات في كسر السلام المنتشر في بعض الأوساط المقدسة، التي لم تكن تقريبا أبدا موضوع تساؤل، و ظل تأثرها بالثورة قليلا.

لقد استخدمت جيانغ كينغ هذا الجدل، لإلقاء الضوء على التفكير المتصلب لبعض الكتاب و الفنانين، الذين يتشبثون بمعايير الماضي، و برفقة ماو شجعت الموهوبين المجهولين على تحدي السلطات الرسمية، و خلق طرق لتعزيز الإيديولوجيا البروليتارية و الأبطال الثوريين.

إن هذه المشاهد العاصفة في عالم الثقافة، التي سبقت عقدا من الزمن عواصف ربيع الثورة الثقافية، شجعت عليها حملة "**دع مائة زهرة تتفتح، مائة مدرسة تتنافس**" التي أطلقها ماو سنة 1957، و قد كانت هذه المبادرة تهدف إلى التشكيك بجدية في البنية الإيديولوجية للمجتمع.

لقد أكد ماو "**لاشك أنه يجب علينا أن نضع تحت النقد جميع أنواع الأفكار الخاطئة، و كل خطأ هو موضوع نقد، كل عشب سام تجب مقاومته.**

بالتأكيد ستستمر هاتان الطبقتان (البورجوازية و البورجوازية الصغيرة) في التشبث و تأكيد أنفسهما بكل الوسائل، في المسائل السياسية و الإيديولوجية، و من المستحيل أن يكونا غير ذلك. يجب ألا نلجأ إلى أساليب قمعية لمنعهم من التعبير عن أنفسهم، يجب أن نسمح لهم بالقيام بذلك، و في نفس الوقت الدخول في مناظرة معهم و انتقاد أفكارهم بشكل مناسب".

2) جيانغ كينغ و الهجوم على البنية الفوقية الرجعية و المدافعين عنها

في أواخر الخمسينات، ازداد الصراع السياسي داخل اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني بشكل دراماتيكي، فقد أصبح الطريقان أكثر وضوحا و تميزا، فإما المضي قدما في التحول الاشتراكي للاقتصاد و البنية الفوقية للمجتمع، أو التوقف و الراحة مثلما يرغب في ذلك المحاربون القدامى في إعاقة السيرورة في مرحلتها الديموقراطية البورجوازية و تطوير الرأسمالية. إن دعوة خروتشوف إلى "الغولاش" بدلا من الشيوعية عززت ثانية خطر عودة الرأسمالية إلى الصين.

أثناء عقد الاجتماعات العاصفة للمكتب السياسي في لوشان سنة 1959، كتب ماو إلى جيانغ كينغ، إذ أرسل إليها ردا موجها إلى وزير الدفاع **بينغ تيه هوا**، الذي عارض الانتقال السريع إلى الاشتراكية، و كان بينغ على وشك الإطاحة به، بعد ان أصبح ممثلا للخط الذي كان يعمل في اللجنة المركزية، لتشكيل جيش حديث مثل جيش الاتحاد السوفياتي، بدلا من إنشاء ميليشيا شعبية. فباسم الترويج للصناعة الثقيلة و التوجه الموالي للجيش، فقد عارض الخط الذي دافع عنه بينغ، تحول الزراعة إلى تعاونيات كما اقترحت حملة **"القفزة الكبرى إلى الأمام"** .

كانت جيانغ ثورية عنيدة، فعلى الرغم من أن ماو حاول منعها، محذرا إياها من أن النضال المكثف، الذي كانت تخوضه قد يؤثر على صحتها الهشة، إلا أنها كانت تصر على مرافقته إلى الاجتماعات، و ذلك من أجل فهم الوضع على نحو تام.

في اوائل الستينات، ركز الصراع على كيفية تقييم "القفزة الكبرى إلى الأمام" و تطور الشيوعية بشكل عام، وكشف ليو شاو شي، خصم ماو، و الممثل للقيادة الرأسمالية في الجهاز الحاكم لعبته أكثر، فقد طالب بمبالغ مالية طائلة لتشجيع الإنتاج الزراعي، داعيا إلى توسيع الأراضي الخاصة، و تطوير الأسواق الريفية (الرأسمالية) و هلم جرا، و بدون بعض من المصادفة، بدأ ليو شاوشي القيام بزيارات لمزار كونفوشيوس، وعلى الرغم من أن ماو و المعسكر البروليتاري يسيطر بالكامل على الحزب، فإن القوى البورجوازية، التي تركزت بشكل متزايد في الهيئات الإدارية، أكدت قوتها، وسعت إلى التأثير على الرأي العام للاستيلاء على

السلطة. لقد سيطر هؤلاء الأتباع التحريفيين على مجالات التعليم و الفنون، المجالات الرئيسية، لتعزيز أيديولوجيتهم و التأثير على الجماهير، و قد أعد اليسار هجوما مضادا، و بدأ في إنشاء حركته الخاصة لإخبار الرأي العام، في هجوم كبير ضد البورجوازية التي قوضت الحزب.

هكذا دخلت جيانغ كينغ الساحة السياسية إلى جانب ماو، و بدأت تنشر مقالات في الصحف موجهة للنساء و الشباب، و استأنفت عملها الجماهيري سنة 1963، كعضو في حركة التعليم الاشتراكي، و هي مبادرة من ماو، من أجل التصدي لرد الفعل و الممارسات و الإيديولوجية البورجوازية، و قد كانت هذه المعركة مقدمة للثورة الثقافية التي ستشهدها البلاد فيما بعد.

طلب ماو من الأطر و الفنانين و الكتاب في المدينة الذهاب إلى الريف لتعليم الجماهير، وفي سنة 1962، في الجلسة العامة العاشرة للاجتماع الثامن للجنة المركزية، تم إقرار، بعد الكثير من المعارضة، بالسماح لجيانغ كينغ بمواجهة السيطرة التحريفية على لجنة بلدية بيكين، التي يرأسها عمدة هذه المدينة و عضو المكتب السياسي بينغ تشن (الذي منه جاء مفهوم السياسة الوطنية للثقافة). و قد كان أعضاء هذه اللجنة يراقبون القسم الأعظم من الصحافة الصينية، و كذلك الوسط المسرحي و الأدبي في الصين، لقد كانت مدرستهم الفكرية، المؤثرة جدا في الأوساط الفكرية، معارضة تماما لمذهب ماو، الذي دعا إلى ثورة عميقة في المجتمع، أما من جهة التحريفيين، فقد كانوا متشبثين بالحفاظ على احتكارهم الإيديولوجي للثقافة، ففي وسطهم وجد الكتاب البورجوازيون مثل **ووهان** ملجأهم، .فقد كان هذا الكاتب المسرحي، مؤلف مسرحية **هاي جوي**- الذي طرد من منصبه- نشر في سنة 1961 مسرحيته، التي كانت احتجاجا على قرار ماو بإقالة **دنغ ته هوي** وزير الدفاع حتى سنة 1959، و التي رمز لها بتشبيه رقيق، بعصر سلالة **مينغ**. و كان أعضاء لجنة بكين أيضا، من رعاة العمود الصحفي: "ثلاث عائلات قروية"، الذين هاجموا ماو و خط ماو بطريقة ساخرة.

من ناحية أخرى، إذا كان الثوريون، من سوء حظهم قد تعرضوا بالنقد للكتابات و الإنتاجات المسرحية، برعاية هذه البورجوازية الجديدة، و التي تعمل بنشاط من أجل التأثير على الحياة الفكرية و الثقافية بشكل عام، مع تحيزها للحفاظ على الطبقات الاجتماعية، فإن ملاحظاتهم كان ينظر إليها في الحين بعدم المصداقية عن طريق نقد ذاتي مثير للضحك، أو عن طريق مقالات مضادة تصر على النقاط الثانوية، و قد تفاقمت هذه المعضلة، من واقع أن اليسار لم يستطع نشر نصوصه، و كان عليه الاعتماد بقسط ما، على الجيش الذي كان تحت قيادة **لين بياو**. بعد ذلك بمدة قليلة، في أواخر 1966، لم يستطع ماو أن يقاوم وصف وزارة الدعاية المركزية بأنها "**قصر أمير الجحيم**" : "**يجب الإطاحة به! إن الطغاة لهم مصلحة في إبقاء الناس في الجهل، بينما من واجبنا أن نفتح أعينه**".

لقد حاولت جيانغ كينغ عبثا نشر انتقادات هاي جوي، الذي طرد من منصبه في بكين، لكن في نوبة من الغضب حاصرتهم الزمرة المحلية في كل مكان.

و كملجإ أخير، و هو يعمل بكل اطمئنان تحت إشراف جيانغ كينغ و ماو، كتب المؤلف الشاب ياوو وين – يوان، الذي تميز خلال الحركة المناهضة للرجعية، التي أعقبت حملة "مائة زهرة"، انتقادا قاسيا لهذه القطعة المسرحية، لكنه لم يكن من الممكن نشرها في بداية الأمر إلا في شنغهاي، و ليس قبل نونبر 1965، و قد أعلن عن كونها إشارة لبداية الثورة الثقافية.

لقد حاولت زمرة كتاب بكين كثيرا الحد من الجدل الذي تلا ذلك، بتقديم البراهين على الفروقات الأكاديمية الدقيقة للتاريخ، بل ذهبت إلى حد النأي عن الكاتب (و المؤيد لرئيس بلدية بكين) ووهان بهدف الحفاظ على مواقفها.

3) جينغ جينغ و "أوبرا بكين": من أجل اختراق البنية الفوقية

كان مجال الفنون إلى حد كبير، خاضعا لسيطرة مجموعة من قادة الحزب الخبراء المزعومين في المجال، فسواء في المسرح أو الموسيقى، فقد دافعوا بكل عجرفة عن التوجه الإقطاعي و البورجوازي، و مع ذلك، فإن الأوبرا تعد أسوأ ماضي في هذا الاتجاه.

إن هذه الهيمنة على قطاعات مهمة من البنية الفوقية من قبل نخبة بورجوازية جديدة مرتبطة بالتحريفيين من مستويات عليا في الحزب، كانت انعكاسا للتحول غير الكامل للقاعدة الاقتصادية للمجتمع، فقد كانت هذه الأخيرة لا تزال، حتى قبل الاشتراكية تحتفظ بأعداد هامة من الأعشاش الرأسمالية.

إن الحقيقة العميقة، التي ساهم ماو في إثرائها، هي الحاجة إلى القيام بثورة لاختراق البنية الفوقية في مجالات الأفكار و القيم و العادات و الثقافة، و إرسال الطبقتين، البروليتاريا و البورجوازية الجديدة للانخراط وجها لوجه في صراع من أجل إنهائه.

بعد عشر سنوات من السياسات البروليتارية، تم اتخاذ خطوات عملاقة لتحويل الصين شبه الإقطاعية شبه المستعمرة و المتخلفة، فقد شهدت الملكية الخاصة تحولا جوهريا، بتأميم الأراضي و تأميم الصناعة، فبعد أن تحررت الصين من قيود الهيمنة الأجنبية، أصبح الاقتصاد يعتمد منذ ذلك الوقت على حاجيات الجماهير و ليس على ما يمليه الامبرياليون، الذين سعوا فقط إلى ملإ خزائنهم، فقد تم كسر الحلقة المفرغة للفقر و الديون، في الوقت الذي تم فيه القضاء على المجاعة و الأمية إلى حد كبير. و بدأت النساء بالذهاب إلى المدرسة بأعداد أكبر، و القيام بدور نشيط في الإنتاج و في الحياة السياسية، و لكن في الوقت نفسه، تم منع التغييرات في العديد من القطاعات جزئيا أو كليا من طرف الخط التحريفي و ثقل اضطهاد الماضي.

كان هذا الواقع أكثر وضوحا عندما تم تفحص عن كثب **"الاختلافات الثلاثة الكبرى"**، بين المدينة و الريف، بين العمال و الفلاحين و بين العمل الفكري و العمل اليدوي.

في سنة 1964 وصف ماو وزارة الصحة العمومية باسم "وزارة الصحة للسادة الحضريين"، و في المصانع أمرت القيادة التحريفية العاملين بالحد من المناقشات السياسية إلى 30 دقيقة في اليوم حتى لا يتأخر الإنتاج. و كما كشفت واحدة من جوانب الاختراق، تحليل تشانغ تشون تشياو حول اليمين البورجوازي، ففي البادية كانت الملكية جماعية، و لكنها لم تكن ملكا لكل الناس، و قد

سهلت هذه الحالة الميولات الرأسمالية، بالإضافة إلى ذلك، اختلفت جدا نوعية التربة بين الكومونات، مما نتج عنه فوائد ملموسة بالنسبة للبعض.

إن هذا التناقض بين الاشتراكية و بقايا شبه الإقطاع، بالإضافة إلى الرأسمالية الجديدة، كان واضحا أيضا في النضال الصعب من أجل تحرير النساء الصينيات، فعلى الرغم من أنهن يحتلن الآن وظائف في الإنتاج، و في المستويات الثانوية للحزب، فقد كان على النساء مواجهة الأحكام المسبقة الإقطاعية الثقيلة و الأدوار التقليدية التي فرضت عليها. هذه السلاسل الإيديولوجية لا يمكن أن تتعرض للاهتزاز إلا من خلال الذهاب بالمعركة إلى البنية الفوقية، لتحقيق تحول اشتراكي أكثر كمالا للقاعدة الاقتصادية.

لقد أثبت النضال، الذي تخلص من القيد على جبهة الثقافة مثالا على هذا الوضع، فقد أدى الخط البرجوازي إلى تقليص الصراع إلى مجرد صراع بين الفن "**ينظر إليه بشكل ضيق جدا وفقا لدرجة الإصلاح الاشتراكي**" و الفن الذي يمكن للمستأجرين البورجوازيين التعبير عنه، فقط من خلال "عبقرية" الإبداع.

في الواقع، فإن الصراع يركز على المشكلة الأساسية : معرفة ما إذا كان بإمكان البروليتاريا، نعم أو لا ، الاستيلاء على هذا المجال، و إحداث ثورة في البنية الفوقية، هل ستقوض المملكة الثقافية القاعدة الاشتراكية أم تخدمها.

لم يكن اليسار يستعد فقط لشن هجوم على الأفكار البورجوازية، و لكن أيضا و قبل كل شيء، ضد الأفكار و المعتقدات و الأعمال الثقافية، التي حافظت على الانقسامات البالية و الاضطهادية في المجتمع.

كانت أوبرا بكين القديمة، بحد ذاتها عبارة عن حصن إيديولوجي لطبقة الملاكين العقاريين و الرأسماليين، فقد تألفت قائمتها (الأوبرا) إلى حد كبير من أعمال تمجد الفضائل الكونفوشيوسية المتمثلة في الطاعة و الولاء.

و ما يمكن أن نخلص إليه بعد مرور عشر سنوات أنه "**كان اختيار أوبرا بكين، من أجل خرق أولي للثقافة، بمثابة مبادرة صحيحة للثورة الثقافية، لانتقاد معتقدات كونفوشيوس و منسيوس، و هذا سيساهم في تفكيك العقائد الروحية، التي استندت عليها الطبقات الرجعية لقرون لخلق جحيم على الأرض**".

انخرطت جيانغ كينغ في العديد من التحقيقات، و قامت بزيارة العديد من الفرق المسرحية، و التحدث مع الممثلين و حضور العروض، و الذهاب إلى الكواليس، و مشاهدة الأوبرا في جميع أنحاء البلاد، فجيانغ كينغ لا تهمل أي صغيرة عندما يتعلق الأمر بمواجهة الرجعية القديمة منها و الجديدة، إنها تلك النحلة النشطة التي تتنقل بين هنا و هناك متفحصة بعينها البصيرة، التي لا تخطئ الهدف.

كان إنتاج النصوص غزيرا، لحد أنه في غضون سنوات قليلة، تم إنتاج حوالي 37 نصا جديدا، و ظهرت أحدث المسرحيات و الأوبرات، بما فيها الأعمال النموذجية الأولى، ولإنتاج نصوص حديثة جيدة، طبقت المزج بين "ثلاثة في واحد" في ميدان الفنون، بإرسال أطر الحزب و كتاب المسرحيات للعيش وسط الفلاحين و الجنود و العمال، من جهة، من أجل فهم أفضل للتجربة التي ينبغي عليهم توضيحها من خلال أعمالهم، و من جهة ثانية، لبلترة الفنون ببلترة الثقافة و تثويرها. من جانبها، تقوم الجماهير الثورية بدراسة و نقد الإنتاجات بهدف تحسينها، فعلى سبيل المثال، حضرت جيانغ كينغ عرضا لأوبرا شعبية من هواي تشو سنة 1963، و اقترحت تكييفها مع أوبرا بكين، و على الأرصفة أصبحت واحدة من أولى المسرحيات منذ مجيء الاشتراكية، و في الأصل تم تأليف هذه الأوبرا بمساعدة عمال الشحن والتفريغ بمدينة شنغهاي، الذين كانوا متحمسين للغاية : "**في السابق كنا فقط رجال الشقاء، لم يكن لنا الحق في أن نكون جزءا من الجمهور**" .

لقد أثبت مسرح أوبرا بكين أنه حصن الخط التحريفي في الفنون، و قام كتابه المعينون على الفور بإجراء تعديلات على المخطوطة، محاولين تخفيف طابعه الأممي، و ترقية الشخصيات الثانوية إلى رتبة أدوار رئيسية.

كان عمال الشحن و التفريغ ساخطين : "**إن تاريخنا و تاريخ عائلاتنا هو أحد المعاناة المريرة ... عندما يتعلق الأمر بالقضية الثورية التي يقودها الحزب، فإننا نحن العمال أحياء أكثر من أي وقت مضى، مستعدون و مصممون. إن أوبراكم تظهرنا أغبياء و كسالى، أبدا لن تحصد مثل هذه الأوبرا أصواتنا !**

في شهر مارس 1965، أعادت جيانغ كينغ صياغة السيناريو و توزيع الأدوار، و أعادت صياغة قصة عمال الشحن و التفريغ طليعة شنغهاي، التي تكافح من أجل شحن السفينة بالحبوب، من أجل تقديم المساعدة لنضالات التحرر الوطني، في آسيا، في إفريقيأ و أمريكا اللاتينية، و قد كان عليهم أن يواجهوا العمل التخريبي لعامل متخلف، الذي يتلقى الدعم من التحريفيين داخل الحزب.

قام التحريفيون الحقيقيون بالهجوم مرة أخرى، و وصفوا هذه النسخة بالفقر المسرحي، و احتجوا على الدور الهام الذي تلعبه سيدة في الحزب (الذي يقود عمال الشحن و التفريغ إلى كشف المؤامرة و رفع المرسى في الوقت المناسب للسفينة) الذي يسمونه غير واقعي، و حاولوا توقيف العروض، و تلا ذلك صراع عنيد، و قد ناشدت جيانغ كينغ الأممية أن تحفز الفرقة : "**إن الشعوب المضطهدة في جميع أنحاء العالم، تتوق لحضور أوبراتنا المبنية على موضوعات ثورية معاصرة، يجب أن يكون لدينا أعلى التطلعات، و أن نكون مصممين على تلبية حاجيات الشعب الصيني، و كذلك احتياجات الشعوب المضطهدة في جميع أنحاء العالم**" .

بعد سنتين، و بعد أن أشعلت نيران الثورة الثقافية المعركة بين الاتجاهين في الساحة السياسية، اكتملت الأوبرا و قدمت في حفل الذكرى السنوية الخامسة و العشرين لمنتدى يانان.

كما ساهمت جيانغ كينغ بنفس المستوى في صراع الخطوط، بانتقادها لمحتوى و اتجاه الأعمال الثقافية، مثيرة حاجة الفنانين إلى تشكيل وعيهم، و كذلك اختراق الحياة الحقيقية للجماهير.

و إذا كان صراع الخطوط يظهر حاسما في عملها، فقد كانت جيانغ كينغ تولي أيضا اهتماما دقيقا للشكل الفني، و كذلك للوحدة – الهامة جدا – بين المحتوى السياسي الثوري و التعبير الفني للأداء، لقد ذهبت بصفة شخصية إلى المسارح لتشجيع الرؤى المبتكرة، و لكن أيضا لمناقشة الفنانين حول التغييرات، التي يتعين القيام بها، سواء في تأويلهم أو حركاتهم، كما في الإضاءات و الأزياء و الموسيقى و الكوريغرافيا و الغناء، من أجل إعطاء بريق جديد للطبقة. لقد انتهت النغمات الحزينة والمصبغة بالنواح، التي ميزت الأوبرات البالية، فهم الآن يقومون بها وقوفا، محولين حزنهم إلى غضب، و بينما كانت النساء تبكين فقد أصبحن الآن يشرعن في الضحك بفرح وعزيمة، بدلا من تغطية أفواههن عندما يبتسمن كما كان من قبل، كما حلت قبضة النضال محل إشارة "الأصبع السحلية" الرقيقة، إشارة الصين الأرستقراطية.

هناك ملخص معمق من خلاصات أبحاث جيانغ كينغ تم بسطه في خطابها في مهرجان أوبرا بكين، الذي أقيم في صيف 1964، و الذي جمع 5000 من ممثلي شركات الأوبرا الإقليمية و المحلية، تحت المراقبة المعادية للهرمية الثقافية التحريفية. هناك، رأت النور أوبرات جديدة تم إنشاؤها، في خضم صراعات حادة داخل عالم الثقافة. و من بين أشياء أخرى، تم تقديم أعمال "هجمات على فوج النمر الأبيض" استحضارا للحرب الكورية، و "شاشيابانغ"، التي تؤكد على الاتحاد الوثيق بين الجيش و الفلاحين، (و قد تم تحويلها أيضا إلى سمفونية).

تم تبادل الكثير حول صراع الخطين ضد التحريفيين، الذين يعارضون بشدة سيرورة التحول هذه. إنها تجارب جديدة من المجتمع الاشتراكي ترى النور.

لم تترك جيانغ كينغ أي مجال للتحريفيين لكي تتسيد رؤاهم للفن خاصة، و الثقافة عموما، فخلال هذا الظهور الأول أمام العموم، سألت جيانغ جمعية "عالم الفن": "**من ينبغي لنا أن نخدم حفنة من الأفراد (الملاكون العقاريون، الفلاحون الأغنياء المعارضون للثورة، العناصر السيئة، المحرضون اليمينيون، و البورجوازيون الأتباع) أو 600 مليون (عمال، فلاحون و**

جنود)؟ إن الحبوب التي نأكلها تأتي من عمل الفلاحين، ملابسنا و مساكننا هي من عمل العمال، و جيش التحرير الشعبي يؤمن دفاعنا في القواعد الأمامية، و نحن لا نذكرهم حتى على الخشبات. هل لي أن أسألكم، إلى أي طبقة تنحازون؟ و أين هو وعي الفنان هذا، الذي لا تكفون عن الحديث عنه؟ ".

خلق شخصيات من الأبطال الثوريين، ذلك ما يجب أن يكون ذا الأولوية، حسب جيانغ كينغ، كان لابد من تشجيع المبدعين و القادة على إنتاج أوبرات تعكس حقا وجهة المادية التاريخية، و يمكن أن تضع الماضي في خدمة الحاضر، و قد أصرت على أهمية إنتاج قطع مسرحية جديدة، سواء عن طريق الإبداع، أو عن طريق اقتباسات المؤلفين.

أمام هذه الموجة الصاعدة التي لا يستطيعون تحديها بصراحة، فقد أعد الأعداء السياسيون لجيانغ كينغ (بدءا بأعداء ماو) وراء الكواليس خطة للتعامل مع هذه الموجة الصاعدة من الثقافة الجديدة و الفن الجديد، فعلى سبيل المثال، كان عليهم الرضوخ لعقد المهرجان، لكن في نفس الوقت حاولوا تخريب إعداد أوبرات تمت برمجتها، حتى أنهم تجرأوا على تغيير نص خطاب جيانغ قبل نشره، و لم تظهر النسخة الأصلية إلا بعد ثلاث سنوات أي سنة 1967، في حين أنه لأول مرة تم الاعتراف بالدور الكبير في تحول أوبرا بكين، و ذلك على نطاق واسع.

بعد فترة وجيزة واجهت جيانغ كينغ، بينغ تين، عمدة بكين، حول الحاجة إلى المساعدة في بلترة الفنون، و أعطت كمثال، العمل الذي كان قد سبق العمل به مع أعمال مثل باليه "الفتاة ذات الشعر الأبيض" في شنغهاي، و بالتالي، ألا يستطيع أن يأذن لها بالعمل في نفس الاتجاه في أوبرا بكين لإجراء مثل هذا الإصلاح؟ لقد كان رفض العمدة متغطرسا، إذ مزق المخطوطة التي أرادت أن يطلع عليها.

أما دينغ كسياو بينغ، المهتم أكثر بالسعي وراء الغرور و المال، فقد أظهر موقفا أكثر خشونة نحو إصلاح الأوبرا و اعترف قائلا: سأصوت بنعم بكلتا يدي، شريطة ألا أكون مجبرا على الحضور، و أعلن صديقه التحريفي تاوو تشو أنه يفضل اللعب ال ماه-جونغ مع دينغ، على أن يكون مجبرا على التصفيق للأوبرات الثورية!

مع تفاقم الوضع في بداية الثورة الثقافية، تظاهر هؤلاء القادة التحريفيون، في محاولة لإنقاذ موقعهم في السلطة بإحداث تصحيح، لكنهم بدأوا يتعثرون منذ الاستيلاء الأول على السلطة خلال الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى. لقد كان كشف الخدع و تعرية ميلهم للنظام القديم جزء فقط من المهام التي يجب إنجازها، لإعطاء أدوات السلطة لقوى فتية و جديدة، التي تتطلع إلى استبدال النظام القديم. يجب على الجماهير أن تمتلك الوسائل اللازمة للمشاركة الكاملة في خلق الأعمال الثورية، التي ستكون انعكاسا حقيقيا لمصالحها الطبقية البروليتارية. لقد كان هذا النضال مرتبطا تماما بما يجري في كل قطاع من قطاعات المجتمع، لتعزيز دكتاتورية البروليتاريا.

هذه المناوشات بين اتجاهين في حياة الفنون، لم تكن بدون الإعلان عن عواصف أخرى في الأفق، في حين أن ثقافة و جهاز الحزب بشكل عام، سيصبحان ساحة مهمة للصراع الطبقي في معركة الثورة الثقافية التي استمرت 10 سنوات.

V - جيانغ كينغ قائدة الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى

1) هزيمة التحريفيين تمر عبر الثورة الثقافية :

على الرغم من أن الهجوم المضاد المرير لليسار الثوري، قد تم تجسيده لأول مرة في الفنون، في مسرحية "إقالة هاي جوي"، إلا أن الهدف في قلب الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى ظل هو السلطة السياسية في حد ذاتها.

هل ستواصل الصين مسيرتها الاشتراكية، و يتمكن شعبها من تحويل المجتمع من الأسفل إلى الأعلى، وصولا إلى تحقيق هدف إلغاء الطبقات و بناء المجتمع الشيوعي؟

إن السؤال الحاسم هو من سيفوز في النضال من أجل أخذ السلطة : هل هي البروليتاريا بقيادة الشيوعيين الثوريين في الحزب، من أجل ممارسة دكتاتوريتها في كل قطاع من قطاعات المجتمع، أو البورجوازية الجديدة التي تمكنت من تحصين مواقعها داخل الأجهزة القيادية للحزب و الدولة، و التي تشكلت قاعدتها الأساسية من العناصرالتي توقفت عن القيام بالثورة منذ مدة طويلة، و الذين أصبحوا يعارضون تقدم الثورة الاشتراكية و يعملون بضراوة إلى إعادة الصين إلى الطريق الرأسمالي.

لقد أدرك ماو بشكل مبكر خطورة التحريفية في الصين، لذلك لم يذخر وسعا في قيادة الكفاح، مستهدفا تقوية السلطة السياسية للبروليتاريا، من خلال استعارة الشكل الوحيد الممكن – مناشدة الجماهير و ربط ذلك بسياقها الدولي، المتمثل في استيلاء طغمة تحريفية على السلطة في الاتحاد السوفياتي بعد موت ستالين، و بذلك استخلص العبر من تلك الهزيمة التاريخية للبروليتاريا السوفياتية، و أدرك أن مواجهة التحريفية في الصين، و التي بنت أعشاشها داخل قيادات الحزب و الدولة، لا يمكن القضاء عليها إلا بالاعتماد على الجماهير و إقناعها بضرورة الإطاحة بالتحريفية و التحريفيين و ذلك ضمن مشروع استراتيجي واضح.

وبعد تجارب مريرة مع مجموعات العمل (المجموعات التي كانت مسؤولة عن الثورة الثقافية في بدايتها) سواء بقيادة بينغ شينغ، أو بقيادة ليو شاو شي و دينغ غسياو بينغ، و بعد صدور دورية اللجنة المركزية الشهيرة في ماي 1966، و انكشاف مجموعة العمل، بقيادة لي و دينغ، التي استغلت غياب ماو عن بكين لمدة 50 يوما، للقيام بأعمال مضادة للثورة الثقافية، تشكلت "مجموعة الثورة الثقافية" بقيادة تشن بوتا، و مشاركة أبرز قادة الثورة الثقافية فيها من قبيل جيانغ كينغ إلى جانب شانغ شون كياو، ياو وين يوان، وانغ هونغ وين.

لقد تحملت جيانغ كينغ التحديات و المسؤوليات التي أوكلت لها بكل شجاعة، في وقت عرفت فيه وضعية الثورة تصاعدا لصراع الخطوط، و لعبت جيانغ دورا حاسما في الهجوم على التيار التحريفي، و أصبحت تلعب دورا قياديا بارزا في الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى، هذا التمرد الثوري الصاخب للجماهير، الذي لم يعرف له التاريخ نظيرا.

لقد كان هذا أكبر إسهاماتها الثورية، و في نفس الوقت جر عليها دورها هذا نقمة و حقد الخونة من التحريفيين المحليين و عبر العالم، بالإضافة إلى كره البورجوازية العالمية و مثقفيها العضويين، و يقف وراء مواقفهم الكريهة، تلك الخطيئة التي ارتكبتها جيانغ حسب زعمهم، و المتمثلة في دورها في مساعدة الجماهير الثائرة في تعزيز سيطرتها على السلطة السياسية الثورية، و ارتباطها الحميم بانتفاضة الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى.

كانت تتمثل أولى المهام، التي أوكلت لجيانغ كينغ كعضوة في لجنة إعداد وثائق الثورة الثقافية، في كتابة نشرة لمواجهة الخط التحريفي ل بينغ شن (عمدة بكين آنذاك)، ضد تقريره الصادر في فبراير 1966 حول الثقافة، والذي سعى إلى نزع فتيل الثورة الثقافية، و إزاغتها عن سكتها.

بعد صدور دورية ماي 1966، ذلك النص الذي راجعه ماو تسي تونغ عدة مرات، كما أدلت بذلك جيانخ كينغ، حيث قام ماو تسي تونغ بتسمية التحريفيين ب **"كل أولئك مثل خروتشوف، الذين يعششون بالقرب منا"**، أصبح صراع الخطين داخل الحزب معروفا لدى قواعده.

2) جيانغ كينغ و الشباب :

بعد فترة وجيزة، مع ظهورأول داتزباو ماركسي – لينيني (ملصقات مكتوبة بخط كبير) في جامعة بكين في ماي 1966، و الذي دعمه ماو، كانت أبواب الثورة الثقافية مفتوحة على مصراعيها. و انخرطت جيانغ كيانغ بسرعة، في حرارة النقاشات الدائرة في يوليوز 1969، فكانت تذهب بانتظام إلى جامعة بكين للتحدث إلى الطلاب، و الاستماع إلى النقاش الذي يخاض داخلها، و

اكتشفت على الفور، الدور المعادي للثورة ل"فرق العمل" (هي المجموعات التي كانت آنذاك مسؤولة على الثورة الثقافية، و التي كان يتحكم فيها التحريفيون) التي كانت تخنق تمرد الطلاب و الأساتذة الشباب. و في نهاية شهر يوليوز قررت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني حل "فرق العمل"، التي كان يرسلها ليو شاو شي و دينغ غسياو بينغ للجامعة لخلق التشويش على الخط المركزي للحزب فيما يخص الثورة الثقافية.

و من المعلوم، أن ماو تسي تونغ تغيب عن بكين لمدة خمسين يوما، و هي الفترة ذاتها، التي استغلها التحريفيون، من خلال حملات الإرهاب الأبيض و التطويق لتحويل الجماهير عن النضال، من أجل استعادة النظام لصالح القيادة التحريفية، لكن هذه الفترة لم تدم طويلا.

هكذا، و بعدما تسنت لهم فرصة ارتكاب أخطاء جسيمة، و بعدما انكشفوا أمام الجماهير، أصبح هؤلاء القادة "الذين يبجلون وقاحة البورجوازية، و ينتقصون من أخلاق البروليتاريا"، هدفا لسهام ماو تسي تونغ، الذي أصدر أول دتزيباو شهيرله، تحت عنوان :

"لنطلق النار على المقر العام!"

مما أشعل نيران التمرد فانتشرت على نطاق واسع، مستهدفة بشكل خاص، أولئك الذين يتبعون طريق الخط الرأسمالي من القيادة العليا للحزب.

و من بين الأشياء التي سيتم تذكرها دائما خلال هذه المرحلة عن جيانغ كينغ أنها مثل ماو، كانت مرتبطة بشدة بالشباب، لقد حازت خلال هذه الفترة على سلطة سياسية هامة، و لعبت دورا مختلفا عن دور ماو، إذ كانت تذهب إلى عين المكان، و في

بعض الأحيان تدخل المعارك بجرأة و قوة لدعم تمرد الشباب، كما كانت تحمل لهم تحيات ماو، رئيس الحزب، و تشجيعاته للشباب الثائر، وقد حدث ذلك في ذروة صراع الخطوط المحتدم.

من بين البرامج المتنافسة و المعقدة في بعض الأحيان، التي كانت تطرح في النقاشات، ساعدت جيانغ الشباب على التمييز بين خيوط الصراع الطبقي داخل المجتمع، و المرتبطة بالصراع داخل الحزب نفسه. وجنبا إلى جنب مع أعضاء آخرين في مجموعة الثورة الثقافية، التقت وفودا من الطلاب و العمال و الجنود و الفلاحين و المعلمين و الفنانين، و ذلك لإيجاد الحلول للأسئلة الحارقة، التي تطرح في مجرى الثورة الثقافية، بما فيها المناهج التي يجب استعمالها، و من يجب استهدافه، و كيفية مواجهة الانقسامات و الفصائل، و كيف يمكن، و في كلمة واحدة **"ترسيم الحدود بين العدو و أنفسنا"** كما قالت مرارا، و لكن في نفس الوقت، توحيد الجماهير و تشكيل تحالفات من أجل الدفع بالثورة.

لنأخذ مثالا عن الشباب و الطلاب، فالدعوة إلى انتقاد شخص بشدة ينتمي إلى عائلة مميزة أو محافظة، هي دعوة يمكن أن تبدو أنها على اليسار، لكنها في الحقيقة هي يمينية بالأساس، تسببت في كثير من الالتباس في بداية الحركة.

لقد أقنعت جيانغ الشباب بتغيير شعارهم **"بطل يلد بطلا، و ابن رجعي هو بيضة فاسدة"** بشعار

"إذا كان الآباء ثوريون فإن أبناءهم يجب عليهم أن يسلكوا نفس الطريق، و إذا كان الآباء رجعيين فإن أبناءهم يجب أن يتمردوا".

في شهر غشت – شتنبر 1966، دخلت الطبقة العاملة الصينية على خط الثورة الثقافية بمساعدة الحرس الأحمر (جماعات من الشباب الثوري التحقت بالمعامل في شنغهاي و مدن أخرى) و برز للعيان وانغ هونغ وين، القائد البروليتاري العظيم (أحد القادة الأربع للثورة الثقافية)، و خلال هذه الفترة بدأت جيانغ في التحدث أمام الجمهور مركزة بصفة أساسية على التجمعات الشبابية الضخمة، للمشاركة في هذه اللحظة التاريخية.

لقد أصبحت جيانغ كينغ مشهورة بسرعة، بقبعتها و بذلتها العسكرية، و ظهرت في سبعة من ثمانية استقبالات نظمها ماو تسي تونغ للحرس الأحمر. كما ألقت كلمة أمام أساتذة الجامعات و المدارس الابتدائية، و أمام الفنانين و المخرجين السينمائيين، و أمام 100 ألف من جيش التحرير الشعبي، الذين جاؤوا لدعم و تأطير ملايين الشباب الذين تجمعوا في بكين خلال شهري أكتوبر و نونبر 1966، و كثيرا منهم جاء سيرا على الأقدام من مختلف مناطق الصين.

طوال الخريف، أصبحت جيانغ تشرف بشكل مباشر على العديد من العروض الفنية للأوبرا النموذجية للحرس الأحمر، وفي نهاية شهر نونبر 1966 ألقت خطابا هاما أمام 20 ألف عامل، حول الثورة الثقافية في الميدان الأدبي و الفني، و الصراع الطبقي القاسي الدائر داخل أوبرا بكين نفسها، و أيضا داخل جبهات فنية أخرى.

في كلمة لها أمام الحرس الأحمر، حثت جيانغ على إزاحة أنصار الطريق الرأسمالي داخل الحزب، و القضاء على الرجعية في المجالات الأربعة، التي هي الإيديولوجيا، الثقافة، العادات و التقاليد، و تحثهم على مواصلة سيرورة الصراع – النقد – التحول، كما هو مطلوب في وثيقة المركز العام الثوري، و تعني وثيقة 16 نقطة (قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني حول الثورة الثقافية)، و التي تعد الوثيقة الرئيسية للثورة الثقافية، و قالت لهم **"أنا متأكدة بأنكم ستقومون بعمل جيد"**.

بالنسبة للثوار، لم تكن المهمة فقط تصعيد النضال ضد اليمين، و التحرك نحو النصر، إنما في سيرورة ذلك، يتم العمل على تقوية اليسار الثوري و إعادة مد دم ثوري جديد، و ربط القادة الجدد بصفوفهم.

و تقول جيانغ مخاطبة إياهم :

"أسألكم : إذا لم يتحد اليسار و يزيد من قوته، هل يستطيع القضاء عليهم؟

كان الرد الساحق من طرف شباب الحرس الأحمر" لا! "

في يناير 1967، عندما انضمت وفود العمال و الفلاحين إلى وفود الطلاب و الشباب، للالتقاء في العاصمة من أجل تبادل تجاربهم الثورية، توجهت جيانغ بخطابها إلى قادة شباب الحرس الأحمر، الذين كانوا يضطلعون بمهمة السيطرة على الحشد عند مغادرته، المهمة التي تبث تعقدها، لأنها تتطلب في نفس الوقت درجة عالية من الوعي السياسي من جانب الشباب لاحتواء حماسهم السياسي، و مع أولئك الذين هم في الحقيقة جاؤوا إلى العاصمة، بحثا عن ثورة، و مناقشتهم لإقناعهم بالذهاب إلى المناطق الريفية لنشر الثورة. لقد كان العدد الهائل من الناس قد أصبح عبئا على موارد المدينة، و كان يجب السيطرة على هذا الوضع بشكل صحيح (و تجدر الإشارة إلى أنه إلى جانب هذا العبئ، انضاف إلى ذلك موقف السلطات المحلية في المناطق، حيث كان يحضى بعض التحريفيين بنفوذ كبير و الذين أثار المتمردون أعصابهم، فسهلوا لهم السفر إلى بكين، من خلال الزيادة في الأجور و توفير تذاكر السفر بالمجان، لكي يذهبوا إلى التعريف بمطالبهم في "مكان آخر").

و أمام هذا الوضع، الذي أراد به التحريفيون خلق الفوضى و قلب الأوضاع لصالحهم، أوضحت جيانغ كينغ للحرس الأحمر أنه :

"إذا جاء أشخاص من الخارج إلى بكين، رغبة في الاستيلاء على السلطة، فيجب أن نعبئهم للعودة إلى ديارهم، مع نفس الرغبة في الاستيلاء على السلطة".

كان التحريفيون يزرعون كل الفخاخ الممكنة لكي يكن طريق جيانغ صعبا، فخلال لقاءهم ب "مجموعة الثورة الثقافية" في نهاية 1966، ندد متحدثون باسم مجموعة متمردة من العمال بنظام العمل التعاقدي، فقد أوضحوا أن هذا النظام يزرع الانقسام بين العمال، و يشجعهم على الذهاب في الطريق التحريفي، مما يمهد الطريق لإحياء الرأسمالية و خنق كل نضالية.

و حسب العمال، تم إنشاء هذا النظام، بعد أن نشر ليو شاو شي تقريرا عقب تفتيش قام به في مناطق مختلفة من مقاطعة هوبي سنة 1964. كما وصفوا جهود التحريفيين من أجل إنشاء العمل التعاقدي، لتكسير إرادة المقاومة عند العمال النظاميين، و قد حذرتهم جيانغ من الوقوع في فخ التحريفيين قائلة :

"**ما تريدونه واضح : أنتم تريدون الثورة**"، و طالبت وزارة العدل و أمين اتحاد النقابات بمقابلة العمال الغاضبين على الفور، و عندما طلب هؤلاء من أولئك في ماذا يقضون يومهم، أجاب التحريفيون : "**مسؤوليتنا هي تربية العمال و تنظيمهم**"، استشاطت جيانغ غضبا و أجابت :

"**أنتم تعملون من أجلهم، لا تقدمون أي تقرير للجنة المركزية قبل أن تحلو المشاكل، ليست لديكم إذن أية صفة شيوعي؟ إن العمال المتعاقدين هم أيضا بروليتاريون و ثوريون، و أنتم، الشخصيات الوزارية البارزة، كيف تعاملتم مع العمال؟ إذا كان الأمر سيستمر بهذه الطريقة، فما هو المستقبل الذي سيكون أمام العمال؟**".

بعد ذلك، احتل العمال المتمردون المقرات العامة للنقابات، و أغلقوا مكاتب وزارة العدل و مسؤولي توزيع العمل في جميع أنحاء البلاد.

اقترحت جيانغ كينغ تجمعا كبيرا للاتهامات و النقد و الفصل، و بلورة تعميم (دورية) من طرف "مجموعة الثورة الثقافية"، يعلن أن العمال المتعاقدين و المؤقتين، يجب أن يكون لهم الحق في المشاركة في الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى، و أن من تم فصلهم لأنهم شاركوا فيها، يجب إعادة دمجهم مع تعويضهم.

3) حركة الاستيلاء على السلطة، و استمرار سيرورة نضال – نقد – تحويل :

على غرار مثال "عاصفة يناير" في شنغهاي سنة 1967، التي أدت إلى تشكيل كومونة باريس الشهيرة، عرفت أنحاء البلاد حركة ترمي إلى انتزاع السلطة السياسية المحلية من مؤيدي طريق الرأسمالية، و حتى تقوم بتنظيم أجهزة قيادية جديدة، فإن جيانغ كينغ، التي تؤيد الحركة بحماس، عممت هذه التجربة الجديدة كل الجدة و المكتسبة من طرف البروليتاريا.

و لتشكيل جنين مراكز السلطة المعروفة باسم "اللجان الثورية الثلاثية" تشكلت السلطة الثورية الجديدة على أساس "اتحاد ثلاثي"، يضم أطرا ثورية للحزب و ممثلين ثوريين عن الجيش الشعبي للتحرير و ممثلي الجماهير الثورية.

خلال هذه الفترة من الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى، تمثل دور جيانغ أساسا كقائدة، في نشر المفاهيم الرئيسية، التي طورها ماو و "مجموعة الثورة الثقافية"، فيما يتعلق بتكوين تحالفات جديدة، و لجان ثورية جديدة، من أجل الاستيلاء على السلطة، و استمرار سيرورة، نضال – نقد – تحويل.

بعد الإطاحة بأكبر معقل للسلطة، الذي جسدته لجنة بلدية بكين، المرتبطة ارتباطا وثيقا بقسم الدعاية السابق للجنة المركزية و وزارة الثقافة السابقة، ترأست جيانغ الاحتفال بتشكيل اللجنة الثورية لبكين، و هناك، أعلنت أن زعماء زمرة بكين، الذين تولوا المنصب وراء الكواليس كانوا "**حفنة من كبار الشخصيات في الحزب، الذين اختاروا الطريق الرأسمالية، و طوال 17 سنة، و باستمرار عنيد، وضعوا قدما إلى الأمام خطا رجعيا بورجوازيا. لقد تطور الخط البروليتاري الثوري، الذي يمثله الرئيس ماو في النضال ضد هذا الخط الرجعي**".

لذلك كان من الضروري مهاجمة كل تأثير هذا الخط، على الجبهات السياسية و الاقتصادية و الإيديولوجية و الثقافية، و استبداله باللافتة الحمراء لفكر ماو تسي تونغ.

لقد ربطت جيانغ كينغ التغيرات الضرورية، التي يتعين إنجازها في بكين بمهمة استكمال الثورة الثقافية، و قد توصلت إلى ضرورة إطلاق العنان لحركة جماهيرية، من أجل القدرة على مواصلة سيرورة النضال – النقد – الرفض، مع الحاجة إلى السير جنبا إلى جنب من أجل تشكيل تحالف من أجل الاستيلاء على السلطة.

و تقول جيانغ كينغ :

"إن مهام النضال – النقد – الرفض و التحويل في مختلف المناطق، و كذلك إعمال النقد و الرفض مع مؤيدي الطريق الرأسمالي بين كبار أعضاء الحزب، ليست متبادلة حصريا، و من الممكن دمجها".

و أوضحت جيانغ، أن كلا منهما (المهمتين) يمكن أن يقدم للآخر زخما كبيرا، لإنجاز واحد من أكبر و أعرق عرض و نقد أنصار الطريق الرأسمالي. و ذكرت الناس بأن هذا يتطلب دراسة جيدة لأعمال ماو، و كذلك إجراء تحقيق شامل. و تحدثت عن الحاجة إلى الاستمرار في نجاح النضال – النقد – الرفض و التحويل في جميع مستويات التنظيمات و الإدارات، لمواصلة الثورة و بناء الاشتراكية. **"إن هذه المهمة كبيرة و حاسمة لمئات السنين القادمة".**

في خطاب موجه لوفد مقاطعة آنهوي، التي كانت منقسمة جدا سياسيا، عملت جيانغ كينغ بقوة مع الفصيلين المتصارعين من أجل توحيدهما و تشكيل تحالف كبير ضد التحريفيين، حتى يمكن خلق لجن ثورية للاستيلاء على السلطة، عندها، فقط، كما قالت : **"يمكن أن يكون لدينا أناس لقيادتنا، و الثورة لا يمكن أن تستمر بدون قادة !"**، و حذرت ضد ريح الرجعية، التي كان هبوبها بالفعل مدمرا، إذ كان يهدف إلى حل جميع اللجان الثورية، التي أقيمت بموافقة اللجنة المركزية.

"لذلك يجب أن نظل، تقول جيانغ، يقظين ضد هذا التهديد، بطبيعة الحال لا يمكن أن تحدث تحولات، لكن هذا لا يجب أن يخيفنا، فالتحولات على مستوى السلطة هي أشياء طبيعية، و أكثر من ذلك، فإن الوضع في جميع أنحاء البلاد غير متساو، و لكن عدم التساوي هو أيضا شيء طبيعي".

4) هناك شيئان يثيران البورجوازية : "الجماهير تصنع الثورة"، و "القادة الثوريون في السلطة، يدعمونهم و يوجهونهم"

كان طريق الثورة شائكا، وكله تموجات و منعرجات، لقد نسبت البورجوازية عنف الثورة الثقافية كله، إلى الدعم النشيط و "الشخصي"، الذي قدمته جيانغ للجماهير الثورية، و هو أمر مألوف من طرفها، فإذا تم القيام بفحص دقيق لدورها، فإنه يتضح بشكل مفحم أنها ناضلت بشدة، من أجل الإبقاء على توجه ماو، الذي حسبه يمكن القضاء بدون عنف على القلة المناصرة للطريق الرأسمالي داخل الحزب.

هذا صحيح من الناحية الموضوعية، ما دامت قد كانت هناك ثورة داخل الثورة نفسها، أخذت المكان تحت دكتاتورية البروليتاريا، التي كانت مهمتها الرئيسية القضاء على أعداء الطبقة العاملة و الشعب، هذه الوضعية تتعارض تماما مع الوضع الحالي في الصين، حيث سيتعين تأسيس حزب شيوعي جديد لقيادة الجماهير، و الإطاحة بعنف بدكتاتورية البورجوازية التي تأسست هناك منذ 1976.

على الرغم من أن القمع المسلح لأنصار الرأسماليين لم يكن ضروريا، لأن البروليتاريا كانت على رأس السلطة، فإن ماو لم يخجل من حقيقة أن الجماهير بمجرد أن تكرس نفسها بالكامل للقيام بالثورة، و إحداث تغييرات قاطعة، فإن بعض الممارسات يمكن ألا تتم السيطرة عليها، لذلك لم يفاجأ برؤية ظهور بعض الخطوط المناهضة للحزب داخل الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى، و التي غذت العنف، لتحويل الجماهير عن الصراع السياسي الرئيسي.

يقول ماو :

"خلال هذه التحولات الهائلة، التي حدثت خلال العام الماضي، كان هناك في كثير من الأحيان اضطرابات، فالآضطرابات التي تحدث من مكان لآخر، ليست مرتبطة فيما بينها بالضرورة، علاوة على ذلك، فالنضال حتى، و إن كان عنيفا فهو جيد،

فبمجرد ظهور التناقضات في وضح النهار، يصبح حلها أسهل. هذه الثورة الكبرى تجري بأقل الخسائر، و بأكبر قدر من الفوائد".

في حرارة صيف عام 1966، عندما كانت الثورة الثقافية تأخذ انطلاقتها، ناضلت جيانغ كينغ ضد اتجاه اليسار المتطرف الراغب في مهاجمة الموالين للرأسمالية جسديا، و تجنب أصعب مهمة دعا إليها اليسار المرتبط بتقدم الصراع الإيديولوجي و السياسي.

تقول جيانغ :

"إن النضال بواسطة العنف لا يمكن أن يصل إلا إلى الجلد و اللحم، في حين أن النضال عن طريق الديالكتيك يمكن أن يمس أعماق أرواحهم".

من ناحية أخرى، كان التحول إلى الصراع العنيف عفويا، و عبر عن مدى حدة الصراع الطبقي، فالعمال انخرطوا في صراع لفظي، لكنهم خرجوا أيضا إلى الشوارع للاستيلاء على السلطة، و منذ سنة 1967، كانت اللجان البلدية، التي تشكلت بمبادرة منها، تسيطر على الأقل على ثماني مقاطعات مختلفة. و قد تم استدعاء الجيش أيضا لدعم العمال و الحرس الأحمر، خلال عمليات الاستيلاء هاته و مساعدتهم على الحفاظ على النظام، و في الوقت نفسه، في بعض الأحياء، دعت القوات اليمينية بشكل علني إلى العنف، من خلال تشويه بعض الشعارات، أو عن طريق تحريض الجماهير على تكريس هجماتها على أنصار الرأسمالية، الذين لا يشكلون قيمة مهمة، من أجل تحويل الانتباه عنهم، هم بالأساس.

فعلى سبيل المثال، تم وضع شعار "لنطرد المجموعة العسكرية الصغيرة"، الذي يشير إلى حفنة من كبار القادة الإصلاحيين، الذي أخذ حرفيا في بعض الأحياء، و تم تطبيقه في أي مكان نجح اليمين في استعماله، بما في ذلك للاستيلاء على أسلحة من القوات النظامية في بعض الأحيان.

هكذا لخصت جيانغ كينغ وجهة نظرها حول هذا الموضوع :

"لا يجب أن ندع أنفسنا نقع في الفخ : إن الشعار مضلل.

ما دام الحزب و الحكومة و الجيش جميعهم تحت قيادة الحزب، فلا يمكن أن نفهم من هذا، أنه يجب فقط طرد هذه المجموعة الصغيرة، من أنصار الرأسمالية، و لا شيء أكثر من ذلك، سيكون الأمر غير عملي إذا تم التصرف بطريقة أخرى : هذا يعني أنه سيكون لدينا عناصر سيئة في كل مكان، و في كل منطقة عسكرية تقريبا، سيتم شن الحملة عليها، دون التمييز بين الجيد و السيء، فحتى إذا ارتكبت أقلية من الرفاق و عدد قليل من جيشنا أخطاء جسيمة، فلن يستحقوا أن يعاملوا بهذه الطريقة ".

و تمضي جيانغ قائلة، أن الشباب بطبيعة الحال، لديهم حس العمل، و لكن من الضروري أيضا "تكوين العقول" لمواجهة المرحلة الأكثر صعوبة، نضال – نقد – تحويل.

يعجب الشباب جيدا السفر من أحد طرفي البلد إلى الطرف الآخر، لكنهم قد لا يعرفون الظروف الخاصة بكل مكان، و يرتكبون أخطاء، **"يجب عليكم أن تثقوا في جماهير المناطق، و لا يجب أن تقوموا بالأشياء، التي يمكن أن تقوم بها بنفسها، تماما كما لا يمكننا ان نقوم بالثورة مكانكم".**

ليس من البديهي دائما معرفة كيفية التعامل مع الطبيعة المتناقضة للعنف الناتج عن الحماس الثوري للجماهير، و صعوبة الموقف، لأنه لا يجب كبح اللحظة الثورية، الصحيحة و الضرورية لسيرورة تحويل المجتمع، لكي تمارس البروليتاريا دكتاتوريتها، بما في ذلك، عن طريق الاستيلاء الكامل على السلطة السياسية.

و إذا كانت هناك اضطرابات و تجاوزات في الثورة، الشيء الذي افترضه ماو، فمن الصحيح أيضا، بشكل موضوعي، التأكيد على أن معرفتها والتحكم فيها بشكل صحيح لا يمكن أن يكون دائما ممكنا، طالما أننا لا نستطيع أن نراها بشكل واضح، فقد يحدث، أنه في الوقت نفسه تستغل بعض القوى هذا الوضع لصالحها و لغايات انتهازية.

و حتى داخل الثورة الثقافية، التي ساهمت جيانغ في قيادتها، فإن بعض العناصر (مثل شن – بو- تا) اختارت استخدام القوة بشكل مفتوح، و قد احتذى بها الشعب، خاصة بعد استفزاز و تمرد وحدات عسكرية، التي دعمت اليمين في مدينة ووهان سنة 1967. هؤلاء القادة في مجموعة الثورة الثقافية، الذين تم تحديدهم فيما بعد كيساريين متطرفين، و حيث كان الهدف خلق الفوضى، و من تم الاستفادة منها، لم يكن من الممكن فصلهم إلا بعد بضع سنوات. أما بالنسبة لليمين، فقد نظم العنف هو أيضا بين قسم من الحرس الأحمر، الذي انقلب على مجموعة الثورة الثقافية.

من جهته، فإن شو وان لاي، كان لديه خط مرتبك، فعلى الرغم من تحالفه مع ماو و حضوره علنا في جناح اليسار، فقد لعب دورا مركزيا للغاية في هذا النقاش، و أصر دائما على استعادة النظام، و العودة إلى الهدوء، و تعامل معهم ك "فوضويين" أولئك الذين واصلوا الحرب الأهلية.

لقد دافعت جيانغ باستمرار عن فكرة وجوب مواجهة و إسقاط العدو بالوسائل الإيديولوجية و السياسية، لقد كان عليها في بعض الأحيان توجيه نداءات التعقل للجماهير الغاضبة، و في خطبها أبرزت كيفية طرد ليو شاو وشي من السلطة دون استخدام السلاح. من جهة أخرى، عندما تم نشر الأسلحة "من أجل الدفاع"، في بعض وحدات الحرس الأحمر، و كذلك أمام القوات المتمردة ضد قلعة اليمين داخل الجيش الشعبي للتحرير وافقت جيانغ على هذه الإشارة.

كان شعار جيانغ **"المهاجمة بالديالكتيك و الدفاع بالقوة"** لكنه كان صعبا تنفيذ هذا الشعار، لأنه تسبب في نوع من التشويش على خط تعيين الحدود بين طرفي هذا الشعار، أي الديالكتيك و القوة، لأن هذا يمكن أن يشجع على استخدام الأسلحة بين

طرفين وسط الشعب، الشيء الذي لن يسهل القرارات، التي تنشأ داخل المنظمات الجماهيرية، فمن كان قادرا على معرفة أين ينتهي الدفاع بالضبط و أين يبدأ الهجوم؟

و بعد فترة وجيزة من عودة ماو إلى بكين، بعد زيارة عدة مناطق، تم إصدار تعميم يحظر أي امتلاك للأسلحة.

خلال الثورة الثقافية طورت جيانغ كينغ علاقة وثيقة مع الجماهير الثورية، التي كانت دائما تقدرها كزعيمة للحزب. فقد وصف عالم روسي يهتم بالحضارة الصينية، حضر كمراقب، في أحد الاجتماعات الحشد المفعم بالحيوية، الذي كان يصفق تصفيقا شديدا :

"بعد خطب شن بو- تا و كونغ شنغ و ليهسويه – فنغ ... التي لم أتذكرها، ذلك لأن بلاغتهم لا تساوي شيئا، تأخذ جيانغ الكلمة بزيها العسكري الأخضر و قبعتها، و لم تتوقف عن الحركة فوق المنصة، حمس خطابها الحضور عندما قالت "إنكم الجيل الثوري الجديد"، أنتم الذين يجب أن تواصلوا الثورة، يجب أن تصلوا بها إلى أبعد مدى. نحن الجيل القديم، الذي يغادر، نغادر و نترك لكم تقاليدنا الثورية القديمة (...)، إن الرئيس ماو يسلم لكم الصين : إن الدولة ستكون بين أيديكم، إن مدرسة الثورة الثقافية مدرسة كبيرة!" كان التأثير قويا. و منذ أن غادر القادة، استمر اللقاء بدون توقف. حل المتحدثون الواحد تلو الآخر، و الجميع يتنافسون بحماس ...".

كان هدف جيانغ كينغ دائما أن تقدم المثال، و من خلال المثال الذي قدمته، شجعت الآخرين على الجرأة : أن يجرؤوا على أن يكونوا مثلها، و أن يجرؤوا على بذل طاقتهم من أجل تحديد الخط السياسي لصالح البروليتاريا، و الاقتداء بها في رفض الخضوع لأهداف معادية للثورة. لقد حددت العدو بوضوح، بشكل يتم فيه التمييز بين المؤيدين لكبار الرأسماليين من جهة، و أولئك الذين، من جهة أخرى عانوا فقط من تأثيرهم، لأنهم كانوا ضعفاء إيديولوجيا و سهل التلاعب بهم. لقد كانت بارعة جدا في الثقة في الجماهير الثورية و احتقار العدو. لقد فعلت ذلك من خلال قيادة عملية و ملموسة، مساعدة الجماهير على حل شبكة

التناقضات المعقدة و المتعددة، التي نشأت في صفوف الشعب، عندما كان يناضل من أجل انتزاع السلطة من أولئك الذين مهدوا الطريق للرأسمالية.

في حديثها إلى وفود من مختلف الفئات الاجتماعية، شددت جيانغ على أهمية تعزيز التصور الإيديولوجي للبروليتاريا، تشجيع النقد و النقد الذاتي بجرأة، و التصدي للأفكار المعارضة، و الحفاظ على موقف حازم في مواجهة الصعوبات، و حثت جيانغ الثوار القدامى على الحفاظ على شبابهم السياسي، و ترك أنفسهم يكتسبون حرارة الشباب، الذي كان يكسب أرضية وسط البروليتاريا. أما بالنسبة للشباب فتقول لهم أيضا بممارسة اعتدال حكيم في الكفاح، و التغلب على الحواجز العمرية و الخصائص الخارجية للأكبر سنا، من أجل فهم الخط السياسي بشكل أفضل و التصرف وفقا للخط الصحيح.

فعلى سبيل المثال، من أجل تعزيز تهيئة الظروف المواتية للاستيلاء على السلطة، و النضال، من بين أشياء أخرى ضد الفصائل، التي ظهرت في بعض الأماكن، لعبت مجموعة الثورة الثقافية دورا مهما في توحيد القادة أو مندوبي الفصائل المعارضة للتمييز بين الخلافات الرئيسية و الثانوية.

و على غرار ماو، (الذي قال إنه يمكن بناء تحالف كبير من خلال القضاء على الأنانية و الإخلاص للشعب، و كذلك من خلال تشجيع نضال صحي) كانت جيانغ كينغ تربط عن قرب مسألة المفاهيم المدافع عنها، بإمكانية الاتحاد لتشكيل تحالفات كبيرة، تقول جيانغ:

"أيها الرفاق، إذا كنتم تعتقدون أن ما أقوله مفيد، فدعونا نغرسه، يجب أن نصبح ثوريين، يطبقون فكر ماو تسي تونغ، و ليس أعضاء في هذه المجموعة أو تلك. إن عقلية الفصيل هي سمة البورجوازية الصغيرة، إنها عقلية الحصن و الجبل و المقاطعية، أو الفوضوية في أجلى صورها، إنه من المرغوب فيه أن نقوم جميعا بالنقد الذاتي، بهذه الطريقة سنتحدث بشكل صحيح و سنسعى إلى الاتفاق على القضايا الكبرى، مع الحفاظ على الفروق الدقيقة في القضايا الأقل أهمية. أن نتحد

حول القضايا الرئيسية، فهكذا نقوم بالثورة، و هكذا ستنجح الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى (...) أن تكونوا مؤيدين للخط الثوري البروليتاري، بقيادة الرئيس ماو، أن تكونوا مؤيدين لخط أنصار الرأسمالية، فهذا يعني إما أنك على صواب بشكل قوي أو على خطأ بشكل قوي. من هنا إذا كنتم تناضلون ضد كبار الشخصيات في الحزب، الذين يسلكون طريق الرأسمالية (ضد آن هوي، ضد الزمرة الصغيرة التي يقودها لي ياوو هوا، الذي يتبع طريق الرأسمالية)، فهل هذا سبب لعدم أمكانية التوحيد أو عدم التوحيد؟ إذا كان الاتكال على مواقفكم الفصائلية، فأنا أقول أنكم تعملون لصالحكم و ليس لمصلحة الثورة، الشعب و البروليتاريا".

"يجب عليكم أولا أن تلزموا أنفسكم و مجموعتكم، إن كنتم تتضاربون أو تخوضون معارك مسلحة بينكم و سرقة أسلحتكم الخاصة، فلا يمكنكم الحفاظ على برودة أعصابكم للتمييز بين الخير و الشر".

و قد تعرض ماو لهذه المسألة من زاوية أخرى، و هي القدرة على الاحتفاظ بالسلطة السياسية، عندما يتحدث عن الثورة الثقافية الجارية سنة 1967، فقد لخص فكره بالإعلان على أن المهمة الرئيسية هي انتزاع السلطة من أيدي الرأسماليين و المساندين لهم، لكنه يضيف :

"إن هذه المهمة تتمثل في حل المشكل على مستوى المفاهيم : يجب إزالة جذور التحريفية"، و إلا، كما يقول، كيف يمكن اعتبار الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى منتصرة؟

بمعنى آخر، فبدون سلطة سياسية، لن يحدث تحول اشتراكي، لكن دون تحول المفاهيم الإيديولوجية البورجوازية، فمن المستحيل الاحتفاظ بالسلطة بعد ذلك.

عندما يعلن ماو أن الطبقة العاملة يجب أن تقود في جميع المجالات، بما في ذلك مجالات الثقافة و البنية الفوقية، فإنه يتحدث بشكل خاص عن التعليم و الفنون، مع العلم أن البعض سيكون مستاء من أن المثقفين لم يتخلوا بعد عن تصوراتهم البورجوازية. **"عليكم أن تتفكروا فيما إذا كان كل مفهوم تدافعون عنه عتيق أم لا"**.

VI - القطع مع الأفكار العتيقة و التأسيس لفكر بروليتاري ثوري

1) صراع بلا هوادة ضد التصور البورجوازي للعالم:

كان مجال الثقافة، الذي واصلت فيه جيانغ كينغ ممارسة قيادتها فيه، ساحة معركة حقيقية، عكست مشكلة التصور البورجوازي للعالم، و هذا ما طرح مشاكل كثيرة للثوار، إذ كانت هناك حرب بلا هوادة بين خطين، ويجب أن ينتصر فيها الخط البروليتاري.

و قد تم إحراز تقدم كبير، و تحقيق انتصارات كبرى، تم انتزاعها بشكل مؤلم من البورجوازية، وذلك بفضل إنشاء فن بروليتاري جديد، و لكن في جميع المجالات الأخرى كان من الضروري خوض نضال بلا هوادة.

أشارت جيانغ كينغ، في إحدى المحاضرات، في منتدى بكين حول الأدب و الفن، في نونبر 1967، أن التفاوتات في الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى، في لجان الدعاية، و اللجن الثقافية كانت تعكس الصراع الطبقي، و تكون مفيدة للعمال و الفلاحين و الجنود.

في حديثها عن التحريفية ترى جينغ أنه ليس من السهل التغلب على الأنانية و التخلي عن التحريفية، ففي اقتراح قدمته إحدى المشاركات في أحد المنتديات، التي كانت تؤيد إرسال فرق صغيرة إلى الريف و المصانع، لجعل الإنتاجات الثقافية أكثر شعبية، أكدت جيانغ، على أنه من غير المجدي الذهاب إلى الريف و المصانع، إذا كان ذلك فيه تجنب لصراع الخطوط.

و في الوقت نفسه، و ردا على من أبدوا نفاذ الصبر، مدعين أنه لم يكن هناك ما يكفي من الأوبرات الجديدة المتداولة، ردت جيانغ على أن هذا الأمر مفهوم لأن "**هذه الأوبرات لا ينبغي أن تكون سيئة، و إلا فإن الناس سيستهينون بنا**". لذلك تدعو جيانغ جميع الفنانين إلى تنظيم أنفسهم، و يشمرون على ساعد الجد، من أجل الوصول إلى إنتاج مرغوب فيه، و إعادة تصميم القوالب الفنية القديمة.

مضت جيانغ نحو الدفاع عن ثمانية أعمال نماذج فنية، التي "**تم إبعادها عن خشبات و شاشات الأباطرة و الجنرالات، تماما كما كانت تستخدم لإبعاد البورجوازية**"، كما مدحت أولى الأعمال، التي قامت بإصلاح الباليه و السمفونيات، و رغم أنه كانت تشوبها عيوب أو نقائص "**فقد أحدثت تأثيرا كبيرا في جميع أنحاء البلاد**".

في سنوات 1963 و 1965 تم تحقيق اختراقات كبيرة في التحول الاشتراكي للفنون، و قد كانت جيان كينغ و مجموعة صغيرة من الرفاق على رأس هذه المعركة، التي هي في نفس الوقت صراع و نضال.

و مع ذلك، فطالما لم يشارك المجتمع بأكمله في النضال من أجل السلطة السياسية في الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى، فإن مشكل تشكيل فرق لتنفيذ هذا التحول بشكل جيد على نطاق واسع لا يمكن حله، و لن يكون أيضا من الممكن حل صعوبة توسيع الثقافة الثورية الجديدة، لتشمل أعمق، و أكبر عدد ممكن من الجماهير في الصين.

وفي سنة 1967، كانت هناك بداية تحول، حيث تم تصميم خطط، لإخراج عروض ثقافية نموذجية على الشاشة الكبيرة، مما يجعلها في متناول جميع الصينيين و الصينيات، لذلك تم القيام بعمل واسع النطاق للترويج لهذه الإنتاجات، إذ تم الاتصال بالوحدات الثقافية في جيش التحرير الشعبي و الاستعانة بعمل الفرق المتنقلة أو الطائرة (صيغ مبتكرة) والتي كانت تعرف انطلاقة كبيرة.

كانت جيانغ كينغ تتحدث في كثير من الأحيان، في لقاءات مع مجموعات من الفنانين و الكتاب خلال الثورة الثقافية، معلنة تحديها في أن يشاركوا مشاركة كاملة في المهام العامة للثورة، كما حثتهم على القيام بالثورة داخل وحداتهم. لكن يتضح أن الحزب حقا، و حتى صيف 1967، لم يكن قادرا على شن هجوم، و تطوير النقاش حول الثقافة بين الجماهير. لقد وقع صراع حاد بين الخطين.

بصفة عامة، فإن الأمر يتعلق بتحويل الفنون، و تعميم تجربة جيانغ كينغ الناجحة مع ثورة أوبرا بكين. و قد خرجت إلى النور العديد من المقالات، و المحاولات في الصحافة، و في أجهزة النشر النظرية، ثم نشر الحصيلة الهامة لسنة 1966 حول منتدى الفنون و الثقافة وسط القوات المسلحة على الملأ، و نجد هناك بعض التعليقات من ماو عن هذه القضايا، و تم أيضا رفع نماذج الأوبرا الجديدة في الساحات.

و قد كان ماو، و غيره من القادة المهمين، من بين جمهور هذه العروض، و تشرفت جيانغ بترأس الاحتفال بالذكرى السنوية الخامسة و العشرين لمنتدى يانان، حيث تم تقديم العديد من النماذج الفنية.

و منذ البداية حرص اليسار على المشاركة الكاملة لجيش التحرير الشعبي في المعركة الصاخبة من أجل الثورة الثقافية، و كان لهذا ميزة تعزيز الخط اليساري بين الجنود، و زيادة مستوى فهمهم السياسي و الإيديولوجي، و السماح لهم برؤية الصراع الطبقي بين الخطين، الذي كان يجري، ليس فقط في المجتمع، و لكن داخل الجيش أيضا.

و من بين المسؤوليات الأخرى، تم تعيين جيانغ كينغ مستشارة في الثقافة لجيش التحرير الشعبي في فبراير 1966، و مستشارة لمجموعة الثورة الثقافية، التي أقيمت في الجيش سنة بعد ذلك.

و تحت قيادة جيانغ كان يجري على الجبهة الثقافية، صراع مكثف لحل القضايا المتعلقة بالخط الصحيح للإنتاج الثقافي البروليتاري، و هكذا خرجت إنتاجات جديدة للوجود، و عقدت مؤتمرات حول الإبداع الأدبي، و تم إيلاء اهتمام خاص لتشكيل

"جيش من النقاد الأدبيين و الفنيين"، و نحو نهاية سنوات الستينات، تم تحقيق حصاد الثمار خلال الثورة الثقافية بسهولة، و كذلك الاتجاه المطبوع بخط اليسار على الخصوص داخل جيش التحرير الشعبي. و بالفعل، بدأ الجنود المشاركة في هذه الثورة على مستوى نوعي مختلف، سواء في أنشطتهم السياسية أو الثقافية. إن توسع الأنشطة فتح الباب نحو دراسة السياسة حتى في الكتابة و الإنتاج، و لعب الكوميديا و الأوبرات، و تنظيم منتديات و مهرجانات الهواة في الوحدات المحلية لجيش التحرير الشعبي عبر الصين.

2) صراع الخطوط يقطع مرحلة جديدة :

لم تحقق جيانغ كينغ ذاتها حقا، كقيادية إلا في زمن الثورة الثقافية، رغم أنها شاركت في دجنبر 1964 في المؤتمر الوطني لنواب الشعب، كممثلة لمقاطعة مسقط رأسها، شانتونغ. فهذا الدور لم يمنح لها "بصفة رسمية" إلا في المؤتمر التاسع للحزب سنة 1969، عندما تم انتخابها لعضوية المكتب السياسي للجنة المركزية، و من تم جرتها مسؤولياتها أكثر فأكثر في النضالات السياسية في المراتب العليا للحزب. لقد ساهمت بشكل كبير في تقوية اليسار بفضل نضالاتها.

كانت الصين، في السنوات الأخيرة من الثورة الثقافية، مشغولة بتسريع التحول الاشتراكي، في الاقتصاد و الصحة و الفنون و الثقافة، و بالأخص، بمهاجمة نظام التعليم القديم، و كان يتم كل هذا عن طريق بناء و توحيد اللجان الثورية.

و قد تسببت هذه التغيرات في ضربات شديدة للأسس المادية و السياسية للرأسمالية، و سمحت للبروليتاريا بتوسيع نفوذها في مجالات جديدة.

كان هناك أيضا انعكاس عميق للتغيرات التي أخذت مكانها في علاقات الإنتاج، في قوالب جديدة، ناشرة إشعاع علاقات اجتماعية جديدة في جميع مجالات المجتمع، لكي يتم في الأخير إحالة علاقات الاستغلال و الاضطهاد إلى الظل، تلك العلاقات، التي ستنتهي الإنسانية إلى الإلقاء بها في أعماق الموسوعات، التي يكتسيها الغبار.

من بين الظواهر الجديدة، التي يمكن ملاحظتها، نشير من بينها إلى : العمال و الفلاحين و الجنود المسجلين في الجامعات، شباب مثقف، الذي انتقل إلى الريف، و كوادر الحزب، الذين شاركوا في أعمال الإنتاج، العمال الذين شاركوا في الإدارة و إعادة صياغة القواعد و القونين القديمة، إلى التغيرات في مجموعات الاتحاد الثلاثي، التي تم تنفيذها في جميع المجالات، بما فيها ما يتعلق بالابتكارات التكنولوجية في المصانع و المناطق الريفية، و كذلك الاختراقات العلمية بشكل عام، و الشعارات "الحمراء و الخبيرة" أو "السياسة في مركز قيادة المهارات المهنية"، التي عملت على دمج الأشخاص المسلحين بفهم سياسي صحيح و أولئك الذين لديهم معارف خاصة، و تم تشجيع النساء على شغل مناصب في الحزب و قيادة مجموعات الاتحاد الثلاثي، باعتبارهن من كبار السن، الذين جاؤوا من الجماهير، التي تربط الشباب بتجربتها الغنية، و كذلك تعزيز العمل الجماهيري بالعلم و التكنولوجيا، و أعمال تصلح كنموذج ثقافي، أعمال أصبحت ملكية للجماهير، و برز أدب ثوري في الشعر و الفن، و نظمت دراسة النظريات الماركسية على مستوى عالي، و أنشئت مستشفيات مجانية أو قريبة من ذلك في البوادي، حيث قام أطباء حفاة الأقدام، بعضهم من الفلاحين المدربين في مجال الطب، بتوفير العلاجات.

لا أحد كان يعارض ما كانوا يسمونه هذه "الأشياء الاشتراكية الجديدة"، التي كانت قد ظهرت في حركة الإطاحة باليمين. و قد تم استبدال العديد من ممثليهم الرئيسيين في المناصب العليا للحزب، و مع ذلك، فحتى البعض، مثل لين بياو انتهوا في آخر المطاف إلى تشويه هذه الابتكارات للثورة الثقافية.

منذ رسالة يوليوز 1966 إلى جيانغ كينغ، حذر ماو من "بعض أفكار أصدقائنا تزعجني بشدة" و هنا يشير إلى الطريقة، التي روج بها لين بياو لأفكار ماو، بمعنى، كما لو أن لهذه الأفكار قوة مقدسة. و كتب ماو لجيانغ "كل شيء مبالغ فيه. هذا يذكرنا بالغضب الشديد، الذي شعر به ماو في لازمة بياو الغبية في سنة 1959، عندما تمت ترقيته للتو إلى منصب وزير الدفاع، حيث قال : "واحدة فقط من جمل ماو تساوي عشرة آلاف جملة".

و قد قدمت جيانغ حصيلة قصيرة لما فعله لين بياو، فقد كتبت، أنه في الفترة، التي أعقبت الإطاحة بالموالين للرأسماليين، الذين كان على رأسهم ليوشا وشي، تم تعيين لين بياو خلفا لماو في مؤتمر الحزب التاسع، ثم حاول اغتصاب قيادة الحزب، أي قيادة الدولة، و قيادة الجيش، بالإضافة إلى نشر كتبه باسم ماو (عن طريق نشر أعمال الرئيس الراحل على نطاق واسع و تسميتها ب "فكر لين بياو" على حد تعبير جيانغ كينغ)، و قد خلق فوضى كبيرة، بإثارة معارك تشهر فيها الأسلحة، و تنفيذ عمليات نشر للقوة العسكرية غير ضرورية. و تخبرنا جيانغ كينغ أيضا عن أسلوب حياته المبذر و حماسته الكونفوشيوسية "ليصبح مسؤولا، وحتى يغتني".

عشيه إعداد محاكمة لين بياو من قبل اللجنة المركزية، الذي لعبت فيه جيانغ دورا حاسما، فإن هذه الحصيلة بالرغم من كونها ذات طابع سردي، فإنها مع ذلك لا تخلو من دلالة هذا الخائن كما تسميه، الذي كان قد اختبأ بالقرب من ماو، و ضربة خنجره العنيفة، للاستيلاء على السلطة، قد زعزعت عميقا الحزب و المجتمع، في الوقت الذي كانت فيه مكاسب الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى، و الوحدة الوطنية في طريقها إلى أن تتوطد. ناهيك عن كون هذه الحلقة، كانت جزءا من سياق تاريخي، حيث ينزل الاتحاد السوفياتي بثقل التهديد العسكري للصين.

من بين الصراعات العشر الكبرى بين الخطين داخل الحزب الشيوعي الصيني (حتى 1972) تخبرنا جيانغ كينغ أن الأخطر، هو ذلك الذي كان ضد لين بياو.

كان لين بياو مرتبطا ارتباطا وثيقا باليسار في منتصف الستينات، عندما كانت هناك حاجة إلى تحالف كبير، من أجل تكثيف الهجوم ضد اليمين، و خطر انتعاش الرأسمالية. في ذلك الوقت لعب لين بياو دورا مهما في تولي التربية الاشتراكية في صفوف الجيش، مصححا خط بينغ تي هواي (الذي دعا إلى تحديث الجيش من خلال الاعتماد على التكنولوجيا المتقدمة مثل

التحريفيين السوفيات). لكن لين بياو و أتباعه انتهزوا الفرصة لتعزيز قاعدة دعم و تمجيد ماو، و حتى جيانغ إلى حد ما، بجعلهم أيقونات، يتطلعون إلى الإطاحة بها.

أراد لين بياو دعوة الجيش لاستعادة النظام، و في 1967-1968، كان قد ادعى أن الإنتاج يجب أن تكون له أسبقية على الصراع السياسي.

في مؤتمر الحزب التاسع سنة 1969، كان من الواضح أن برنامج لين بياو كان على اليمين، لقد كتب أن التناقض الرئيسي كان بين النظام الاشتراكي المتقدم و القوى المنتجة المتخلفة، و اعتبر أن الأشياء الاشتراكية الجديدة كانت عقبة أمام الجماهير، التي كانت بحاجة للحصول على "الغذاء و النفط".

وعلى الرغم من معارضته بشكل واضح لاستسلام شو أن لاي للامبرياليين الأمريكيين (بما أن لين فضل "الاشتراكيين السيئين" في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية) فقد تقاسم نقطة مشتركة مع الأهداف الأكثر اعتدالا، و لكن يمينية بشكل أساسي، من خط تحديث شو، الذي استسلم أمام الامبريالية، كما قاوم إرادة ماو في إعادة الدور القائد للحزب و تقليص دور الجيش.

في ذلك الوقت، وقع صراع حاد على مستويات الحزب، فيما يتعلق بالوضع الدولي، ففي 1970، كان ماو متفقا مع شو (و لكن ليس لنفس الأسباب) على الانفتاح على الغرب، و بالتالي خلق تحالف بين اليسار و القوى الوسطية لشو (معظمهم من الحرس القديم للحزب) و التراتبية العسكرية (التسلسلات الهرمية العسكرية). تم تشكيل هذا التحالف لهزم خط لين بياو، و بعد هزيمته سياسيا، استمر هذا الأخير في طبخ ضربته، و ذهب أبعد من ذلك بالتخطيط لاغتيال ماو، و أخيرا اضطر لين إلى الفرار إلى الولايات المتحدة الأمريكية، و قد مات في تحطم طائرة في سنة 1971. لقد كان يلوح بالعلم الأحمر، لكنه في الواقع كان يحارب الشيوعية، و قد سجلت جيانغ :

"من ناحية كان علمه أحمرا، لكن من ناحية أخرى نرى جمجمة ميت مثبتة على عظام تتقاطع مع خلفية سوداء".

كان لسقوط لين بياو تأثير في تعزيز مكانة شو إن لاي داخل الحزب، فقد فرض السياق أن يمتثل اليسار لمطالب شو، الذي دافع عن عودة اليمينيين، الذين تم فصلهم خلال الثورة الثقافية، لملإ المراكز الشاغرة، التي خلفها لين بياو و عشيرته، سواء داخل الجيش، أو داخل هيئات الحزب، و حتى دينغ كسياو بينغ تمت إعادة تأهيله. لكن إذا كان قد بدا أن اليمينيين ينتقدون أنفسهم علانية بشأن أخطائهم السياسية، فقد يكتسبون القوة في الظل.

كان اليسار في حاجة إلى الكشف عن جذور تحريفية لين بياو، و على الرغم من ضعفه من الناحية التنظيمية، إلا أنه كان حرا على المسرح السياسي، لتسليح الجماهير ، من أجل فهم الجوهر اليميني لخط بياو، و ثانيا، كشف اليسار الوجه المنافق و القناع اليساري المتطرف، الذي تلبس به. إن مثالية خطه، تلخص في "إن العباقرة هم من يصنعون التاريخ".

على الرغم من أن اليمين قد أصبح أقوى، فقد كان اليسار هو الذي انتصر في المؤتمر العاشر للحزب سنة 1973، مدعما الثورة الثقافية و الجبهات الجديدة للاشتراكية، و كذلك الحاجة إلى فهم الإنتاج لتعزيز الثورة.

تم انتخاب جيانغ كينغ مرة أخرى لعضوية المكتب السياسي، و لكن في اللجنة الدائمة لم يكن هناك سوى تشيانغ تشون تشياو ليرتبط بشكل كامل بمعسكر ماو.

تحدثت جيانغ كينغ عن الآثار الإيجابية للدراسة المنظمة بين الكوادر للتخلي عن خط لين بياو، و كذلك، التقدم في المستوى السياسي للجماهير، و قدرتهم الواعية على التصرف، من خلال تطبيق الماركسية –اللينينية و فكر ماو تسي تونغ.

في سنة 1974، بدأ اليسار حملة لانتقاد لين بياو و كونفوشيوس، و كانت الكونفوشيوسية تنصح بإعادة تأسيس الأنظمة القديمة، مثل العبودية و الاستسلام للمعتدين الأجانب، و الاستسلام الأعمى للجماهير، التي لم يكن من حقها إلا أن تخضع.

كانت هذه الحملة هجوما مباشرا موجها بشكل أساسي إلى دينغ كسياو بينغ، و ثانيا إلى شو إن لاي، حيث كان الوسط ، ذلك الطريق الذي يؤدي إلى صعود اليمين.

VII- جيانغ كينغ و آخر المعارك الكبرى

1) استمرار المعركة الثقافية ضد التحريفيين

مرة أخر تصطدم جيانغ كينغ بالتحريفيين حول الثقافة، فقد دعا هؤلاء إلى استنساخ نماذج الغرب بحجة الحداثة، لقد كانوا يسعون إلى تشويه سمعة الفن البروليتاري، مثل الأوبرات الثورية، و غيرها من أعمال الثورة الثقافية، فهنا حيث ساد هذا الخط، تلقى الفن الثوري ضربات شديدة.

تحت تأثير شو إن لاي، الذي أراد فتح أبواب الصين أمام الغرب، تمت دعوة العديد من الفرق الموسيقية الأجنبية إلى الصين، و لم تكن هذه سوى واحدة من الجبهات، التي كانت تدور حولها معركة شرسة، بين رئيس الوزراء و جيانغ كينغ، و كان ذلك يدخل في إطار هجوم عام متزايد من طرف اليمين، هجوم شمل معركة مهمة على الساحة الثقافية كما تم التعرض لذلك سابقا.

في الذكرى العاشرة لأوبرا بكين الثورية سنة 1974، كانت هناك مقالات و احتفالات، التي تدعم الثقافة الاشتراكية الجديدة، و انتقدت بصراحة أولئك و اللواتي و الذين اعتبروا و اعتبرن الأدوار البطولية للفلاحين فوق المنصات "غير لائقة"، و طالبوا (ن) بعودة الأمراء و الأباطرة، لكن في نفس الوقت، نشرت كتب جديدة شجعت التحول الاشتراكي في مختلف المجالات.

تمجد هذه الأعمال، من بين أشياء أخرى، الإنجازات في الإنتاج الزراعي و التطورات النموذجية، سواء في الصناعة أو في حقول النفط في تايشينغ، و توسعا كبيرا في عمل "الأطباء الحفاة".

يبدو أن ماو أيد عرض بعض الأفلام، التي عارضتها جيانغ كينغ، و هذا لا يمثل إلا أهمية بسيطة، لكن اليمين جعل منه قضية كبرى، عندما استولى على السلطة، و شرع في الاعتقال المتلاحق لقادة الثورة الثقافية الأربعة. هذه الاختلافات الصغيرة بين الرئيس ماو و جيانغ كينغ كان مبالغ فيها بشكل صارخ، و تم إثبات التهم فيما يتعلق بهذه الوقائع المبالغ فيها.

لقد شجبت جيانغ كينغ و اليسار عرض فيلم جديد لهوا كيو فينغ، و أجهضوا عرضه، مؤقتا على الأقل، فقد أخرج هذا الأخير إنتاجا سينمائيا تمت فيه الإشادة بالأساتذة الحكماء و مقارنتهم بالقائمين بأعمال البستنة ذوي الذوق الرقيق.

كان العمل على إنتاج أعمال غنية بالألوان، لكنها تتعارض مع عمل التعليم البروليتاري في المدارس، وهو أمر يتناقض بشكل ملحوظ مع فيلم "القطع مع الأفكار القديمة"، الذي تم إخراجه في نفس الفترة، من طرف الشباب أتباع الخط الثوري المنتمي إلى اليسار، هذا الفيلم الذي يبرز بشكل حي الصراعات الطبقية.

لقد كان إنتاجا سمعيا بصريا دافع عن الحق في الالتحاق بالمدرسة، في مجتمع بورجوازي، و ندد بالأساتذة التقليديين المتزمتين، الذين اقترحوا برنامجا تعليميا يتناسب مع احتياجات البورجوازية بدلا من احتياجات الجماهير، التي كانت تعمل من أجل تحويل المجتمع.

و على الرغم من أن الفيلم تم تصويره خلال فترة "القفزة الكبرى إلى الأمام"، إلا أن موضوعه مناسب تماما لسنوات السبعينات. لقد أصبح هذا الفيلم في الواقع من الكلاسيكيات على نطاق عالمي، فقد وضع الطلاب و قادة و قائدات الحزب حدا للغطرسة البورجوازية للأيام الخوالي، و جروا في أعقابهم الكثير من المترددين.

كان الصراع السياسي داخل الحزب ينمو أكثر من أي وقت مضى، فقد تشكل خطان و سطر طريقان، لقد استعاد الكثير من التحريفيين مواقع مهمة جدا.

في يناير 1975، في المؤتمر الوطني الرابع لنواب الشعب، و على الرغم من انتصار اليسار سياسيا، فإن المناصب الرئيسية، التي شغلها اليمين في المجال التنظيمي سمحت له باستعادة المبادرة.

تم إطلاق نداء من اليسار، فقد كان من الضروري إعطاء المزيد من القوة للجان الثورية، و هذا على جميع المستويات، و من جانبه، وضع شو إن لاي خطة لتحديث الصين، تضع لها سنة 2000 كهدف عام، و هذه الخطة تتطلب المساعدة من الامبريالية، و لا يمكن أن يؤدي إليها إلا إقامة علاقات رأسمالية، و الزيادة في الانقسامات بين الطبقات الاجتماعية، و كان مشروع هو كو فينغ، الذي يهدف إلى مكننة الزراعة مستوحى من نفس المبادئ اليمينية.

من جانبها، كانت جيانغ كينغ، التي تتابع عن كثب ما كان يتم تنفيذه، من قبل لواء تشاي الزراعي، و نعتت تقرير هوا ب"التحريفي" في المحاضرة حول دروس تشاي في أكتوبر 1975 . و تلا ذلك صراع محموم، فقد كان تقرير هوا جزءا من حركة يمينية، و لم يكن شيئا آخر أكثر من محاولة لتجاوز المسألة المركزية اليوم، بما فيها، ما إذا كانت الثورة ستدفع التنمية الشاملة للاقتصاد أم لا.

و قد أجاب ماو و قادة الثورة الثقافية الأربعة اليمين، بحملة لدراسة و تعزيز دكتاتورية البروليتاريا، وأشاروا إلى أنه على الرغم من أن الملكية، التي كانت تتطور، هي اشتراكية بشكل أساسي، إلا أنه لا تزال هناك العديد من بقايا الرأسمالية، التي يجب التغلب عليها مثل نظام السلع، سلاليم الرواتب المتدرجة و عدم المساواة المادية، و أن القانون البورجوازي - الامتيازات الاجتماعية و المادية، المبنية على التمييز بين قوة العمل للفرد بالمقارنة مع الآخر- لم يتم إلغاؤه بعد.

و قد امتد هذا الصراع بين خطين إلى مجال التعليم أيضا، فقد كان الأمر يقوم على تحديد ما إذا كان تثوير التعليم كابح للإنتاج أم لا. و قد كتب بعض الأساتذة من جامعة تسينهوا إلى ماو يشتكون من "انخفاض مستوى الأداء الأكاديمي" في إشارة إلى معايير التعليم البورجوازية.

لقد دعا ماو إلى نقاش جماهيري، و شارك في ذلك بنشاط، قادة الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى الأربعة، و قد لعب شانغ شون شياو و غيره دورا رئيسيا في ذلك. و الآن و قد أصبحت ملاحظته مشهورة، فقد تم إدراكها بلا شك خلال هذا الصراع، بينما كان يؤكد :

"هل سنمنح المكانة الأولى للمثقفين و الأرستقراطيين ذوي الوعي و الثقافة البورجوازية، أم نعطي المكانة الأولى للعمال الواعين، لكن بدون ثقافة؟ من هذين التصورين، ما هو التصور، الذي ستختارون؟".

لكن اليمين شوه سؤاله، لذلك قيل أن جيانغ كانت تعني أن العمال ليسوا في حاجة إلى التثقيف، و بالتالي تحديد مفهوم الثقافة ليخدم البورجوازية. لقد أصبح أكثر حدة، لاسيما ضد دينغ كسياو بينغ، ممثل الحزب الأكثر يمينية داخله، فقد عبر عن اتجاهه السياسي بشكل لا يمكن إنكاره من خلال الشعار **"قط أسود، قط أبيض، لا يهم ما دام يصطاد الفئران"**. و قد تضمن برنامجه العام ملخص لوجهات نظره، دافع فيه عن "التوجيهات الثلاث (التي كان يراد منها بديلا و نفيا للصراع الطبقي البروليتاري) كخط رئيسي.

2) في قلب الحزب الشيوعي تسكن البورجوازية

بعد وفاة شو إن لاي في يناير 1976، كانت قدرة اليسار على إدانة دينغ بالكامل (بدون أن يكون هناك شو لحمايته) معززة بشكل كبير، و بالتالي كان اليسار قادرا على أخذ المبادرة. لكن من ناحية أخرى، لم تكن قوية بما يكفي لتعيين شانغ شون شياو كوزير، في الصراع من أجل الخلافة، بالإضافة إلى الدور المحوري، الذي لعبه شانغ شون شياو في الثورة الثقافية، كعضو في مجموعة الثورة الثقافية، و كذلك الدور، الذي لعبه في شنغهاي، حيث كنست الوجوه التحريفية القديمة، لقد أصبح قائدا ذا أهمية كبيرة في مجموع الحزب، و كان مؤلف مقالات مبتكرة من قبيل "الدكتاتورية الكاملة على البورجوازية". كما لعب أيضا دورا مهما في

مجموعة دراسة حول الاقتصاد السياسي لشنغهاي، التي تدفقت عنها أعمال كتابية واسعة النطاق، التي تتعامل مع التحليل الطبقي في علاقته مع القوانين الاقتصادية في الاشتراكية و التناقضات التي تظهر فيها.

على الرغم من أن اليسار نجح في عرقلة مسيرة دينغ كسياو بينغ إلى الأمام، إلا أنه كان من الضروري تقديم تنازلات، و هو القبول بهوا كو فينغ كوزير، الذي لم يكن شخصية بارزة في اليمين، كما لم يكن له عدد كبير من الأتباع.

كانت جيانغ كينغ نشيطة جدا وسط هذا الصراع، فقد لعبت فيه دورا بارزا للغاية، مما أثار غضب دينغ كسياو، و قد كان اليمين هو المحرض على أعمال الشغب المعادية للثورة في ميدان تيانانمن في المحاولة الانقلابية في أبريل 1976

كان الهدف المزعوم، يتجه إلى مهاجمة ماو و سياساته بذريعة الاعتراف بخط تحديث شو إن لاي، لكن الشخص الذي أراد التحريفيون مهاجمته، كان هو جيانغ كينغ، من خلال ملصق كونفوشيوسي تافه، و هكذا أطلق على هذه الثورية "الامبراطورة دواجر"، و هو اسم لأحد الحكام الإقطاعيين، الذي قمع تمرد البوكسر سنة 1900، و الذي من وجهة نظر تاريخية، يشبه إلى حد كبير نظام دينغ كسياو بينغ، الذي ذبح الطلاب و العمال سنة 1989.

بعد هذا الحادث، الذي تم إيقافه بواسطة جيش التحرير الشعبي، و المليشيات الشعبية، زعم أن مهمة جيانغ كانت تتمثل في تنظيم سحب أكاليل الزهور التذكارية في ميدان تيانانمن، و هي مبادرة اعتبرت مسيئة لليمين، و تمت محاولة استخدامها ضد جيانغ كينغ، و أقيل دينغ من جميع مناصبه لتحريضه على أعمال الشغب هذه، في حين دعم ماو و اليسار الحملة من أجل دكتاتورية البروليتاريا. لقد كانت الرصاصة موجهة إلى دينغ، و الخط المنحرف لليمين.

و حول هذا، أدلى ماو بتعليقه الشهير:

"تصنعون الثورة و لا تعرفون أين توجد البورجوازية : حسنا، إنها في قلب الحزب الشيوعي، إن أنصار الطريق الرأسمالي دائما في طريقهم إلى الرأسمالية".

كان هذا، الجوهر نفسه لدعوى و هجوم اليسار، و كان يقودها ماو، و القادة الأربع للثورة الثقافية البروليتارية الكبرى، الذين شكلوا النواة السياسية، و الذين وجهوا ضربة قاضية إلى اليمين، و قد أثارت الحلقة مواجهات حامية بين المقرين العامين داخل الحزب، و غني عن القول أن التحريفيين فعلوا كل ما في وسعهم لمنع هذه الحملة و تطوير الحركة الجماهيرية .

VIII - وفاة ماو و الانقلاب الرأسمالي

1) انقضاض التحريفيين على السلطة :

في التاسع من شهر شتنبر في سنة 1976، يلفظ ماو أنفاسه الأخيرة، و يتنفس التحريفيون، أخيرا، الصعداء.

و في الوقت، الذي شاركت فيه الجماهير الصينية، و كذلك الملايين من الناس في جميع أنحاء العالم الحزن على هذه الخسارة التي لا تقدر بثمن، كان التحريفيون الصينيون راضون عن أنفسهم، و يستعدون للانقضاض على السلطة، و على رأسهم الخليفة الرسمي هوا كو فينغ، و معهم ممن تمكن من اغتصاب السلطة، بما في ذلك جزء من القوات المسلحة. كان التحريفيون قادرون على إنجاح انقلاب بضعة أشهر بعد وفاة ماو، و قاموا على الفور باعتقال زعماء قادة الثورة الثقافية الأربعة، و كذلك أولئك اللذين كانوا يساندونهم. لقد انتهت دكتاتورية البروليتاريا في الصين فجأة، و كثير من أولئك و أولئك، كانوا يعرفون أن نهاية ثورة بدأت تدق على التو.

لم يتم خداع الكثير، و تكهنوا بأن التيار اليميني وراء الدعاية المزيفة، التي أمطرت على الصين.

كعادة التحريفيين البارعين في قلب الحقائق لكي تتمشى مع مصالحهم، فقد زعمت وسائل الإعلام، أن قادة الثورة الثقافية الأربعة، هم الذين يشكلون في الحقيقة "اليمين التحريفي"، و أنهم، خاصة فيما يتعلق بجيانغ كينغ من أتباع الكيومنتانغ، و أن القادة الأربعة، جيانغ كينغ، شانغ شون كياو، ياو ون يوان، وانغ هونغ وين، و العديد من رفاقهم هم أعداء ماو، و قد قيل أن ماو نفسه، كان سيوافق على هذا القمع للتغلب على الثورة المضادة.

في محاولة لتوطيد السلطة، كان اليمينيون في الدرك الأسفل من الدناءة، عندما أضافوا إلى ذلك حملة تشويه في حق القادة الأربعة، وأمطروهم بالعتاب، تحت ذريعة الحوادث البسيطة في الماضي، التي صبغوها بطلاء بنسب تليق بها حكاية رائعة.

إن كونفوشيوسيي العصر الحديث هؤلاء، يبذلون كل ما في وسعهم لتشديد قبضة سلاسل التقاليد بواسطة طاحونة من الشائعات، التي نشروها من أجل قضيتهم، فقد اختاروا مهاجمة المرأة جيانغ كينغ بأكبر ما يمكن ان تكون الشراسة، فلأنها زوجة ماو، فقد كان عليها أن تتحمل كل ما عانت منه الصين من المحن حتى الآن، لكن كان عليها أن تتحمل العبئ الخاص بجميع الأخطاء، التي ارتكبت خلال الثورة الثقافية.

2) تزعمت مدينة شنغهاي مقاومة الشعب الصيني للانقلابيين

لقد كانت هناك مقاومة بطرق عديدة، فقد كان من بين التهم الرئيسية خلال "المحاكمة" سنة 1980، أنه كانت هناك مؤامرة عسكرية في شنغهاي ردا على الانقلاب. كان لشانغ شون شياو، إلى جانب العديد من أتباعه تأثير كبير في هذه المدينة اكتسبه

خلال النضال الحاد، و التحولات العميقة الناتجة عن الثورة الثقافية. لقد أصبحت شنغهاي مشهورة بسبب "عاصفة يناير"، عندما انضم ملايين العمال إلى الفلاحين و الطلاب، و غيرهم لاستعادة السلطة، التي اغتصبها التحريفيون في لجنة بلدية الحزب سنة 1967.

في غشت 1976، عندما أصبحت المواجهة داخل الحزب أكثر وضوحا، تم توزيع الأسلحة والذخيرة على مليشيات شنغهاي الشعبية، التي يبلغ قوامها مليون شخص، و التي تم إنشاؤها من قبل اللجنة البلدية الثورية قبل بضع سنوات.

و بمجرد ما تمت معرفة القبض على القادة الأربعة، تم تنفيذ خطة عمل مفصلة لسد بوابات المطارات، و إغلاق مكاتب الصحافة و الإذاعة، و بدأت الإضرابات و المظاهرات و تعبئة مليشيات النساء و الرجال للعمل بالاشتراك مع حامية قيادة شنغهاي.

لقد حشد زعيم شيوعي أكبر سنا، و هو تشو يونغ جيا، المقرب جدا من شانغ شون شياو، و زعيم لجنة تحرير حزب شنغهاي، الثوار لإعدادهم للعمل، داعين إلى "كومونة باريس جديدة". فقد قال أنه، إذا صمدنا فقط لمدة أسبوع أو خمسة أيام أو ثلاثة، لا يهم ! الشيء المهم، هو السماح للعالم بمعرفة ما يحدث بالفعل هنا!". بعبارة أخرى، أن هذه الثورة ستوضح أن انقلابا تحريفيا قد حدث للتو، لكن هناك ثوار قاوموا ذلك بشراسة.

كانت معظم التقارير، التي تناولت الحدث، قد جاءت من هونغ كونغ، و كانت هناك بعض التقارير في الصحافة التحريفية نفسها، لكن تفاصيل هذا التمرد تبقى غير معروفة. من جهة أخرى عرفت الثورة بعض الإخفاقات، و تم استدعاء القادة على وجه التحديد إلى بكين، لقد اتضح أكثر فأكثر أن الثوار فقدوا مبادرة انتفاضة عظيمة.

في الواقع أرسل مدبرو الانقلاب قوات إلى المدينة لمنع أية انتفاضة، و مع ذلك، في 13 أكتوبر، كان هناك قتال مسلح في صفوف بعض وحدات المليشيا، و بعد أسبوع تم وضع القادة الأربعة في الظل، لكن بمجرد ما تمت معرفة اعتقالهم في شنغهاي في 10

أكتوبر، حتى تجمع الآلاف من الأشخاص يوميا في المقرات المركزية الاستراتيجية، لمعرفة ما الذي سيباشره القادة من تصرف، و قد قام زهو بمداخلة حكيمة، عندما تحدث عن الحاجة إلى عمل سريع و حاسم، و قد كان يحظى بدعم كبير من الجماهير، الدعم، الذي سيأتي، ليس فقط من شنغهاي، و لكن من جميع أنحاء البلاد.

لأسباب عديدة، لم تكن قيادة الحركة قادرة على التعبئة في الوقت المناسب، و مع ذلك، فقد سلطت الضوء على الموقف الحاسم و بدون تسوية، الذي اتخذته جيانغ كينغ و شينغ شون شياو لتحدي سلطة صانعي الانقلاب، و على الرغم من شاشة الذخان، التي خلقها هو، و التي حاولت الدفع بالاعتقاد بأنهم يتصرفون كما كان يريد ماو، ففي شوارع الصين كان من بين الجماهير من يؤدي التحية بالأصبع الخمسة من وراء ظهر مسؤولي السلطة. لا حاجة للكلام من أجل الفهم، لقد كان الثوريون : ماو و الأربعة هم الذين من تمت الإطاحة بهم.

و قد أفاد مراقب من الخارج، كان في شنغهاي آنذاك، أن جميع الأحاديث و التحركات كانت مراقبة عن كثب، و أن هناك توترات قوية للغاية بين الناس. لقد تمت إزالة الملصقات الرسمية للجنة المركزية، التي تدين قادة الثورة الثقافية الأربعة عن جدران محطة سكة حديد نانجينغ.

مما لا شك فيه، أنه لا يزال هناك العديد من القصص، التي يجب كشفها و اكتشافها، فقد مارس المناهضون للثورة قمعا وحشيا بسرعة و بشراسة، و قاموا باعتقال و سجن المتعاطفين من اليسار المعروفين، حيث أعدم العديد منهم.

كان هذا الانقلاب في الصين، بمثابة ضربة رهيبة للشعب الصيني و للشعوب في جميع أنحاء العالم، فقد كانت الصين الثورية منبعا مشرقا للتشجيع، بالنسبة لمآت الملايين من الناس، الذين يطمحون إلى التحرر من نير الاضطهاد، فخلال الستينات حذرت الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى بقيادة ماو و المقر العام وسط الحزب بالإطاحة بالسلطة البروليتارية و عودة الرأسمالية. و لمدة عشر سنوات طويلة تم إحراز تقدم هائل من قبل أولئك من الرجال و النساء، الذين صورهم التاريخ على

أنهم ديس عليهم و استبعدوا. كم كانت البروليتاريا ستربح من الأرض خلال هذه الأحداث، فقد تم تطوير العلم الثوري، و تم إغناؤه على مستوى نوعي لم يتحقق لحد الآن.

قريبا سيتم الحديث عن الماركسية- الينينية فكر ماو، سترى النور أحزاب جديدة، ومنظمات جديدة في جميع أنحاء العالم مستلهمة من الثورة الصينية. و لرؤية هذا التحول الجذري بهذا الشكل، و العميق للمجتمع، في ظل حكم البروليتاريا ، و أن تحطمه حفنة من القادة التحريفيين البورجوازيين، الذين كانوا في وسط الحزب، و الذين اغتصبوا سلطة الدولة، من أجل تحقيق أهدافهم الخاصة، فقد كان ذلك أمرا لا يطاق و عصي على الاستيعاب.

و لكن في الوقت نفسه، أعطى ماو في قلب الثورة الاشتراكية أسلحة جديدة للماركسيين – اللينينيين، الذين عليهم امتلاكها من أجل فهم طبيعة هذا الانقلاب، و اطلاعهم على كيفية مواصلة الطريق نحو الشيوعية. لم يكن هذا مهمة سهلة، فقد كان من الضروري عمل تركيب لطبيعة المجتمع الاشتراكي، و كذلك ما يتعلق بمساهمات ماو في العلم، و كذلك في الأحداث، التي وقعت في الصين بتحريك من المعارضة الشجاعة، التي اضطلعت بها جيانغ كينغ و شانغ شون شياو، و رفضت العديد من الأحزاب و المنظمات الماركسية – اللينينية التخلي عن الثورة في مواجهة خيانة التحريفيين الصينيين، و كذلك الهجوم الإيديولوجي المعادي للشيوعية، الذي وضعته البورجوازية موضع التنفيذ على التو.

بعد القبض على المقر العام الثوري، نفذ النظام عمليات تطهير واسعة النطاق في الحزب، و في 1977، بدأت عمليات الإعدام، و في أقل من عامين تم إلغاء اللجان الثورية، و رجعت الامتحانات من أجل الالتحاق بالجامعة، و رجع نظام الامتيازات (الذي استفاد منه إلى حد كبير أبناء قادة الحزب الجديد). و تم تعديل أو حظر إنتاج الأفلام السنيمائية و غيرها من الأعمال، التي تم إنتاجها تحت إشراف جيانغ كينغ، و أعاد التحريفيون تعميم النسخة القديمة من رقص الباليه للفتاة ذات الشعر الأبيض، و هي نسخة كانت تعرض قبل الثورة الثقافية، و شددوا على جانب الحب في الباليه، و تم إحياء قتل الأطفال الصغار من الإناث، و

أصبح الأطفال الذكور مرة أخرى عنصرا ذا قيمة، و انطلقت النسور الأجنبية مثل كوكا كولا و ميسوبيشي، من أجل خلق أسواق جديدة في الصين، حيث يتلاءم الإنتاج مع حاجيات الامبريالية. و قد تم التشجيع على هذا الإنتاج بواسطة أنظمة المكافآت، و تزايدت التقسيمات في الأجور بسرعة، و باختصار، رجعت الرأسمالية الانتقامية إلى الساحة.

كل هذا تم في جو ثقيل من القمع، الجو الذي جر معه الخط "الرسمي" الجديد للحزب. لقد توقف صراع الخط السياسي، الذي قدم إلى الأمام بناء الاشتراكية، خلال أكثر من 20 سنة، بشكل مفاجئ.

IX - جيانغ كينغ و التحريفيين : من يحاكم من ؟

"لنا الحق في الثورة! فليسقط التحريفيون من أمثال دينغ كسياو بينغ! أنا مستعدة للموت"

(جيانغ كينغ)

"لنا الحق في أن نثور، القيام بالثورة ليس جريمة، اقصفوا المقر العام"

(جيانغ كينغ)

"فخر كبير أن يقطع رأسك على أن تتنازل للتحريفيين"

(جيانغ كينغ)

"ساعدوا جيانغ كينغ على التلويح بالعلم الأحمر"

(من رسالة لماو إلى زوجته قبل وفاته)

1) أشهر محاكمة في القرن 20 :

"كل يوم مع صياح الديك كنت أخرج سيفي من غمده"

في 29 دجنبر، فيما كان آخر ظهور لها في المحكمة، قبل صدور الحكم، صرخت جاينغ كينغ بشعارات الثورة الثقافية، و أحدثت مرة أخرى ثورة كبيرة في محاكمة التحريفيين، و حذر القاضي، الذي أخذ على حين غرة، بأنها تبتعد عن القضية و تشوه سمعة الحكام الصينيين و المحكمة، ثم أمر "خذوها بعيدا". لا يريدون السماع للمزيد من محاكمة النظام و إعلان حقيقته أمام الشعب الصيني و شعوب العالم. لقد ظنوا أنهم يحاكمونها، و الحال هي من كانت تحاكمهم.

و هي تقصفهم بحقيقتهم، فجأة أصبحت الصور التلفزيونية المعروفة لدى الجمهور خالية من أية صورة في هذه اللحظة (كانت محاكمة جيانغ ينقلها التلفزيون). و ما لم يظهر في الصورة، و ما لا يريد التحريفيون أن يصل للشعب الصيني، أنه تم جرها خارج المحكمة من طرف ثلاث ضباط قضائيين مسلحين مرتين على الأقل، منذ انفجارها في 12 دجنبر.

بدأت هذه الجلسة الأخيرة بقائمة من التهم الموجهة إلى جيانغ من قبل المدعي العام، الذي دعا بعد ذلك إلى عقوبة الإعدام بسبب **"جرائمها الصارخة"**. بعد إعداد السيناريو، تدخل القاضي موضحا أن **"الحقائق واضحة، و الأدلة قاطعة، ستتحمل المحكمة الخاصة المسؤولية الجنائية وفقا للقانون"**.

سخرت من القضاة و النيابة العامة واصفة إياهم ب **"جماعة مصاصي الدماء"** و **"النسور الوسخة"**، و واصفة التحريفيين ب **"المومياءات البورجوازية"**.

هكذا، تمثل محاكمة جيانغ كينغ، إحدى أشهر المحاكمات السياسية في القرن العشرين، فلمدة أربع سنوات تم سجن جيان كينغ و رفيقها شانغ شون شياو دون توجيه أي تهمة لهما، و قد حاول هوا كيو فينغ أن يجعل جيانغ كينغ تعترف بأخطائها

المزعومة، لكن جيانغ الحذرة كانت ترد عليه باستمرار: **"أتحداك أن تفرج عني"**، و في سنة 1978 تم استبدال هوا كيو فينغ بقائد آخر في الحزب، هو في الحقيقة من يحرك الخيوط، إنه التحريفي حتى النخاع، دينغ كسياو بينغ، الذي كان هاجس الانتقام مسيطرا عليه بشكل تام، فهو من أجل الانتقام من جيانغ كينغ، التي ظلت تلك الثورية التي تقض مضجعه كلف هذا التحريفي بنغ شن، الرئيس السابق في لجنة بلدية بكين (و هي لجنة تمت الإطاحة بها خلال الثورة الثقافية) باستجواب جيانغ كينغ قبل محاكمتها سنة 1980، و كان ذلك من مكر التاريخ.

جاء في إحدى التعليقات لهذه الثورية العظيمة، أنها كانت حريصة على أن تكون في كامل اللياقة الصحية الممكنة أثناء سجنها للدفاع عن الثورة الثقافية قدر الإمكان، فالثوريون دائما معنوياتهم مرتفعة لأنهم على حق فيما يفعلون، هكذا بدت جيانغ على امتداد محاكمتها – المهزلة.

"كل يوم مع صياح الديك كنت أخرج سيفي من غمده"، كما قالت، في الإشارة إلى عبارة معروفة جدا لجنرال كان يقولها عندما كان يستعد للمعركة، و الحال أن معركة جيانغ مع التحريفيين ليست ككل المعارك.

كان أول تكتيك للتحريفيين، هو إسقاط الحكم الذي كان قد صدر ضد لين بياو، فقد تم منحه صفة يساري متطرف، مما مهد الطريق لإدانة المتهمين العشرة باعتبارهم جزءا من زمرة.

لقد التجأوا إلى الجنرالات اليمينيين القدامى، الذين تآمروا ضد ماو في أوائل سبعينات القرن العشرين، و ذلك من أجل جعل الخطوط السياسية أكثر تشويشا، و التي يجب فكها. و يبدو أن الدعوة إلى المحاكمة، التي تم تصويرها، قد استأنفت ثلاث مرات، لأن الاعتراضات غير المتوقعة لجيانغ كينغ جعلت الفيلم "غير مناسب" للبث التلفزيوني، و قد حرص التحريفيون أن يتابع كل الصينيين في كل أنحاء البلاد محاكمة جيانغ و رفاقها الثلاثة إمعانا في الانتقام و الشماتة.

كان لجيانغ من القدرات ما يجعلها محامية نفسها، فعندما سئلت عما إذا كانت تريد محاميا للدفاع عنها، لم تتردد في إدانة هذه المحاكمة، باعتبارها محاكمة زائفة : **"أريد خدمات محامي فقط إذا كان يعتمد على المؤتمرين التاسع و العاشر للحزب للدفاع عني!"**. و قد تم رفض الطلب، ثم أعلنت جيانغ كينغ أنها ستدافع عن نفسها.

و قد كتبت جيانغ وثيقة من 181 صفحة تدين فيها الاتهامات المشينة، التي أنزلها التحريفيون عليها، و مما جاء فيها قولها :

"إذا كان، وفقا لكم أنه من المفترض أن يكون اليسار قد قام بسجن قادته لمدة طويلة بأدلة ملفقة، فإني أتساءل كثيرا عن ماذا تفعلون الآن أنتم انفسكم؟ ما الخطأ في أن الثورة الثقافية أطاحت بالمقر العام الرأسمالي ليوشا وشي و شركائه، و إعادة الحزب إلى طريق مهمته التاريخية؟".

لقد ذهبت إلى لب السؤال و صلبه عندما قالت : **"لن اعترف بأنني ارتكبت جرائم، ليس لأني أريد عزل نفسي عن الشعب، بل لأنني بريئة. إذا أردت الاعتراف بأي شيء، إذن فقد حصرت المعركة في صراع من أجل السلطة. أنتم الذين توجد في أيديكم السلطة اليوم، لذلك من السهل جدا اتهام أي شخص بارتكاب جرائم، و تلفيق أدلة زائفة في هذا الصدد. لكن إذا كنتم تعتقدون أنكم تستطيعون خداع الشعب الصيني أو شعوب العالم، فإنكم لا تخدعون إلا أنفسكم، لست أنا، بل زمرتكم الصغيرة هي من يخضع للمحاكمة، إنها محاكمة سيكون التاريخ فيها هو القاضي الوحيد"**. و قد كانت مرافعتها في إحدى أطوار المحاكمة، التي بدأت في 20 نونبر1980 و انتهت في يناير 1981 تسير بالتحديد في هذا الاتجاه. و على عكس وانغ

هونغ ون، و ياو ون يوان، اللذين فضلا الصمت أثناء المحاكمة وعدم الدخول في المواجهة، فبالنسبة لشانغ شون شياو، فقد التزم صمتا مليئا بالتحدي (ما عدا عندما يرفض الاتهامات الموجهة إليه) رافضا الاعتراف بالمحكمة، التي ترأسها 35 قاضيا، و قاعة محكمة مليئة بجمهور مهيأ مسبقا للعب أدوار معينة، تمثلت في إطلاق الإهانات و كل أنواع السخرية اتجاه القادة الثوريين. أما من جهة جيانغ كينغ، فقد قابلت القضاة بازدراء و ثقة في النفس، و حولت الاتهامات، التي جرموها بها ضدهم بالإجابة "**إن معظم الحاضرين اليوم، بمن فيهم رئيسكم ليانغ هوا، قد تنافسوا على انتقاد ليو شاوشي، فإذا كنت أنا مذنبة فماذا عنهم؟**"، و أوضحت العلاقة بين أفعالها و الخط الثوري لماو، الشيء الذي أسكت قضاتها مرة أخرى، و الذين لم يتمكنوا من مناقضتها أو معارضتها، و اتجهوا إلى ترديد عبارة "إلزمي الصمت!"، فأجابت جيانغ "**بما أنكم لا تدعوني أتكلم، فلماذا لا تضعوا مكاني بوذا من الطين، الذي يمكنكم مقاضاته ... لقد كنت زوجة ماو لمدة 38 سنة، و قد اتبعت خط ماو و خط الحزب. إن ما تحاولون القيام به، هو جعل أرملة تدفع دين زوجها المتوفى، لذلك أقول لكم، إنني سعيدة، و يشرفني أن أدفع ديون الرئيس ماو!**". و في أجواء مشحونة، كررت عبارة مشهورة لماو التي تقول، إن الثوري الحقيقي لم يعد له ما يجيب به على السماء أكثر من القوانين.

لم تستطع السلطات أن تتحمل، و بينما كانوا يخرجونها من القاعة صاحت قائلة :

"**لنا الحق في الثورة! فليسقط التحريفيون من أمثال دينغ كسياو بينغ! أنا مستعدة للموت! اقصفوا المقر العام**".

لقد صدم التحريفيون بكل هذا، و ما كان عليهم إلا أن يراجعوا خطة عملهم و محتوى مقلبهم، لقد أفحمتهم المرأة، و وجدوا أنفسهم أمام خصم يحاكمهم و ليس هم من يحاكمونها.

لقد ألهمت أعمال جيانغ و أفعالها الشعب الصيني، و شعوب العالم أيضا، بل و حتى الرجعيين الصينيين أجبروا على الاعتراف بذلك. لقد عمت المظاهرات و أقيمت التجمعات، من سيريلانكا، حيث تعرضت السفارة الصينية لهجوم، إلى الولايات المتحدة

الأمريكية، و من باريس إلى لندن، ففي فرنسا تم نشر إعلان في "جريدة لوموند الفرنسية" و قعه 2000 شخص، بهدف "إنقاذ جيانغ كينغ"، و تشكل تضامن في مؤتمر الأحزاب و المنظمات الماركسية – اللينينية و الحركة الشيوعية العالمية، الشيء الذي أطلق العنان لعملية تقارب أنصار فكر ماو تسي تونغ.

و قد ماطل نظام دينغ لمدة تجاوزت شهرين قبل الإعلان عن وفاة جيانغ و شانغ شون شياو. و كان التحريفيون يتساءلون عما يمكن أن يلحق بهما المزيد من الضرر، هل هو إعدام هذين الثوريين، أو السماح لأكثر السجناء شهرة على وجه الأرض بمواصلة العيش، و الحال أن الحل الأول هو ما كان في مصلحتهم، و قد سمح لهما بسنتين ل"الاعتراف بأخطائهما"، و يوم سمعت جيانغ كينغ كلمة "موت" صرخت **"إنها ليست جريمة صنع الثورة!"**.

لقد أقدم التحريفيون على كل الممارسات الحقدية، من أجل تمريغ أنف جيانغ في التراب، و إلحاق كل أشكال الإهانة بها، فقد تم حبسها في سجن كوين شنغ، و قضت عددا كبيرا من السنوات في الحبس الانفرادي، و عندما رفضت التعاون مع السلطات، حرمت من الطعام و ممارسة الرياضة، و كانت تتعرض للضرب من طرف الحراس. و خلال معظم ذلك الوقت، سمح لها بالتحدث فقط عندما يطرح عليها السؤال، و كان الشخص الوحيد، الذي سمح له بالتحدث إليها هو ابنتها لي نا. و قد كانت السلطات تفرض على السجناء السياسيين كتابة نقد ذاتي شهري، غير أن جيانغ كينغ رفضت الانقياد إلى تعاليم الحكام الجدد و رفضت كتابة ما يريده التحريفيون نقدا ذاتيا، لكن الخط الثوري الذي سارت عليه كان نهجا صحيحا بالنسبة لها، و ظلت متشبثة بهذه القناعة إلى آخر رمق في حياتها. و كما ورد في مقال في النيويورك تايمز لسنة 1983، فإن جيانغ تحدت سجانيها بكتابة الشعارات على جدران زنزانتها داعية ل "قطع رأسها"، و هي بذلك تريد إحراج التحريفيين أمام شعوب العالم. و قد حدث أن طلبت لقاءا مع دينغ كسياو بينغ، رأس الأفعى، إلا أنه رفض، لأنه على ما يبدو غير قادر على رفع التحدي في مواجهتها، لأنه يعرف أنه متورط حتى النخاع في خيانة الثورة البروليتارية الصينية.

استنفرت جيانغ كينغ كل طاقتها من أجل الاستمرار في فضح التحريفيين، فقد كتبت داخل السجن عدة مقالات تدين فيها التحريفيين لتسليط المزيد من الأضواء على حقيقتهم، و قد طلبت المشاركة في مؤتمر الحزب الثاني عشر، الذي كان من المقرر عقده في صيف 1982 حتى تتمكن من عرض آرائها السياسية، لكن أنى لها ذلك، فلن يسمح الخط اليميني أن يحاكمه الخط الثوري لأنهم يعرفون أنها ستفحمهم وأن لها صولات في ذلك، و في ذلك قامت جيانغ بتفعيل الشعار الماركسي- اللينيني لماو تسي تونغ القائل : **"علينا السباحة ضد التيار"** و هو المبدأ، الذي يجب أن يتحلى به كل ثوري ماركسي- لينيني داخل الحزب من أجل الدفاع عن مواقفه.

في السنة الموالية تم تخفيف عقوبة الإعدام إلى السجن مدى الحياة، فقد أبقوها على قيد الحياة، لكن في حقيقة الأمر فهم يهيئون لاغتيالها داخل السجن، و هو إعدام تم تحت جنح الظلام، فبقاء جيانغ حية، حتى وإن كان السجن مدى الحياة هو أمر مزعج للتحريفيين، ويجب قطع دابر هذا الخط الثوري، الكابوس الذي يجب التخلص منه.

ظل الشعب الصيني مساندا لجيانغ في محنتها رغم كل الآلة الجهنمية الدعائية التي وظفها الانقلابيون ضدها، من أجل تشويه سمعتها و تسويد صفحاتها البيضاء في القتال من أجل الدفاع عن الخط الثوري، خط ماو، إذ يقال أن هناك منشورات كانت تتداول في بكين، و شانتونغ مسقط رأسها تدعم الثورة الثقافية و تدين السلطة الموالية للرأسماليين، كما يحكى أنها منشورات كتبت بخط يدها، تم تهريبها من السجن سنة 1980، و في نهاية هذه السنة طبعت رسالة في الصين، و أرسلت سرا إلى الماركسيين – اللينينيين خارج البلاد، أشادت فيها جيانغ بالموقف المدافع بشجاعة عنها وعن شانغ شون شياو، و شرحت بعض الصعوبات في الخط السياسي، الذي حال دون قيام الثوار بالعمل بسرعة لاستعادة السلطة بالقوة بعد انقلاب 1976، إنها مناشدة من طرفها للشعب للحكم على السنوات الأربع تحت دكتاتورية البورجوازية، و في وقت لاحق أكدت مصادر يابانية،

أن هذه الرسالة تعممت عبر العديد من المنشورات في جميع أنحاء الصين، و أنه كانت هناك حتى دعاية تحريضية مفتوحة في الشوارع (و هذه مؤشرات تدفع التحريفيين إلى التسريع بالتخلص من جيانغ عن طريق الاغتيال).

كان ماو يدرك تمام الإدراك أن رفيقته جيانغ ستكون محط انتقام من طرف الانقلابيين، و هو انتقام موجه إليه في المقام الأول، ما دام ذنب جيانغ ليس إلا أنها اتبعت خط ماو، الخط البروليتاري، إنهم ينتظرون بكل شغف اختفاء ماو عن مسرح الحياة لكي يعملوا بكل راحة.

قبل وفاته في 9 شتنبر 1976، قام ماو بمهمتين، الأولى، أنه ذهب إلى المكتب السياسي، و الثانية، كتب رسالة إلى جيانغ في شهر يوليوز. و في اجتماع المكتب السياسي، ألقى اللوم على اليمين، الذي كان يتمنى موته القريب لمواصلة تنفيذ مؤامراته، و بنفس النبرة ذكر أن الاتحاد السوفياتي و الولايات المتحدة الأمريكية كانوا أعداء. و بالنسبة لرسالته إلى جيانغ، فتعبر عن حالة من التحدي في ما يأتي، رسالة لا تخلو من النقد الذاتي الحاد، و يحث جيانغ على القتال من أجل استعادة السلطة المغتصبة.

"لقد خدعت، منذ اليوم سننفصل، كل منا سيكون في عالم مختلف، و يبقى كل واحد منا في سلام. من المحتمل أن تكون هذه الكلمات القليلة آخر رسالة سأخبرك بها. الحياة البشرية محدودة، لكن الكفاح الثوري لا حدود له. خلال كفاحي في هذا العقد الماضي، حاولت الوصول إلى قمة الثورة، دون أن أستطيع الوصول إليها للأسف، و الأمر متروك لك لتسلقها إلى أعلى مستوياتها، إذا فشلت فستغرقين في هوة لا قرار لها، سيتم سحق جسمك، و سيتم كسر عظامك". لقد كان استشراف ماو في محله، لأنه يعرف ما يستطيعه التحريفيون، لقد سحق حقا جسم المرأة و تم كسر عظامها، عندما اغتالوها، و لا أحد يدري كيف كانت طريقة الاغتيال.

هذه الكلمات الأخيرة من ماو كانت في الواقع موجهة ضد التحريفيين، الذين احتفظوا بالسلطة، و الذين سعوا إلى خلق انشقاق بين ماو و زوجته، و كان هذا هو السياق، الذي أطلق ماو فيه النداء التالي :

"ساعدوا جيانغ كينغ على التلويح بالعلم الأحمر".

و إذا كان ماو قد حث في نهاية حياته الثوار على مساعدة جيانغ على التلويح بالعلم الأحمر، فذلك لأنه كان يعلم أنها الوحيدة، من المستويات العليا في الحزب الشيوعي الصيني القادرة على القيام بذلك.

إنها رسالة تطوق عنق جيانغ، و ما عليها إلا أن تكون في مستوى هذه المهمة الجسيمة، و قد كانت حقا وفية لما جاء في الرسالة، و محاكمتها كانت خير دليل، فقد دافعت باستماتة عن خط ماو، و هي بين القضبان و أفحمت جلاديها من التحريفيين، حتى أنهم كانوا في عجلة من أمرهم للتخلص من كابوس يقض المنام اسمه جيانغ كينغ.

و إذا كان ماو قد دعم جيانغ، فإن هذه الأخيرة قد دعمت ماو خلال كل هذه السنوات التي كانت فيها رفيقته و زوجته، و التي تربو عن 38 سنة، عندما قاتلا سويا لصنع الثورة، لكن هل كان هذا الاتحاد في النضال مفروشا بالورود، بكل تأكيد فالجواب بالنفي، ففي سيرورة هذا النضال كان لابد من حل بعض الخلافات بين الرفيقين الشيوعيين البروليتاريين.

إذا كان لجيانغ أي ذنب ارتكبته، فتساقطت عليها الاتهامات كالمطر، فذنبها الأول و الأخير، أنها امرأة تجرأت على الكفاح من أجل بلوغ مرتبة في السلطة داخل الثورة، فحسب من ما زالت المبادئ الكونفوشيوسية تسري في دمائهم، على جيانغ أن تكون في هامش السلطة لا في معمعانها، والأحرى أن تكون قائدة فيها.

و قد حرص الأعداء السياسيون لجيانغ كينغ على إبراز المرأة أمام الشعب و أمام العالم، أنها هي فقط امرأة و زوجة رئيس تبحث عن إثبات الذات و إبراز شخصها، فحرصوا كل الحرص أن تظل خارج دائرة الشأن العام، لكن المرأة ما انفكت تبرهن عن ثوريتها و شيوعيتها منذ أن حلت بيانان، و قد وجدت كل الدعم و المساندة من طرف ماو، منذ أن تعرف عليها لأول مرة، إلى آخر رمق في حياته، فالخط الصحيح الذي سارت عليه لم تخطئه عين ماو، لذلك عندما قادت الثورة الثقافية الصينية، فقد أهلها لذلك ثوريتها التي أبانت عنها لأكثر من38 سنة، و لم تبدل تبديلا.

لم يكن غائبا عن ذهن ماو أن رفيقته في النضال و الثورة ستجد الطريق سالكة، فقد كان متأكدا أنه ستلاحقها الهجمات الشخصية، و لم يكن غائبا عن ذهن جيانغ أنه سيكون عليها خوض معارك نارية و نضالا شرسا ضد كل أشكال الاضطهاد، لقد ناضلت ضد الاضطهاد الإقطاعي، و ضد التقاليد البالية، و ضد الاضطهاد الجنسي، الذي يحدد للمرأة المكان الذي يجب أن تشغله داخل المجتمع.

لقد تعامل التحريفيون مع جيانغ كينغ بالمنطق الكونفوشيوسي حول المرأة و الأسرة، و بما أن الكونفوشيوسية تؤمن بمبدأ تحمل المرأة لكل أخطاء زوجها، فعلى جيانغ كينغ أن تتحمل كل أخطاء زوجها ماو.

بكل تأكيد، فقد أثرت الشائعات البغيضة و الهجمات الحقيرة الصادرة من أعداء ماو على حياتها الشخصية، لكن لم يكن لها تأثير على حياتها العامة، فقد كانت جيانغ تعرف كيف تفصل بين الاثنين، و هي التي تعرف كيف أن هزيمتها هي انتصار للأعداء، لكن الشيوعية حتى النخاع التي كانتها فوتت عليهم هذا الانتشاء بالنصر، كانت جيانغ تحارب على جميع الجبهات و تصارع في كل مكان، ففي حياتها السياسية، دأبت جيانغ دائما على حث النساء على التمرد ضد القمع الجنسي، و قاتلت في مجال الفن، كي لا يبقى تحت هيمنة الذكور، وكم سطرت من الملاحم في هذا الشأن قبل الثورة الثقافية و في معمعانها. ففي المسرحيات التي كانت تنتجها، كانت نساؤها البطلات هن أولئك النساء اللواتي كما تقول "**خلصن أنفسهن من النير الخانق للماضي ليتولين دورا ثوريا**"، و في السناريوهات التي كان تكتبها كانت تحرص على أن تكون البطلات نساء ثوريات، و ذلك في محاولة لتخليص الفن من طابعه الباترياركي، و كان هذا واحدا من أهداف الثورة الثقافية، التي كانت رائدتها. و لجيانغ أيضا معارك مشت بذكرها الركبان فيما يتعلق بالقيادة داخل الحزب، فرغم ان الحزب الشيوعي الصيني كان يجسد التحرر الشامل، فمع ذلك لم ينج من تأثيرات مجتمع شبه إقطاعي، شبه استعماري، و بالتالي كان الحزب صورة مصغرة عن المجتمع الصيني، فبحكم أنه منبثق من

اضطهاد قديم، فلا زال هناك الكثير يستوجب محاربته من أفكار متخلفة فيما يخص النساء، و قد كانت جيانغ كينغ من قاد هذه المعركة بكل الصلابة الممكنة و الصراع الذي كان بلا هوادة.

كان لزاما على الحزب و هو الذي يتبنى المبادئ الشيوعية، أن يحارب العادات القديمة، و طرق التفكير التي كانت سائدة، و كان لزاما عليه أيضا أن يجند النساء لشن حرب التحرير ضد كل ما هو عتيق. وبعد التحرير قام الحزب بعمل كثير من أجل كسر الحواجز التي تواجه النساء، و تمكينهن من المشاركة في الإنتاج على قدم المساواة مع الرجال، كما تم تشجيعهن على الانضمام للحزب.

كما خاض الحزب صراعا إيديولوجيا من أجل تمكين النساء من التحرر، لكن لإحداث التحويل المنشود في التباينات بين الرجال و النساء بشكل عميق، فلا يمكن الزيادة في سرعة ذلك، إلا في سيرورة البناء الاشتراكي، ولن يتحقق ذلك إلا بانخراط النساء في صراع حقيقي يقضي على النظام القديم، و بإحداث ثورة في إيديولوجية الشعب، و لن يسمح ذلك إلا بالسلطة في أيدي البروليتاريا، و هذا ما ناضلت من أجله جيانغ كينغ، نضال من أجل التحرر حتى أخر نفس، فكانت هذه القائدة الشيوعية الثورية مصدر إلهام لنساء الصين، و ذلك لانتزاع "نصف السماء" كما يقول ماو تسي تونغ.

2 - موت جيانغ كينغ : اغتيال عن سابق إصرار و ترصد

سيظل موت جيانغ كينغ مشبوها طالما لم يثبت العكس، فكل المؤشرات تدل على أن أيدي التحريفيين ملطخة بالدماء، و أنهم متورطون حتى النخاع في جريمة الاغتيال، التي حولوها ادعاء و بهتانا إلى قضية انتحار، إنه الخداع الذي يتقنه التحريفيون بكل براعة، فليست جيانغ كينغ، البروليتارية الثورية، المؤمنة بالحياة، التي واجهت العواصف، التي كانت تحيط بها من كل صوب، بكل شجاعة الشيوعيات الثوريات، من يقدم على الانتحار، فالانتحار لغة الجبناء، و ليس لغة الشيوعيين، و كانت جيانغ كينغ

تلك المرأة القوية، التي لا تهزها أية ريح مهما كانت عاصفة، و لا تهاب خوض المعارك الكبرى، و كانت في سجنها لا يلهج لسانها إلا بضرورة الاستيلاء على السلطة، و بالتالي كان عندها أمل أن تعيش هذا الحدث، فكيف لها أن تنتحر كما يزعم جلادوها.

كان الانقلابيون في عجلة من أمرهم للتخلص من هذا الكابوس الذي يدعى جيانغ كينغ، فقد أدانت المجازر في تينانمن، و قالت أن النظام لا يمكن أن يعيش طويلا، فهي مصرة على إجهاض مخططات التحريفيين، فكان لزاما عليهم أن "يتغذوا بها قبل أن تتعشى بهم"، و أن يسرعوا القتل قبل أن تحشد المزيد من التعاطف من الشعب الصيني و شعوب العالم، هي التي ما فتئت تحظى بالحب وسط الشعب الصيني و شعوب العالم.

لم يصدق الشعب الصيني فرضية الانتحار، و هو أمر كان محط شك أيضا من طرف علماء الحضارة الصينية، فالمرأة كما تحكي ابنتها التي زارتها آخر مرة، كانت بصحة جيدة و تتمتع بمعنويات مرتفعة، كما يكون دائما الشيوعيون الثوريون، و كيف يمكن لمن كان مقبلا على كتابة سيرته الذاتية أن يوقف مشروعه فجأة ؟ و من جهة أخرى هل كان غائبا عن السجان ما يدور في الزنزانة، و هي التي تتعقبها الكاميرات ليل نهار؟

لقد ظن الانقلابيون أنه بتصفية جيانغ كينغ، سيصبحون مطمئنين إلى حسن المآل، و أنهم أقنعوا الصينين و العالم بصحة رواية الانتحار، وأن ما سيقدر عليه الشعب الصيني أنه سيبكي قائدته البروليتارية و يرثيها و ستهدأ الأمور، غير أنه حدث ما لم يكن يتوقعه القادة الجدد للنظام، حيث ستخلق وفاتها مشكلا عويصا لهم، فقد امتلأت بكين بملصقات الاحتجاج، و شعارات تقول

"عاش الخط الثوري لماو تسي تونغ! الموت للحزب الشيوعي المزيف لدينغ كسياو بينغ!"

بل علقت صور بزي عسكري لجيانغ كينغ، كتب فيها **"الرئيس ماو تسي تونغ لن ننساك أبدا!"**، كل هذا من شأنه أن يربك القادة التحريفيين، و حتى لا تخرج الأمور عن سيطرتهم، و ينقلب كل شي ضدهم، حظر دينغ كسياو بينغ بيع أي كتب و

مستندات حول جيانغ كينغ، بل حتى صورها القديمة تم حظرها، كما لم يعد مسموحا عرض الأوبرا و البالي الثوري على أجهزة التلفزيون و الراديو، فكل ما من شأنه أن يذكر بجيانغ كينغ تم منع تداوله، لقد نهجوا سياسة المحو للمرأة، كأن لسان حالهم يقول الاشتراكية كانت قوسا فتحناه، و نحن اليوم نغلقه بتصفية أهم ما يذكر به، جيانغ كينغ، كان هذا أملا في إسقاطها من ذاكرة الصينيين و كل شيوعي للعالم، لكن شبح جيانغ كينغ سيظل يطاردهم.

لقد دفعت جيانغ كينغ بالثورة إلى أعلى قمة عرفتها البروليتاريا العالمية، لقد أرادت أن تسير بالثورة حتى النهاية، و كانت واعية بالعقبات التي ستعترضها، و كانت تعرف مدى شراسة خصومها و حقدهم عليها، و أن جريمتها الوحيدة هي انها رافقت ماو على درب الثورة و كانت عضده، الذي لا يلين، لكن كان عليها أن تستمر في صناعة التاريخ الصيني جنبا إلى جنب مع الجماهير البروليتارية الصينية، فقد آمنت بصحة الثورة الثقافية البروليتارية و التجربة الصينية الاشتراكية ككل، لذلك لم تبدل تبديلا، لقد انبرت للدفاع عن العلم الأحمر، و صممت على رفعه فوق الوحل، وحل التحريفية.

لقد كتبت جيانغ كينغ فصلا رائعا من تاريخها، و استطاعت أن تلهم بفضل حزمها وإصرارها ملايين الأشخاص عبر العالم، لقد كانت صرامتها الإيديولوجية مثار إعجاب، لم يستثن حتى التحريفيين أنفسهم.

لقد فضحت الطبيعة الحقيقية للتحريفيين أمام الشعب الصيني و شعوب العالم، و استهزأت بسجانيها، و لم تسع إلى تبييض اسمها، فهو أبيض لامع عند الشعب الصيني.

خلاصة :

"**لقد نجحت فيما قمت به!**" هكذا صاحت جيانغ كينغ و كلها ثقة بنفسها بعد محاكمتها، تلك المحاكمة، التي ظلت وصمة عار تاريخية على جبين التحريفية، لقد حاولوا تدمير بطولتها الثورية، و لم يجدوا من صفة يلصقونها بها سوى اتهامها بالتطلع إلى أن تصبح امبراطورة.

كانت حياة جيانغ تعكس التزامها الثابت بالبروليتاريا و ثقتها في الجماهير و انتصار القضية الشيوعية، لقد ظلت تلوح بالراية الحمراء، ولم تتعب من التلويح بها إلى آخر نفس، و إذا كان لابد من وضع عنوان لمسار امرأة ثورية بروليتارية فذة، فإنه يمكن القول : **جيانغ كينغ، الشيوعية الثورية البروليتارية، قضية عادلة أمام محكمة التاريخ.**

جميلة صابر (7 ـ 6 ـ 2019)

مقتطفات

ناديا كروبسكايا : المعلمة البلشفية الرائعة

"منذ تلك الفترة، كنت أسمع مرارا النقاشات حول الثورة، وقد كان تعاطفي يتجه بشكل طبيعي نحو الثوريين"

" الخمس سنوات هذه التي قضيتها في المدرسة كانت الطاقة الحية التي تغذت منها ماركسيتي، وجعلتني ألتحم إلى الأبد بالطبقة العاملة "

"لا يمكن مواصلة تطورنا الاقتصادي والاجتماعي، بدون أن نكون قد وضعنا نهاية لظلمات الأمية"

"طالما أن تنظيم التعليم سيبقى بين أيدي البورجوازية، فإن التدريب المهني سيبقى سلاحا موجها ضد الطبقة العاملة، ووحدها الطبقة العاملة يمكنها أن تجعل من التكوين في العمل وسيلة ملائمة لتغيير المجتمع المعاصر".

"سيأتي يوم سيكون من الممكن خلق مدرسة يحتاجها الجيل الشاب، ويجب أيضا معرفة كيفية خلقها، ومن أجل هذا الهدف يجب امتلاك التجربة الضرورية، والتفكير في ذلك بشكل مسبق، بكيفية تعرف كيف تتلقف ذلك في الوقت الملائم".

"بناء الاشتراكية لا يعني فقط إقامة البنايات العملاقة ومعامل الحبوب، التي هي شرط أساسي، ولكنها غير كافية، فالإنسان ما زال مطالبا بتطوير قلبه وعقله"

ألكسندرا كولونتاي: رائدة النضال الثوري النسائي

" في كل مكان على السوفيات المساهمة في اعتبار النساء على قدم المساواة مع الرجال و يجب أن يعملن في دواليب الدولة و البلديات".

كلارا زتكي: المعلمة النسائية البروليتارية

"في المجتمع الجديد ستكون المرأة اجتماعيا و اقتصاديا مستقلة بشكل شامل، لن تكون خاضعة و لو قليلا للسيطرة و الاستغلال، ستكون حرة تجاه الرجل، ستكون مساوية له و متحكمة في مصيرها، ستتلقى نفس التربية كالرجل باستثناء الجوانب التي تعرف تميزا بين الجنسين، و هي تعيش في ظروف طبيعية يمكن أن تطور كل قواها و قدراتها الجسمانية و الفكرية، ستختار رغباتها بشكل أحسن، و كذلك ميولاتها و استعداداتها، ستعمل في نفس ظروف الرجل ... و لاختيار شريكها في الحب ستكون حرة كما الرجل، و تكون لها مبادرة المغازلة مثل الرجل، و لا تدخل في علاقة إلا بأخذ عواطفها بعين الاعتبار"
" بالنضال يدا في يد مع العمال الاشتراكيين، تظهر النساء استعدادا تهن لكل التضحيات و مجهودات النضال وبنفس الدرجة هن مستعدات، و باستحقاق لانتزاع حقوقهن بعد الانتصار".
"إن ما يجب فعله و قبل كل شيء هو القضاء على الفاشية، التي تريد تصفية التظاهرات الطبقية للعمال بالدم و الحديد، إن ضرورة الساعة هي " الجبهة الوحيدة" لكل العمال من أجل صد الفاشية".

دولوريس إباروري: شيوعية ثورية أممية اسبانية ضد الفاشية

"أصبحت اشتراكية لأنني اضطررت إلى التعامل مع الظلم والبؤس، ولم أكن في حاجة إلى النظر إلى نفسي في المرآة لمعرفة كم تعاني النساء الأخريات".

"من الأفضل أن تكوني أرملة بطل على أن تكوني زوجة جبان"

"يفضل الشعب أن يموت واقفا على أن يعيش جاثيا على ركبتيه"

"الرجال في القتال، النساء في العمل"

"عمال! فلاحون! مناهضو الفاشية! الإسبان! الوطنيون! في مواجهة التمرد العسكري الفاشي قوموا جميعا للدفاع عن الجمهورية، للدفاع عن الحريات الشعبية والمكتسبات الديموقراطية، البلد كله يهتز سخطا ضد أولئك اللذين يريدون غمر إسبانيا في جحيم الرعب والموت، لن يمر الفاشيون، لن يمروا!!"

جميلة بوحيرد: أيقونة الثورة الجزائرية

"أعرف أنكم سوف ستحكمون علي بالإعدام، لكن لا تنسوا أنكم بقتلي تغتالون تقاليد الحرية في بلدكم، ولكنكم لن تمنعوا الجزائر من أن تصبح حرة مستقلة"

تمارا بونكي أو تانيا الثائرة: شيوعية وثورية وأممية

"هل سيتم نسيان اسمي ذات يوم، و لا شيء مني يبقى على الأرض؟"

ليلى خالد: الأسطورة الفلسطينية الثائرة

"أنا لست معادية للسامية، أنا معادية للصهيونية، لن أقبل هذا الاحتلال أبدا، أرضي استعمرها أناس جاؤوا من مكان آخر، لذلك قررت في وقت مبكر للغاية حمل السلاح للدفاع عن أرضي".
"عندي قضية نبيلة، أكثر نبلا مني، قضية من جرائها، يجب أن تكون في مرتبة ثانية كل المصالح والاهتمامات الخاصة".
"لا يمكن تقاسم الحرية أو تقسيمها، لن يكون هناك سلام طالما يوجد صهيوني واحد على الأرض الفلسطينية".

"إن المرأة هي التي تعطي الحياة، إذن فهي التي لها القدرة على الدفاع عنها، هي التي تعمل على استمرار البشرية، لهذا السبب فأنا فخورة أن أكون امرأة".
"التضحية من أجل الوطن الأم تتجاوز الحياة أو الموت، و إذا كان هذا هو قدري فليكن".
"وماذا بعد، هناك معادلة أساسية: هناك حيث يوجد احتلال، هناك مقاومة، لا أحد يستطيع تغيير ذلك، إنه أساسي، إنه طبيعي، لا يمكن تغيير الشمس و جعلها تشرق من الغرب، إنها الحقيقة، إنه أمر طبيعي عندما تعيش تحت القمع فإنك تقاوم".

أولرايك ماينهوف: المناضلة الثائرة و القائدة المنظرة و الشهيدة الثورية

"الاحتجاج، هو عندما أقول أن هذا لا يلائمني، و المقاومة، هي عندما أعمل على أساس أن الذي لا يلائمني لن يحدث بعد الآن، و الاحتجاج هو عندما لن أشارك بعد الآن، و المقاومة هي عندما أعمل بحيث أن كل الآخرين لا يشاركون هم أيضا منذ الآن".

"تجرأ على النضال، تجرأ على النصر! اهجموا و حطموا سلطة الإمبريالية! إنه من واجب كل ثوري صنع الثورة! ندعوا جميع مناضلي الجمهورية الفدرالية إلى جعل جميع المؤسسات الأمريكية أهدافا لهجماتهم في نضالهم ضد الإمبريالية الأمريكية، عاشت "را ف".

"نحن مجموعة من الرفاق، الذين قررنا العمل على مغادرة مرحلة الخمول، التجذر الشفوي فقط، مناقشات لا طائلة منها حول الاستراتيجية، و أن نقاوم".

سعيدة لمنبهي: المناضلة الشيوعية الماركسية اللينينية الثورية المغربية

لحظة

لن أتنازل

ولو تحت الأرض

سنشق طريقا

نحو النور

فقي القلب

زروال

جيانغ جينغ: امرأة صينية ثائرة

"من ينبغي لنا أن نخدم حفنة من الأفراد (الملاكون العقاريون، الفلاحون الأغنياء المعارضون للثورة، العناصر السيئة، المحرضون اليمينيون، و البورجوازيون الأتباع) أو 600 مليون (عمال، فلاحون و جنود)؟ إن الحبوب التي نأكلها تأتي من عمل الفلاحين، ملابسنا و مساكننا هي من عمل العمال، و جيش التحرير الشعبي يؤمن دفاعنا في القواعد الأمامية، و نحن لا نذكرهم حتى على الخشبات. هل لي أن أسألكم، إلى أي طبقة تنحازون؟ و أين هو وعي الفنان هذا، الذي لا تكفون عن الحديث عنه؟".

"ترسيم الحدود بين العدو و أنفسنا"

"إذا كان الآباء ثوريون فإن أبناءهم يجب عليهم أن يسلكوا نفس الطريق، و إذا كان الآباء رجعيين فإن أبناءهم يجب أن يتمردوا".

"يمكن أن يكون لدينا أناس لقيادتنا، و الثورة لا يمكن أن تستمر بدون قادة !"،

"المهاجمة بالديالكتيك و الدفاع بالقوة"

"لنا الحق في الثورة! فليسقط التحريفيون من أمثال دينغ كسياو بينغ! أنا مستعدة للموت"

"لنا الحق في أن نثور، القيام بالثورة ليس جريمة، اقصفوا المقر العام"

"فخر كبير أن يقطع رأسك على أن تتنازل للتحريفيين"

"إنها ليست جريمة صنع الثورة!".

موقع 8 مارس الثورية